السّلسلة الصّوفيّة

١٦

محيي الدّين بن عربي

كتاب رحمة من الرحمن في تفسير وإشارات القرآن

الجزء الأوّل

تحقيق

أسعد جمعة

دار كيرانيس للطّباعة والنّشر والتّوزيع

2024

النّاشر: شركة كيرانيس للطّباعة والنّشر والتّوزيع
العنوان: إقامة الزّيتونة – عمارة عدد 3 – شقّة عدد 2 – المنار 2 – أريانة
الهاتف: 71886914 216+
الفاكس: 71886872 216+
العنوان الالكتروني: JomaaAssaad@yahoo.fr
معرّف النّاشر : 02-9938
عدد الطّبعة: الأولى
ت د م ك : 978-9938-02-019-9
تمّ سحب 1000 نسخة من هذا الكتاب

© جميع الحقوق محفوظة لشركة كيرانيس للطّباعة والنّشر والتّوزيع

محيي الدّين بن عربي

كتاب رحمة من الرّحمن في تفسير وإشارات القرآن

الجزء الأوّل

التّصدير

الـدّـص ـّيـر

1 – المؤلّف:

فتح المسلمون الأندلس في رمضان من عام 92هـ، وتعاقب على حكمها الأمويّون ثم ملوك الطوائف ثم المرابطون الذين كانت حاضرتهم مراكش.. ثمّ شهد القرن الخامس الهجري سقوط المرابطين عام 537 هـ، وورثهم الموحِّدون في المغرب العربي وغرب الأندلس، ودولة شرق الأندلس التي أقامها عبد الرحمن بن عياض وخلَفه محمد بن سعد بن مردنيش وعاصمتهم مرسية .

بعد وفاة محمد بن سعد عام 567 هـ آلت شرق الأندلس كلها إلى الموحّدين الذين توسعوا بعد ذلك وكوّنوا مملكة هي الأكبر في شمال أفريقيا والأندلس امتدّت من طرابلس الغرب إلى منتهى البرّ الأفريقي غربا، وشمالا دخل تحت سيطرتها كلّ الأندلس في أقصى امتداد وصل إليه المسلمون في تاريخهم هناك .

ومن المعلوم أنّ جزءا من جند الفاتحين كانوا من اليمن، وبعد الفتح انتقلت قبائل عربية يمنية إلى الأندلس لحماية الثغور، واستوطنوها، ونبغوا فيها في مجالات عدة، ولم تمنعهم مهاجرهم الجديدة من ذكر أصولهم اليمنية والاعتزاز بها .

وأسرة الشيخ الأكبر إحدى هذه الأسر العريقة التي انتقلت إلى الأندلس في تلك الأزمنة، وبقيت تحمل ذكرى الأصل والانتماء بعد أجيال من زمان انتقالها .

يقول الشيخ الأكبر في أكثر من موضع في ذلك :

إنّي لمن أَصْلِ أَجْوَادٍ ذَوِي حَسَبٍ
العَمُّ مِنْ طَيِّئ والخَالُ خَوْلَانِـــي

***

فأَخْوَالُنَا خَوْلَانُ والعَمُّ طَيِّـــئ
بُنَاةُ العُلَى فِي كُلِّ عَالٍ وسَافِلِ

ومعلوم أنّ طيّ وخولان قبيلتان يمنيّتان.. ويصرّح الشيخ في موضع آخر :

هِيَ بِنْتُ العِرَاقِ بِنْتُ إِمَامِي
وَأَنا ضِدَّهَا سَلِيلٌ يَمَانِـــــي

اسمه ومولده :

محمد بن علي بن محمد بن أحمد بن عبد الله الطائي الحاتمي من ولد عبد الله بن حاتم أخى الصحابي الجليل عدي بن حاتم (ت 68 هـ). يكنى بأبى عبد الله، ويلقّب بمحيي الدين، ويعرف بالطائي الحاتمي، وبابن العربي في عصره وعند المغاربة، وبدون ألف ولام عند المشارقة "ابن عربي ."

ولد يوم الاثنين 17 رمضان سنة 560 هـ (1165/7/26 م) في مرسية في شرق الأندلس ، في زمن حاكمها أبي عبد الله محمد بن سعد بن مردنيش، وكانت لوالده مسؤولية عالية في جيش حاكمها . وبعد وفاة ابن مردنيش ودخول مرسية في إطار حكم دولة الموحّدين، "انتقل علي بن محمد العربي– والد شيخنا– مع أسرته إلى أشبيلية عام 568 ليستقرّ في الشؤون العسكرية بديوان السلطان طيلة خلافة أبي يعقوب يوسف بن عبد المؤمن ومدة من خلافة ابنه أبي يوسف يعقوب المنصور . "

ذكر القاري البغدادي وصف ملامح الشيخ الأكبر، فقال: "لم يكن بالطويل، ولا بالقصير، لين اللحم، بطنه بين الغلظة والرقة، أبيض، مشرب بحمرة وصفرة، معتدل الشعر طويله، ليس بالسبط ولا بالجعد، ولا بالقطط، أسيل الوجه، أعين، معتدل اللثة، ليس في وركه ولا صلبه لحم، خفي الصوت صافيه، أغلظ منه، وما ورق في اعتداله، طويل البنان، سبط الكف، قليل الكلام والضّحك، إلاّ عند الحاجة، ميل طباعه إلى الصّفراء والسّوداء، في نظره قَدْع ، ومشيه ليس بعجلان ولا بطيء".

والده:

تجمع المصادر التاريخية أنّ والد الشيخ كان مقرّبا من الحكام سواء في شرق الأندلس أو في دولة الموحّدين، وبقي على ذلك إلى أن توفّاه الله عام 590 هـ. ولم يمنعه ذلك القرب من أن يكون تقيّا ورعا؛ يقرأ سورة يس على ابنه حين يمرض إلى أن يشفى ببركتها، ويستقبل الصالحين الذين يزورون ابنه ويجالسهم، ويزورهم مع ابنه في أوقات أخرى، وتقوى علاقته بالمفكرين والفلاسفة وفي مقدمتهم قاضي قرطبة، الفيلسوف الطبيب ابن رشد، ويرسل ابنه إليه ليعلم منه حصاد الكشف الذي أعطاه الله في صغره من غير

الطريق التي اعتاد الناس تلقي علومهم منها .. ويفخر به ابنه الشيخ الأكبر حين يذكره في كتبه بعد ذلك، ويشير إليه أنه ترقى في المقامات إلى أن أصبح من رجال نَفَس الرحمن .

توفّى والد الشيخ عام 590 هـ في أشبيلية بعد عودته من زيارة الشيخ عبد العزيز المهدوي في تونس برفقة الشيخ محيي الدين .

والدته :

اسمها نور، وهي من أسرة عربيّة أنصاريّة، أصولها يمنيّة من خولان كما قد تبيّن. يقول الشيخ : وكانت أُمِّي تنتسب إلى الأنصار :

إِنِّي امْرُؤٌ مِنْ جُمْلَةِ الأَنْصَارِ

فإذا مَدَحْتُهُمُ مَدَحْتُ نِجارِي

ويبدو أنّه كان مهتما بأمر والدته وتنمية مداركها الروحيّة، ويأخذها لزيارة الصالحات العارفات، منهنّ نونه فاطمة بنت ابن المثنى التي كانت تقول لها إذا جاءت إلى زيارتها: "أنا أُمّك الإلهيّة و"نورٌ" أُمّك الترابيّة.. يا نور؛ هذا ولدي، وهو أبوك! فبرِّيهِ، ولا تَعُقِّيْهِ . "

بعد وفاة والده عام 590 هـ كفلها الشيخ مع شقيقتيه حتى انتقلت الأمّ إلى جوار ربها .

عمّ الشيخ :

كان لشيخنا عمٌّ، شقيق والده، هو عبد الله بن محمد بن العربي، ذكر الشيخ أنه دخل في هذا الطريق وعمره ثمانون عاما وبقي عليه إلى أن مات بعد ثلاثة أعوام، وكان من المتحقّقين بمقام نفس الرحمن حسّا ومعنى .

شقيقتا الشيخ :

المراجع لا تذكر أنّ للشيخ إخوة سوى شقيقتين: الكبرى أمّ السعد والصغرى أمّ العلاء. ومات والدهم ولم تتزوجا بعد، ذكرهما الشيخ في كتابه الدرّة الفاخرة .. بقوله: "واقترح عليّ أمير المؤمنين أن ألتحق بديوانه وأن يُزوّج أُخْتَايَ. فرفضت وسافرت بهما مع أهلي وابن عمّ لي إلى فاس وزوّجتهما بفاس . "

أزواجه :

يذكر الشيخ في الباب 463 أنه كان يكره النساء والجماع في بداية دخوله الطريق وبقي على ذلك ثمانية عشر عاما، حتى شهِد مقام القطب الثامن من الأولياء.. عندها تغيّرت رؤيته وصدق في توجهه إلى الله وزالت عنه هذه الحالة، وحبّبهنّ إليه.. ويبدو أنّ

زواجه الأوّل كان مع نهاية هذه المدة وبالتحديد عام 593 هـ التي تقابل مرور 18 عاما بعد وصوله مرحلة البلوغ ..

ويؤيّد ذلك ما نلاحظه في تعبير الشيخ سالف الذكر، أنه سافر بأختيه مع "أهله" وابن عمّ له إلى فاس، وهو ما يشير إلى أنه كان قد تزوّج قبل ذلك الوقت في أشبيلية، –إذ معلوم أنّ تعبير "أهلي" المقصود به هنا الزوجة– ويكون الأقرب للتوقع أنّ "أهله" المقصودة هنا هي المرأة الصالحة مريم بنت محمد بن عبدون البجائي التي بقيت في عصمته –على ما يبدو– حتى انتقاله إلى رحاب ربّه.

وكان الشيخ يشير إلى زوجته بالصلاح وسلوك الطريق.. يقول الشيخ: "حدّثتني المرأة الصالحة مريم بنت محمد بن عبدون بن عبد الرحمن البجائي، قالت: رأيت في منامي شخصا كان يتعاهدني في وقائعي، وما رأيت له شخصا قطّ في عالَم الحسّ. فقال لها: تقصدين الطريق؟. قالت: فقلت له: أي والله أقصد الطريق، ولكن لا أدري بماذا. قالت؛ فقال لي :بخمسة، وهي: التوكّل واليقين والصبر والعزيمة والصدق. فعرضتْ رؤياها عليّ، فقلت لها: هذا مذهب القوم"، وفي موضع آخر يشير أنّه علم في إحدى وقائعه أنّ لها في التوحيد أوفرُ حظّ وأعظم نصيب .

وفي نهاية نسخة قونية يذكر الشيخ اسم زوجة أخرى له هي فاطمة بنت يونس بن يوسف أمير الحرمين. وهي أمّ ابنه عماد الدين محمد الكبير الذي وقف عليه النسخة الأولى من الفتوحات المكية التي انتهى من كتابتها عام 629 .وصيغة التعبير توحي أيضا أنها كانت على قيد الحياة عند كتابته تلك في عام 636 هـ .ويحتمل أنها أمّ ابنته زينب التي ذكرها في الفتوحات مرتين مع أُمها وجدّتها ، ووصفها بأنها كانت رضيعة عمرها دون السنتين في العام الذي ذهبتْ فيه مع أُمّها إلى الحج وذهب هو إلى بغداد من دمشق، وكان ذلك عام 608 هـ وفق رواية ابن النجار .

وفي كتاب محاضرة الأبرار يقول الشيخ: "وكان لنا أهلٌ تقرّ العين بها ففرّق الدهر بيني وبينها فتذكّرتها ومنزلها بالحلّة من بغداد" . ونظرا لأنّ آخر زيارة معلومة لنا قام بها الشيخ إلى بغداد كانت في عام 608 هـ فتكون صلته بزوجته البغداديّة قد انقطعت في تلك الآونة أو بعدها، ولا نعلم سبب ذلك الانقطاع؛ هل هو الطلاق أو الموت؟ هذه الحالات الثلاث هي التي ذكرها الشيخ صراحة عن أزواجه إما بذكر أسمائهن، أو بتعبيره المتعارف عليه "أهل ."

وذكر القاري البغدادي (توفى بعد 818هـ) أنّ الشيخ تزوج في دمشق ابنة قاضي قضاة المالكية بدمشق زين الدين أبي محمد عبد السلام بن علي بن عمر الزواوي المالكي (589–681هـ) الذي "ترك القضاء بنظرة وقعت عليه من الشيخ . "

كما أنّ مصادر أخرى تشير إلى أنّه تزوج بالأناضول أمّ صدر الدّين القونوي بعد وفاة زوجها الأوّل مجد الدّين إسحاق الرومي .

أولاده :

المعلومات المؤكدة تشير إلى أنّه كان له ولدان وبنت.. أما البنت فهي زينب التي ذكر في "الفتوحات المكيّة" كرامة حصلت لها في طفولتها ولم تكن قد بلغت العامين من عمرها.. والولدان هما عماد الدين محمد الكبير، قال الشيخ قطب الدين اليونيني عنه: "كان فاضلاً سمع الكثير وسمع معنا صحيح مسلم على الشيخ بهاء الدين أحمد بن عبد الدائم المقدسي، وتوفّى بدمشق في شهر ربيع الأول سنة 667هـ، ودفن عند والده بسفح قاسيون وقد نيف على الخمسين" . والثاني سعد الدين محمد ولد في ملطية في شهر رمضان 618هـ، سمع الحديث ودرس، وكان شاعرا مجيدا، توفي عام 656هـ، ودفن عند والده .

دراسته :

بعد انتقال أسرة الشيخ إلى أشبيلية وعمره حينذاك ثمانية أعوام بدأ شيخنا في أشبيلية يتلقى العلوم لدى أئمتها وفقهائها ..

في بداية أمره تعلم القرآن الكريم وحفظه لدى جاره، ثم تعلم القراءات السبع على الشيخ محمد بن خلف بن صاف اللخمي بمسجده المعروف به، بقوس الحَنِية بأشبيلية وكان إذ ذاك قد بلغ الثامنة عشرة من عمره،

ودرس الحديث على أبي محمد عبد الحقّ بن عبد الله الأزدي الأشبيلي، وعلى أبي الحسين بن الصائغ بسبتة، من ذرّيّة أبي أيّوب الأنصاري، وعلى أبي الصبر أيّوب الفهري، وعلى أبي محمد بن عبيد الله الحجري بسبتة، ومحمد بن قاسم بن عبد الرحمن بن عبد الكريم التميمي الفاسي، ومكين الدين أبو شجاع زاهر بن رستم الأصبهاني البزار بمكة، وآخرين.

كما أنّه درس واستوعب الفقه لجميع المذاهب الإسلاميّة، وكذا السيرة النبويّة، وكتب الأدب وغير ذلك. وكان الشيخ قد ذكر في إجازته لأمير المؤمنين الملك المظفر بن

الملك العادل أسماء ستّين من شيوخه في القراءات والحديث والفقه والسِّيَر في الأندلس والمغرب العربي ومصر ومكة وبغداد والموصل وغيرها.. ومن جميع المذاهب الإسلامية .. مبيّنا وجود شيوخ آخرين استفاد منهم غير هؤلاء .

وكذا ذكر أسماء عشرات من شيوخه الآخرين في كتبه الأخرى وأهمها "رسالة روح القدس في محاسبة النفس" و"الدرة الفاخرة فيمن انتفعت به في طريق الآخرة " تصوفه: انتسب شيخنا للطريقة أوّل أمرِه من خلال شيخه أبي العبّاس أحمد العريبي الذي قدم إلى أشبيلية من بلده "العُليا" بغرب الأندلس وكان ابن العربي أوّل من سارع إليه، ووصفه أنّه كان "بدويّا أمّيّا لا يكتب ولا يحسب، وكان إذا تكلّم في علم التوحيد فحسبك أن تسمع؛ كان يقيّد الخواطر بهمّته ويصدع الوجود بكلمته، لا تجده أبدا إلا ذاكرا على طهارة مستقبل القبلة، أكثر دهره صائما... وكان قويّا في دين الله لا تأخذه في الله لومة لائم. كنت إذا دخلت عليه يقول: مرحبا بالابن البار، كلّ ولدي نافق عليّ وجحد نعمتي إلّا أنت؛ فإنك مقرّ بها معترف، لا أنساها الله لك... وكان كثير التفكر مبسوطا مع الحقّ في عموم أحواله... وكان لا يتجرّد لنوم في ثوب، ولا يهتزّ في سماع، فإذا سمع القرآن تقصّف وتصدّعت أركانه".

وخلال هذه الفترة التي صحب فيها شيخه العريبي كان في حياته أيضا الشيخ الميرتلي، وله معه أخبار وحكايات أوردها في هذا الكتاب.

ويبدو أنّه فقد شيخه العريبي بعد عودته إلى منطقته "العليا بغرب الأندلس" بعد أن قضى في أشبيلية ستّة أشهر، وكان قد أسنّ وكفّ بصره قبل وفاته –رحمه الله–، وبقي شيخنا بعد ذلك مكتفيا بجلسات السماع الصوفي مع أقرانه مع ما يتخللها من ذكر ورقص وتواجد يستمر إلى الصباح يؤدّون في نهايتها صلاة الفجر بأسرع وقت، وهي التي سماها فيما بعد بالفترة، أو زمن جاهليّته...

ثمّ تعرّف على أحد أهم الشخصيّات التي كان لها تأثير كبير في مسار حياته وهو الشيخ يوسف بن يخلف الكومي أحد أصحاب شيخ الشيوخ أبي مدين الغوث ومن خلاله عرف لأوّل مرة دلالة لفظ التصوّف –وكان قد سلك الطريق وفتح له فيه دون معرفة مسمى هذا النهج– وقرأ معه الرّسالة القشيرية، إضافة إلى فنائه بشيخ الشيوخ الغوث بعد أن ذاق سيرته من شيخه وتلميذه الكومي –كما ذكر ذلك في الفتوحات– ومن أحد الأبدال وهو موسى السّدّراتي .

والواقع إنّ عقد الثمانينات –وعلى الخصوص عامي 585 و586 هـ– كان حافلا بأخبار فتوحاته ومواجيده وعزلته في المقابر وتنقّله في نواحي الأندلس ولقاءاته بعدد من أساطين الفكر والمواجيد.. ولعلّ لقاءه بالفيلسوف الطبيب أبي الوليد بن رشد قاضي قرطبة من أشهر هذه اللقاءات. وكان شيخنا يتوق إلى لقاء الغوث، شيخ الشيوخ أبي مدين – الذي كان يقطن بجاية– بعد أن استغرقتْ محبّته له أقصاها..

ولمّا انتقل الشيخ أبو مدين إلى رحاب ربه عام 589 هـ في تلمسان، تحرّك شيخنا من الأندلس تجاه الضفة الأخرى، إلى حيث مرقد شيخ الشيوخ بتلمسان، ومنها يتّجه صوب تونس ففيها أحد أشهر أصحاب أبي مدين؛ عبد العزيز المهدوي. وكان ابن عمّه، أبو الحسين عليّ بن عبد الله بن محمّد بن العربي، مهاجرا هناك يتلقى علومه لدى الشيخ المهدوي.

يصعب حصر شيوخه وأساتذته، نظرا لأنّه يعتبر كلّ من أفاده شيئا شيخا له، وتزخر مؤلفاته بأسماء العشرات منهم. كما تزخر كتب التراجم المؤلفة عن الشيخ الأكبر بالعشرات من الأسماء الذين ذكر فضلهم عليه.. ولعلّ أشهرهم من قد ذكرناهم سابقا عند حديثنا عن دراسته وتصوّفه..

وكان الشيخ قد أوضح أنّ ذكره لهم بهذا الأسلوب إنما هو من باب ذكر فضلهم.. فيقول في السفر 19 ص 5 ب: إنّ الإمام الأيسر الواقف على يسار القطب واسمه عبد الملك "أنعم عليّ ببشارة بشّرني بها، وكنت لا أعرفها في حالي، وكانت حالي، فأوقفني عليها، ونهاني عن الانتماء إلى مَن لقيت من الشيوخ، وقال لي: لا تَنْتَمِ إلّا لله؛ فليس لأحد ممن لقيتَه عليك يدٌ مما أنت فيه، بل الله تولّاك بعنايته. فاذكر فضل من لقيت إن شئت، ولا تنتسِبْ إليهم وانتسِبْ إلى ربّك. وكان حال هذا الإمام مثل حالي سَواء. لم يكن لأحدٍ ممّن لقيه عليه يد في طريق الله إلّا لله".

لبس الخرقة:

جاء في القرآن الكريم أنّ سيدنا يوسف عليه السلام بعد أن كشف لإخوته عن نفسه: ﴿قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ. اذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَذَا فَأَلْقُوهُ عَلَى وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ﴾.

ومن ذلك اعتبر الصوفيةُ الخرقةَ؛ يمنحها الشيخ للمريد، يخلع عليه فيها أخلاقا تتناسب والمقام الجديد المهيّأ له.. وكان الشيخ في بداية أمره لا يقول بالخرقة المعروفة الآن، "فإنّ الخرقة عندنا إنّما هي عبارة عن الصحبة والأدب والتخلّق، ولهذا لا يوجد لباسها متّصلا برسول الله صلى الله عليه وسلم ولكن توجد صحبة وأدبا، وهو المعبَّر عنه بلباس التّقوى، فجرت عادة أصحاب الأحوال إذا رأوا أحدا من أصحابهم عنده نقص في أمرٍ مّا، وأرادوا أن يكمّلوا له حاله، يتّحد به هذا الشيخ؛ فإذا اتّحد به أخذ ذلك الثوب الذي عليه في حال ذلك الحال، ونزعه وأفرغه على الرجل الذي يريد تكملة حاله، فيسري فيه ذلك الحال، فيكمل له ذلك، فذلك هو اللباس المعروف عندنا، والمنقول عن المحقّقين من شيوخنا".

واقتنع الشيخ بلبس الخرقة عندما رأى الخضرَ قد اعتبرها، وألبسها شيوخا.. ومنهم تسلسلت ووصلت إلى الشيخ الأكبر بطريقين:

الأولى من يد تقيّ الدين عبد الرحمن بن علي بن ميمون بن آب التوزري، ولبسها هو من يد صدر الدّين شيخ الشّيوخ بالدّيار المصريّة، وهو محمّد بن حمويه، وكان جدّه قد لبسها من يد الخضر.

والثانية من يد علي بن عبد الله بن جامع من أصحاب عليّ المتوكّل، وأبي عبد الله قضيب البان، كان يسكن بالمِقلى –خارج الموصل– في بستان له، وكان الخضر قد ألبسه الخرقة بحضور قضيب البان، وألبسها الشيخَ بالموضع الذي ألبسه فيه الخضر من بستانه، وبصورة الحال التي جرت له معه في إلباسه إيّاها .

وفي رسالة نسب الخرقة يذكر الشيخ أنه لبس الخرقة القادرية من يد الشيخ جمال الدين يونس بن أبي الحسن العطار بمكة بالحرم الشريف تجاه الكعبة المعظمة بعد أن صحبه وتأدب به. كما أنه كان قد لبس الخرقة من يد أبي عبد الله محمد بن قاسم بن عبد الرحمن التميمي الفاسي .

ويذكر الشيخ أنه لذلك قد ألبس الخرقة عددا من مريديه وأصحابه ذكورا وإناثا، وهناك عدد ممن ألبسهنّ الخرقة ذكرهنّ في ديوانه .

الفتح الأكبر:

يتبيّن من حديث الشيخ في الباب **351** أنّ كلّ الفتوحات التي تحدّث عنها قبل عام **590** هـ إنّما كانت بمثابة مقدّمات الفتح الأكبر الذي حصل له في العام **590** هـ، بعد أو

أثناء هذه الزيارة المباركة، وهو دخوله أرض العبودية التي ثبت عليها بقية عمره، وهي التي يصفها بعد 45 عاما بقوله:

"العبوديّة ذلّةٌ محضةٌ خالصةٌ ذاتيّةٌ للعبد؛ لا يكلّف العبد القيام فيها؛ فإنّها عينُ ذاته. فإذا قام بحقّها، كان قيامُه عبادةً. ولا يقوم بها إلّا مَن يسكن الأرض الإلهيّة الواسعة التي تسع الحدوث والقِدم؛ فتلك أرضُ الله؛ مَن سكن فيها تحقّق بعبادة الله، وأضافه الحقّ إليه.

قال تعالى: ﴿يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ فَإِيَّايَ فَاعْبُدُونِ﴾ يعني فيها. ولي مذ عبدتُ الله فيها، من سنة تسعين وخمسمائة، وأنا اليوم في سنة خمس وثلاثين وستمائة.

ولعلنا نستنتج هنا أنّ كون حدوث هذا الأمر بعد انتقال شيخ الشيوخ الغوث أبي مدين، إنما كان إشارة إلى وراثة الشيخ الأكبر له في مقامه، وسيكون من ثمّ قاعدة جديدة للترقّي في إطار هذا الوضع الجديد، ومنها نيله مقام ختم الولاية المحمّدي عندما كان في فاس عامي 594 و 595 هـ .

وفي ذلك يقول:

أَنَا خَتْمُ الولايَةِ دُونَ شَكٍّ

لِوِرْثِي الهَاشِمِيَّ مَعَ المَسِيحِ

وليس المقصود بختم الولاية أنّه آخر الأولياء، كما قد يتبادر إلى الذهن لأوّل وهلة، وإنما المقصود به –كما يبيّنه الشيخ– أنها رتبة لا تكون إلّا "لرجل من العرب، من أكرمها أصلا ويدًا" بحيث "لا يكون في الأولياء المحمّديّين أكبر منه" ، كما أنّه "أعلم الخلق بالله، لا يكون في زمانه ولا بعد زمانه، أعلمُ بالله وبمواقع الحكم منه. فهو والقرآن إخوان" "ومنزلته من رسول الله صلى الله عليه وسلم منزلة شعرة واحدة من جسده صلى الله عليه وسلم ولهذا يُشعر به إجمالا. ولا يُعلم تفصيلا إلّا مَن أعلمه الله به، أو مَن صدّقه إن عرّفه بنفسه في دعواه ذلك . "

محي الدّين محمّد بن عليّ بن محمّد بن عربي الحاتمي الطّائي الأندلسي، أحد أشهر المتصوّفين السنّة وأحد علماءها، لقبه أتباعه وغيرهم من الصّوفيّة "بالشيخ الأكبر" ولذا ينسب إليه الطّريقة الأكبرية الصّوفيّة. ولد في مرسية في الأندلس في شهر رمضان الكريم عام 558 هـ الموافق 1164 م قبل عامين من وفاة الشّيخ عبد القادر الجيلاني وتوفّي في دمشق عام 638 هـ الموافق 1240 م. ودفن في سفح جبل قاسيون.

ولقّبه أتباعه ومريدوه من الصّوفيّة بألقاب عديدة، منها:

- الشّيخ الأكبر
- رئيس المكاشفين
- البحر الزّاخر
- بحر الحقائق
- إمام المحققين
- محيي الدّين
- سلطان العارفين

1- نشأته:

يعرف الشيخ محيي الدّين بن عربي عند الصوفية بالشيخ الأكبر والكبريت الأحمر. واحد من كبار المتصوفة والفلاسفة المسلمين على مر العصور. كان أبوه علي بن محمد من أئمة الفقه والحديث، ومن أعلام الزهد والتقوى والتصوف. وكان جده أحد قضاة الأندلس وعلمائها، فنشأ نشأة تقية ورعة نقية من جميع الشّوائب الشائبة. وهكذا درج في جو عامر بنور التقوى، فيه سباق حر مشرق نحو الشرفات العليا للإيمان.

وانتقل والده إلى إشبيلية وحاكمها إذ ذاك السلطان محمد بن سعد، وهي عاصمة من عواصم الحضارة والعلم في الأندلس. وما كاد لسانه يبين حتى دفع به والده إلى أبي بكر بن خلف عميد الفقهاء، فقرأ عليه القرآن الكريم بالسبع في كتاب الكافي، فما أتم العاشرة من عمره حتى كان مبرزًا في القراءات ملهما في المعاني والإشارات. ثم أسلمه والده إلى طائفة من رجال الحديث والفقه تنقل بين البلاد واستقر أخيرا في دمشق طوال حياته وكان واحدا من اعلامها حتى وفاته عام **1240** م.

وذكر أنّه مرض في شبابه مرضا شديدا وفي أثناء شدة الحمي رأى في المنام أنه محوط بعدد ضخم من قوى الشر، مسلحين يريدون الفتك به. وبغتة رأى شخصا جميلا قويا مشرق الوجه، حمل على هذه الأرواح الشريرة ففرقها شذر مذر ولم يبق منها أي أثر فيسأله محيي الدين من أنت؟ فقال له أنا سورة يس. وعلي أثر هذا أستيقظ فرأي والده جالسا إلى وسادته يتلو عند رأسه سورة يس. ثمّ لم يلبث أن برئ من مرضه، وألقي في روعه أنّه معد للحياة الروحية وآمن بوجود سيره فيها إلى نهايتها ففعل.

و تزوج بفتاة تعتبر مثالا في الكمال الرّوحي والجمال الظاهري وحسن الخلق، فساهمت معه في تصفية حياته الروحية، بل كانت أحد دوافعه الي الإمعان فيها. وفي هذه الأثناء كان يتردد على إحدى مدارس الأندلس التي تعلم سرا مذهب الأمبيذوقلية المحدثة المفعمة بالرّموز والتأويلات والموروثة عن الفيثاغورية والاورفيوسية والفطرية الهندية. وكان أشهر أساتذة تلك المدرسة في ذلك القرن ابن العريف المتوفي سنة **1141** م.

2 – نشأته الرّوحيّة:

ممّا لاشكّ فيه أن استعداده الفطري ونشأته في هذه البيئة واختلافه إلى تلك المدرسة الرمزية كل ذلك قد تضافر على إبراز هذه الناحية الروحية عنده في سن مبكرة فلم يكد يختم الحلقة الثانية من عمره حتى كان قد انغمس في أنوار الكشف والإلهام ولم يشارف العشرين حتى اعلن انه جعل يسير في الطريق الروحاني، وانه بدأ يطلع علي أسرار الحياة الصوفية. وأن عددا من الخفايا الكونية قد تكشفت أمامه وأن حياته سلسلة من البحث المتواصل عما يحقق الكمال لتلك الاستعدادات الفطرية. ولم يزل عاكفا حتى ظفر بأكبر قدر ممكن من الأسرار. وأكثر من ذلك أنه حين كان لا يزال في قرطبة قد تكشف له من أقطاب العصور البائدة من حكماء فارس والإغريق كفيثاغورس وأمبيذوقليس وأفلاطون وهذا هو سبب شغفه بالاطلاع علي جميع الدّرجات التنسّكيّة في كل الأديان والمذاهب عن طريق أرواح رجالها الحقيقين بهئية مباشرة.

كان الشّيخ ابن عربي صاحب الفتوحات المكية الذي تتبع اقواه على طول الكتاب وفي جميع اجزاءه

أصحابه :

وكما صعب علينا حصر شيوخه، يصعب علينا أكثر حصر أصحابه وأتباعه لكثرتهم.. ومع ذلك فهناك ثلاثة أسماء لامعة كانت مقرّبة لديه أكثر من غيرها ..

أوّلهم هو عبد الله بدر الحبشي اليمني ، والثاني هو إسماعيل بن سودكين النوري ، أما ثالثهم فهو صدر الدين محمد بن إسحق القونوي . كما أنّ هناك العشرات من الذين شاركوا في سماعات "الفتوحات المكيّة" وحدها، وأسماؤهم مبيّنة في مواقعها في الكتاب..

وهم من كبار القضاة والفقهاء والمؤرّخين ..وعددهم يربو على المائة والثلاثين ممن ينتمون إلى جميع المذاهب الإسلامية وفق التعريفات الواردة أمام أسمائهم ..

وذكر الشيخ في كتاب "المبشّرات" أنه في عام629 هـ رأى رؤيا تبشّره بأنه سيكون له ألف ولد روحي .

3– رحلاته إلي بلاد:

وفي هذا العصر رأى في حالة اليقظة أنه أمام العرش الالهي المحمول على أعمدة من لهب متفجر ورأى طائرا بديع الصّنع يحلق حول العرش ويصدر اليه الأمر بأن يرتحل إلى الشرق وينبئه بأنه سيكون هو مرشده السماوي وبأن رفيقًا من البشر ينتظره في مدينة فاس 594هـ.

وفي السّنة 595 هـ كان في غرناطة مع شيخه أبي محمّد عبد الله الشكاز.

وفيما بين سنتي 597 هـ، 620 هـ الموافق سنة 1200، 1223 يبدأ رحلاته الطويلة المتعددة الي بلاد الشّرق فيتّجه إلى الشّرق ويستقرّ خلال رحلته في دمشق.

ففي السّنة 1201 م إلى مكّة فيستقبله فيها شيخ إيراني وقور جليل عريق المحتد ممتاز في العقل والعلم والخلق والصّلاح.

وفى هذه الأسرة التقية يلتقي بفتاة تدعي نظاما وهي ابنة ذلك الشّيخ وقد حباها الله بنصيب موفور من المحاسن الجسميّة والميزات الرّوحيّة الفائقة، واتّخذ منها محيي الدّين رمزا ظاهريًّا للحكمة الخالدة وأنشأ في تصوير هذا الرّموز قصائد سجلها في ديوان ترجمان الأشواق ألفه في ذلك الحين.

وفي ذلك الحين في إحدي تأمّلاته رأي مرشده السماوي مرة أخرى يأمره أيضا بتأليف كتابه الجامع الخالد *الغزوات المكية* الذي ضمن فيه أهمّ أرائه الصّوفيّة والعقليّة ومبادئه الرّوحيّة.

وفي سنة 599 هـ زار طائف وفي زيارته بيت عبد الله بن العبّاس ابن عمّ رسول الإسلام –صلّى الله عليه وسلّم– استخار الله وكتب رسالة حلية الأبدال لصاحبيه أبي محمّد عبد الله بن بدر بن عبد الله الحبشي وأبي عبد الله محمّد بن خالد الصّدفي التّلمساني.

وفي سنة 601 هـ، 1204 م يرتحل الي الموصل حيث تجتذته تعاليم الصوفي الكبير علي بن عبد الله بن جامع الذي تلقي لبس الخرقة عن الخضر مباشرة، ثم ألبس محيي الدين اياها بدوره. وفي نفس السنة زار قبر رسول الإسلام وكما قال "وقد ظلمت نفسي وجئت إلى قبره صلى الله عليه وسلم فرأيت الأمر على ما ذكرته وقضى الله حاجتي وانصرفت ولم يكن قصدي في ذلك المجيء إلى الرسول إلاّ هذا الهجير".

وفي سنه 1206 م في طريقه نلتقي به في القاهرة مع فريق الصّوفيّة.

وفي سنة 1207 م عاد الي مكة إلى أصدقائهم القدماء الأوفياء وقام في مكة ثلاثة أعوام تم عاد إلى دمشق وزار قونية بتركيا حيث يتلقاه أميرها السلجوقي باحتفال بهيج. وتزوّج هناك بوالدة صدر الدين القونوي. ثم لم يلبث أن يرتحل الي أرمينيا.

وفي سنة 1211 م رحل الي بغداد ولقي هناك شهاب الدّين عمر السهروردي الصوفي المشهور.

وفي سنه 1214 م زار مكة ووجد عدد من فقهائها الدساسين قد جعلوا يشوهون سمعته لسبب القصائد التي نشرها في ديوانه الرمزي منذ ثلاثة عشر عاما ومر إلى دمشق عائدا.

وبعد ذلك راحل الي حلب واقام فيها ردحا من الزمن معززا مكرما من أميرها.

وأخيرا أقام في دمشق سنه 1223 م حيث كان أميرها أحد تلاميذه ومن المؤمنين بعلمه ونقائه وعاش حياته في دمشق يؤلّف ويعلّم وكان واحدا من كبار العلماء بين اهل العلم والفقه في دمشق، فدون وكتب مراجعة ومؤلفاته وكان له مجلس العلم والتصوف في رحاب مجالس دمشق وبين علماء الفقه والعلم بدمشق ومدارسها.

توفّي بن عربي في 28 ربيع الثاني من سنة 638هـ الموافق 16 نوفمبر من سنة 1240م ودفن في سفح جبل قاسيون في دمشق.

بعد عودته إلى الأندلس عام 590 هـ قضى الشيخ الأكبر فترة 8 سنوات بعد هذا الوضع الجديد له متنقّلا بين المغرب العربي والأندلس، وعَبَر مضيق جبل طارق ذهابا وجيئة 3 مرات، وزار فيها جميع مدن دولة الموحّدين المعروفة والتقى خلالها بالأئمة والعلماء والسلاطين ولم يتوقف عن تلقّي العلوم الشرعيّة في مختلف فروعها، كما أنّه قد صار شيخا يشار إليه بالبنان وله أصحاب ومريدون، وأشهرهم على الإطلاق صاحبه الوفي عبد الله بن

بدر الحبشي اليمني هاجر إليه من مكة المكرمة إثر رؤيا رآها دعته إلى الهجرة إليه، وبقي ملازما له كظلّه في حلّه وترحاله إلى أن لقي ربّه في ملطية أواخر عام 618 هـ.

رحلته إلى الشّرق:

بدأ في أواخر عام 596 هـ بالتجهز للسفر إلى المشرق العربي.. فنجده ينتقل من الأندلس إلى المغرب، ويودّع شيخه الكومي في سلا ثم يتجه إلى مرّاكش، ومنها إلى فاس، ثم بجاية حيث كان شيخ الشيوخ أبو مدين الغوث، وأخيرا إلى تونس للبقاء مع الشيخ عبد العزيز المهدوي تسعة أشهر.. وفي ختامها يشدّ الرحيل صوب الشرق لأداء فريضة الحج، وتشاء الأقدار أن تكون هذه رحلته الأولى والأخيرة إلى بلاد الشرق؛ إذ لم يعد بعدها إلى المغرب العربي والأندلس.

كانت القاهرة هي المحطة الأبرز للشيخ في أوّل قدوم له.. وفيها قضى شهر رمضان المبارك من عام 598 هـ بضيافة أخوين من أعزّ أصحابه ورفيقي طفولته وجيرانه في أشبيلية، وكانا قد سبقاه في الرحلة إلى الشرق عام 590 هـ، وهما: أبو عبد الله محمد الخياط وعرف بالقسطلاني في مصر، وأخوه أبو العباس أحمد الأشبيلي في مدينة الخليلυالحريري. وبعد انتهاء شهر رمضان ودّعهما لزيارة الخليل إبراهيم وزيارة بيت المقدس، ومنها اتجه إلى مكة المكرمة لأداء فريضة الحج في نفس العام. وبقي مجاورا في مكّة عامي 599 و600 هـ.

تنقّلاته في المشرق:

كان الشّيخ الأكبر قد زار الإسكندرية والقاهرة والخليل وبيت المقدس قبل وصوله إلى مكة المكرمة أواخر عام 598 هـ، وخلال فترة مجاورته بمكة زار الطّائف. وفي أوائل 601 هـ يبدأ الشيخ الأكبر في الطواف بين حواضر بلاد المشرق.. فنراه يزور المدينة المنورة للسلام على الحبيب المصطفى وبغداد والموصل ودنيسير وميافارقين من ديار بكر وقونية وسيواس وملطية وقيصرية وحرّان وحلب ودمشق وغيرها من البلاد، ويكرّر زياراته لعدد منها، ويعود إلى مكة المكرمة مرتين: الأولى في عام 604 هـ، ويؤدّي فريضة الحجّ للمرّة الرّابعة ويجاور فيها مدة، والثّانية في عام 611 هـ.

وبعد عشرين عاما من الترحال في بلاد المشرق يحطّ شيخنا رحاله في دمشق وتقتصر زياراته بعد ذلك على حلب، لمقابلة أصحابه هناك ومن أشهرهم فيها تلميذه النجيب إسماعيل بن سودكين النّوري.

4 – كراماته:

خصّص الشيخ الأكبر الباب الرابع والثمانين ومائة والباب الذي يليه للحديث عن الكرامات، وفيه يفرّق بين الكرامات الحسّيّة التي تفهمها العامة وهي التي يمكن أن يدخلها المكر الخفيّ والاستدراج، وبين الكرامات المعنويّة التي لا يعرفها إلا الخواص ولا يدخلها مكر ولا استدراج، وهي "أن تُحْفَظَ عليه آدابُ الشريعة، وأن يوفَّق لإتيان مكارم الأخلاق واجتناب سفسافها، والمحافظة على أداء الواجبات مطلقا في أوقاتها، والمسارعة إلى الخيرات، وإزالة الغلّ والحقد، من صدره للناس، والحسد، وسوء الظنّ، وطهارة القلب من كلّ صفة مذمومة، وتحليته بالمراقبة مع الأنفاس، ومراعاة حقوق الله في نفسه وفي الأشيَّاء، وتفقُّد آثار ربّه في قلبه، ومراعاة أنفاسه في خروجها ودخولها؛ فيتلقّاها بالأدب إذا وردتْ عليه، ويُخرِجها وعليها خلعة الحضور".

ولذلك فهو لا يرفض فكرة وجود الكرامات وظهورها على أحد فالأمر بيد الله يعطيه من يشاء، إلا أنّ له موقفا معارضا لمن تتعلق همّته بالكرامات ..

وأشار في ثنايا الكتاب إلى عدد من هذه الكرامات التي ظهرت له وحدثت معه.. ولم يذكر أيّ من هذه الكرامات من باب الفخر أو العجب بنفسه، بل كان يأتي بها في حال دلالتها لصدق الحديث الذي يناقشه.. ويعتبر ذلك مصداقا للنبيّ محمد صلى الله عليه وسلم.

4 – عقيدة محيي الدّين ابن عربي ومذهبه الفقهي:

من قال بالحلول فدينه معلول، وما قال بالاتّحاد إلاّ أهل الإلحاد

محيي الدّين ابن عربي

"فيا إخوتي وإحبائي رضي الله عنكم، أشهدكم عبد ضعيف مسكين فقير إلي الله في كل لحظة وطرفة، أشهدكم علي نفسه بعد أن أشهد الله وملائكته, ومن حضره من المؤمنين وسمعه أنه يشهد قولا وعقدا, أن الله إله واحد، لا ثاني له وألوهيته منزهة عن الصاحبة

والولد، مالك لا شريك له في الملك ولا وزير له، صانع لا مدبر معه، موجود بذاته من غير افتقار إلى موجد يوجده, بل كل موجود سواء مفتقر إليه الله في وجوده فالعالم كله موجود به، وهو وحده متصف بالوجود لنفسه، ليس بجوهر متحيز فيقدر له مكان ولا بعرض فيستحيل اليه البقاء ولا بجسم فتكون له الجهة والتلقاء، مقدس عن الجهات والأقطار, مرئي بالقلوب والأبصار, ... النص الكامل

اختلف في مذهبه الفقهي لكن يبدو أنّه كان ظاهريا قبل أن يجتهد لنفسه كما يبدو في بعض مطاوي رسائله.

II – مؤلّفاته:

أسهب الشيخ الأكبر في التأليف كما لم يفعل غيره.. ولم تمنعه تنقلاته الدائمة من الكتابة في مختلف أبواب المعرفة. وتعدّدت اهتماماته وتشعّبت اتجاهاتها بين التفسير (3 مؤلفات أحدها في 64 مجلدا) والحديث (12 مؤلفا) والسيرة والفقه والتصوف والتراجم والوعظ والوصايا والأدب... الخ.

وقد اختلف الباحثون اختلافا بيّنا في تحديد مؤلفاته. كان الشيخ الأكبر قد ذكر في إجازته للملك المظفر بهاء الدين غازي بن الملك العادل في شهر محرم 632 هـ ما تيسّر وذكر منها 284 مؤلفا بين رسالة وكتاب. وذكر الدكتور عثمان يحيى أنّ مؤلفات الشيخ الأكبر بلغت 846 مؤلفا، فُقِد عدد منها والباقي 550 مصنفا. أمّا الدكتور محمد حاج يوسف فقد ذكر أنّ مؤلفات الشيخ الأكبر 364 مؤلفا.

كما أنه كان شاعرا مكثرا.. وعدد قصائده في الديوان المطبوع والفتوحات المكية –وهو 2421 قصيدة– يدفعه إلى المركز الأوّل بين شعراء العربية. وإن كان عدد أبيات هذه القصائد (17449 بيتا) يتراجع به إلى الموقع الرابع بعد ابن الرومي (221–283 هـ) وخليل مطران (1288–1368 هـ) ومهيار الديلمي (ت428 هـ)، إلاّ أنّه سيتغير هذا الموقف لصالحه لو أنّا أضفنا شعره المبثوث في كتبه الأخرى أو في ديوانه غير المنشور، وربما فاقت الأربعين ألف بيت وفق تقدير الأستاذ /عبد الباقي مفتاح.

وفي هذا المجال يتفوّق الشيخ الأكبر على أقرانه الآخرين كونه نظم في كلّ بحور الشعر إضافة إلى الموشحات، كما أنّه نظم في كل قوافي الشعر العربي بدون استثناء.

– تفسير القرآن.
– الفتوحات المكّيّة.
– فصوص الحكم.
– ترجمان الأشواق ديوان ابن عربي.
– شجرة الكون.
– الإعلام بإشارات أهل الإلهام.
– اليقين.

III - أقوال ابن عربي:

من قال بالحلول فدينه معلول، وما قال بالاتحاد إلا أهل الإلحاد.

الحكم نتيجة الحكمة والعلم نتيجة المعرفة فمن لا حكمة له لا حكم له، ومن لا معرفة له لا علم له.

"فإذا سمعت احدا من أهل الله يقول أو ينقل إليك عنه أنه قال الولاية أعلى من النبوة، فليس يريد ذلك القائل إلاّ ما ذكرناه. أو يقول إنّ الولي فوق النبي والرّسول فإنّه يعني بذلك في شخص واحد وهو أن الرسول من حيث أنه ولي أتم منه من حيث أنه نبي ورسول لا أن الولي التابع له أعلي منه فإن التابع لا يدرك المتبوع أبدا فيما هو تابع له فيه إذ لو أدركه لم يكن تابعا فافهم" .

لا تعترضوا على المجتهدين من علماء الرسوم ولا تجعلوهم محجوبين على الإطلاق فإن لهم القدم الكبيرة في الغيوب وإن كانوا غير عارفين وعلي غير بصيرة بذلك يحكمون بالظنون.

– "ونحن زدنا مع الإيمان بالأخبار؛ الكشف: فقد سمعنا الأحجارَ تذكر الله رؤية عين، بلسان نُطق تسمعه آذاننا منها، وتخاطبنا مخاطبة العارفين بجلال الله، مما ليس يدركه كلّ إنسان...".

2 – "وقد سمعنا بحمد الله في بدء أمرنا تسبيحَ حجر، ونُطْقَه بذِكْر الله".

3 – "فاحذر –يا أخي– يوما تشهد فيه عليك الجلود والجوارح، وأنصف من نفسك، وعامل جوارحك بما تشكرك به عند الله .ولقد رأينا ذلك عيانًا في الدنيا في زمان الأحوال التي كنّا فيها، أعني نُطق الجوارح".

4 – "ولقد رأيت ذلك ذوقا من نفسي. جَرَيْنا بالريح الشديد من ضحى يومنا إلى غروب الشمس مسيرة عشرين يوما في موجٍ كالجبال؛ فكيف لو كان البحر فارغا، والريح من وراء؟! كنّا نقطع أكثر من ذلك".

5 – "فكما لا تشبه الجنّة الدنيا في أحوالها كلّها، وإن اجتمعت في الأسماء، كذلك نشأة الإنسان في الآخرة لا تشبه نشأة الدنيا، وإن اجتمعتا في الأسماء والصورة الشخصيّة؛ فإنّ الروحانيّة على نشأة الآخرة أغلب من الحسّيّة. وقد ذقناه في هذه الدار الدنيا، مع كثافة هذه النشأة. فيكون الإنسان بعينه، في أماكن كثيرة، وأمّا عامّة الناس فيدركون ذلك في المنام".

6 – "وأمّا أنوار الرياح؛ فهي أنوار عنصريّة أخفاها شدّةُ ظهورها؛ فغشيت الأبصارُ عن إدراكها. وما شاهدتُها إلاّ في الحضرة البرزخيّة، وإن كان الله قد أتحفنا برؤيتها حِسًّا بمدينة قرطبة، يوما واحدا، اختصاصا إلهيّا، وورثا نبويّا محمّديّا".

7 – "... فينتج هذا الذِّكْرُ لصاحبه مشاهدةَ الحقِّ عند قوله، وقبوله لَهُ. ومَن شاهد الحفظةَ فمِن هذا المقام شَهِدَهم.

ولمّا أشهدَنيهم الحقُّ –تعالى– تعذَّبْتُ بشهودهم، ولم أتعذّب بشهود الحقِّ. فلم أَزَل أسألُ اللهَ في أن يحجبهم عنّي؛ فلا أُبصرهم ولا أكلّمهم. ففعل الله معي ذلك، وسترهم عن عيني".

8 – "ولقد أَذَّنْتُ يوما، فكلّما ذكرتُ كلمة من الأذان كشفَ الله عن بصري، فرأيت ما لها مدّ البصر من الخير. فعاينتُ خيرا عظيما لو رآه الناس العقلاء لذهلوا لكلّ كلمة، وقيل لي: هذا الذي رأيتَ ثوابُ الأذان".

9 – "... وأودعتها (يعني الكعبة) شهادةَ التوحيد عند تقبيل الحجَر. فخرجت الشهادة عند تلفّظي بها –وأنا انظر إليها بعينيّ– في صورة سلك؛ وانفتح في الحجَر الأسود مِثل الطاق، حتى نظرت إلى قعر طول الحجر فرأيته نحو ذراع".

10 – "وأمّا النظرة فما رَوَيْتها عن أحد، ولا سمعتها عن أحد، لكنّي رأيتها من نفسي. نُظِرْتُ نظرةً فعلمتُ ما تضمّنته من العلوم، وأُعطيتُ نظرةً فنظرتُ بها، فَعَلِمَ بها مَن نظرت إليه، جميع ما تضمَّنَتْهُ تلك النظرة من العلوم. وهذا هو علم الأذواق".

11 – "كانت لي بنت ترضع، وكان عمرها دون السنتين وفوق السنة، لا تتكلّم. فأخذت ألاعبها يوما. فقلت لها: يا زينب؛ فأصغت إليّ. فقلت لها: إنّي أريد أن أسألك عن مسألة مستفتيا: ما قولك في رجل جامع امرأته ولم ينزل، ماذا يجب عليه؟ قالت لي: "يجب عليه الغسل" بكلام فصيح. وأُمّها وجدتها تسمعان. فصرخت جدّتها، وغشي عليها".

VI – نظريّات ابن عربي:

– الإنسان الكامل
– ختم الولاية
– الأعيان الثّابتة
– المراتب السّبعة
– التّنزّلات الستّة

V – آراء العلماء في ابن عربي:

1 – المؤيّدون له:

– ابن حجر الهيتمي الشّافعي حيث قال: «الذي أثرناه عن أكابر مشايخنا العلماء الحكماء الذين يُستسقى بهم الغيث، وعليهم المعوّل وإليهم المرجع في تحرير الأحكام وبيان الأحوال والمعارف والمقامات والإشارات، أنّ الشّيخ محي الدّين بن عربي من أولياء الله –تعالى– العارفين ومن العلماء العاملين، وقد اتّفقوا على أنّه كان أعلم أهل زمانه، بحيث أنّه كان في كلّ فن متبوعًا لا تابعًا، وأنّه في التّحقيق والكشف والكلام على الفرق

والجمع بحر لا يجارى، وإمام لا يغالط ولا يمارى، وأنّه أورع أهل زمانه وألزمهم للسنّة وأعظمهم مجاهدة» [10].

– عبد الوهاب الشّعراني، حيث قال عن ابن عربي: «إنّ الشّيخ من كمّل العارفين بإجماع أهل الطّريق، وكان جليس رسول الله –صلّى الله عليه وسلّم– على الدّوام» [11].

– الشّوكاني، وقد كان من المنتقدين للشيخ ابن عربي، بل والمكفّرين له، فرجع عن قوله في آخر حياته، فقال ردًا على سؤال وجّه له بخصوص الحلّاج وابن عربي: «فأجبت عن هذا السّؤال برسالة في كراريس سمّيتها "الصّوارم الحداد القاطعة لعلائق مقالات أرباب الاتّحاد". وكان تحرير هذا الجواب في عنفوان الشّباب، وأنا الآن أتوقّف في حال هؤلاء وأتبرّأ من كل ما كان من أقوالهم وأفعالهم مخالفًا لهذه الشّريعة البيضاء الواضحة التي ليلها كنهارها، ولم يتعبّدني الله بتكفير مَن صار في ظاهر أمره من أهل الإسلام» [12].

– ***** علاء الدّين محمّد بن علي الحصكفي، الفقيه الحنفي صاحب الدر المختار حيث قال ناقلاً: «وفي المعروضات المذكورة ما معناه: أن من قال عن فصوص الحكم للشيخ محيي الدّين بن العربي إنه خارج عن الشّريعة وقد صنفه للإضلال ومن طالعه ملحد ماذا يلزمه؟ أجاب: نعم فيه كلمات تباين الشريعة وتكلف بعض المتصلفين لإرجاعها إلى الشّرع لكنّا تيقنا أن بعض اليهود افتراها على الشيخ قدس الله سرّه فيجب الاحتياط بترك مطالعة تلك الكلمات، وقد صدر أمر سلطاني بالنهي فيجب الاجتناب من كلّ وجه» [13].

الفيروزآبادي، صاحب القاموس، حيث سئل عن الشيخ ابن عربي فقال: «اللهم نطقنا بما فيه رضاك الذي أعتقده وأدين الله به إنه كان رضي الله تعالى عنه شيخ الطريقة حالاً وعلمًا وإمام الحقيقة حقيقةً ورسمًا ومحيي رسوم المعارف فعلاً واسمًا إذا تغلغل فكر المرء في طرف من علمه غرقت فيه خواطره عباب لا تكدر الدلاء وسحاب تتقاصى عنه الأنواء كانت دعوته تخرق السبع الطباق وتفرق بركاته فتملأ الآفاق وإني أصفه وهو يقينا فوق ما وصفته وناطق بما كتبته وغالب ظني أني ما أنصفته» [13].

العز بن عبد السلام، حيث قال السيوطي في رسالته "تنبيه الغبي بتبرئة ابن عربي": «وحكي عن خادم الشيخ عز الدين قدس الله روحه أنه دخل مع الشيخ إلى الجامع بدمشق، فقال الخادم للشيخ عز الدين: أنت وعدتني أنك تريني القطب. فقال له: ذلك القطب، وأشار إلى ابن عربي وهو جالس والخلق حلقة حوله. فقال له: يا سيدي فأنت تقول فيه ما تقول؟ فقال له: هو القطب، فكرر عليه القول وهو يقول له ذلك» [14].

شهاب الدين عمر السهروردي، حيث قال عنه بعد ما جلس معه وسئل: ما تقول في ابن عربي؟ فقال: «بحر الحقائق» [15].

السيوطي، حيث اقل: «والقول الفصل عندي في ابن عربي طريقة لا يرضاها فرقة أهل العصر ممن يعتقده ولا ممن ينكر عليه، وهي اعتقاد ولايته، ويحرم النظر في كتبه، فقد نقل عنه أنه قال: "نحن قوم يحرم النظر في كتبنا" وذلك أن الصوفية تواطئوا على ألفاظ اصطلحوا عليها وأرادوا بها معاني غير المعاني المتعارفة منها بين الفقهاء» [16].

2 – السّاكتون عنه:

شرف الدين المناوي، حيث سئل عن الشيخ ابن عربي فأجاب: «أن السكوت عنه أسلم، وهذا هو اللائق بكل ورع يخشى على نفسه».

الحافظ الذّهبي، حيث يقول عن ابن عربي: «صنف التصانيف في تصوف الفلاسفة وأهل الوحدة، فقال أشيئًاء منكرة عدّها طائفة من العلماء مروقًا وزندقة، وعدّها طائفة من العلماء من إشارات العارفين ورموز السّالكين، وعدّها طائفة من متشابه القول، وأن ظاهرها كفر وضلال وباطنها حق وعرفان، وأنّه صحيح في نفسه كبير القدر. وآخرون يقولون: قد قال هذا الباطل والضلال، فمن الذي قال إنه مات عليه، فالظاهر عندهم من حاله أنه رجع وأناب إلى الله، فإنه كان عالمًا بالآثار والسنن، قوي المشاركة في العلوم. وقولي أنا فيه: أنه يجوز أن يكون من أولياء الله الذين اجتذبهم الحق إلى جنابه عند الموت وختم له بالحسنى، فأما كلامه فمن فهمه وعرفه على قواعد الاتحادية وعلم محط القوم، وجمع بين أطراف عباراتهم تبين له الحقّ في خلاف قولهم».

ابن تيميّة، حيث قال: «ابن عربي صاحب فصوص الحكم وهي مع كونها كفرا فهو أقربهم إلى الإسلام لما يوجد في كلامه من الكلام الجيد كثيرا ولأنه لا يثبت على الاتحاد ثبات غيره بل هو كثير الاضطراب فيه وانما هو قائم مع خياله الواسع الذي يتخيل فيه الحق تارة والباطل أخرى والله أعلم بما مات عليه».

3 – المخالفون له:

ابن خلدون، حيث قال: «هؤلاء المتأخّرين من المتصوّفيّة المتكلّمين في الكشف وفيما وراء الحسّ توغّلوا في ذلك فذهب الكثير منهم إلى الحلول والوحدة كما أشرنا إليه وملأوا الصّحف منه مثل الهروي في كتاب المقامات له وغيره وتبيعهم ابن العربي وابن سبعين وتلميذها ابن العفيف وابن الفارض».

أبو زرعة العراقي، حيث قال: «لا شك في اشتمال "الفصوص" المشهورة على الكفر الصّريح الذي لا شكّ فيه، وكذلك "فتوحاته المكّية"، فإن صحّ صدور ذلك عنه، واستمرّ عليه إلى وفاته: فهو كافر مخلّد في النّار بلا شكّ».

VI – معاصرو ابن عربي:

- أبو الوليد بن رشد
- فخر الدّين الرّازي
- صدر الدّين القونوي
- العزّ بن عبد السّلام
- شهاب الدّين عمر السّهروردي
- أبو الحسن الشّاذلي
- جلال الدّين الرومي
- توما الأكويني
- فريد الدّين عطّار

علاقته بعلماء عصره :

اتّسمت علاقته بعلماء عصره بالثقة الكبيرة بين الطرفين والاحترام المتبادل والإفادة والاستفادة دونما حرج.. فنراه يصف علاقته بأحد أهمّ رجال عصره في أشبيلية وهو الشيخ يوسف بن يخلف الكومي، بقوله: "وما راضني أحد من مشايخي سِوَاه؛ فانتفعت به في الرياضة، وانتفع بنا في مواجيده؛ فكان لي تلميذا وأستاذا، وكنت له مثل ذلك .وكان الناس يتعجّبون من ذلك . "!

وهناك أيضا يظهر مدى الاحترام الذي كان يحظى به من قبل أساتذة القراءات فيها من خلال القصة الظريفة التالية التي يرويها في السفر 37 ص 79ب : "بتنا ليلةً عند أبي الحسين بن أبي عمرو بن الطفيل بأشبيلية، سنة اثنتين وتسعين وخمسمائة، وكان كثيرا ما يحتشمني، ويلتزم الأدب بحضوري، وبات معنا أبو القاسم الخطيب، وأبو بكر بن سام، وأبو الحكم بن السراج، وكلّهم قد منعهم احترام جانبي الانبساط، ولزموا الأدب والسكون. فأردت أعمل الحيلة في مباسطتهم، فسألني صاحب المنزل أن يقف على شيء من كلامنا؛ فوجدت طريقا إلى ما كان في نفسي من مباسطتهم، فقلت له: عليك من تصانيفنا بكتابٍ سمّيناه: "الإرشاد في خرق الأدب المعتاد" فإن شئت عرضتُ عليك فصلا من فصوله؟ فقال لي: أشتهي ذلك. فمددتُ رجلي في حجره، وقلت له كبّسني. ففهِم عنّي ما قصدت، وفهِمت الجماعة؛ فانبسطوا وزال ما كان بهم من الانقباض والوحشة، وبتنا بأنعم ليلة في مباسطة دينيّة ."

ومرة أخرى يشرح علاقته بشيوخ عصره في فاس، ويقول: "وكذلك اجتمعتُ بقطب الزمان، سنة ثلاث وتسعين وخمسمائة بمدينة فاس. أطلعني الله عليه في واقعة، وعرّفني به .

فاجتمعنا يوما ببستان ابن حيّون بمدينة فاس، وهو في الجماعة لا يؤبَهُ له. فحضر في الجماعة –وكان غريبا من أهل بجاية؛ أَشَلَّ اليد– وكان في المجلس معنا شيوخ من أهل الله، معتبَرون في طريق الله، منهم أبو العباس الحصّار ، وأمثاله. وكانت تلك الجماعة بأسرها، إذا حضروا يتأدّبون معنا؛ فلا يكون المجلس إلّا لنا، ولا يتكلّم أحد في علم الطريق فيهم غيري، وإن تكلّموا فيما بينهم رجعوا فيها إليّ . "

وحين قدم إلى مكة المكرمة كانت صلته وثيقة ومتينة مع إمام الحرم المكي الشريف، مكين الدين أبي شجاع زاهر بن رستم الأصبهاني وأخذ عنه الحديث، وذكره في مواضع عدة في مؤلفاته مشيرا إليه بأنه شيخه . وتوطدت علاقته كذلك مع مفتي الحجاز الشيخ محمد بن إسماعيل بن أبي الصيف اليمني، وأشار إلى ذلك في الفتوحات المكية، كما روى الحديث فيها عن يونس بن يحيى بن أبي الحسن الهاشمي القصار .

وفي العراق كانت له علاقة متينة مع علمائها ومنهم العلامة الحنفي أحمد بن مسعود بن شدّاد المقري الموصلي ومع العلامة والمؤرخ الحافظ أبي عبد الله محمد بن محمود المعروف بابن النجار البغدادي، وهو الذي كتب "مناقب ابن العربي".

وفي الشام يذكر قصة ظريفة تشير إلى علاقته الطيّبة بأشهر علمائها، وهو العزّ بن عبد السلام ، وبالقاضي شمس الدين الشيرازي الشافعي. يقول الشيخ في ديوانه ص 256:

"رأيت في الواقعة عزّ الدين بن عبد السلام الفقيه الشافعي، وهو على مصطبة كالمدرسة يعلّم الناس المذهب، فقعدت إلى جانبه. فرأيت إنسانا قد أتى إليه يسأله عن كرم الله تعالى، فكان ينشده بيتا في عموم كرم الله تعالى بعباده، فكنت أقول له: إنّ لي في هذا المعنى بيتا من قصيدة. فكلما جهدت أن أتذكرهُ لم أتذكره في ذلك الوقت، فكنت أقول له: إنّ الله تعالى قد أجرى على لساني في هذا الوقت في هذا المعنى ما أقوله. فقال لي : قل، وهو يبتسم، فينطّقني الله تعالى بأبيات لم تطرق سمعي قبل ذلك، وهي:

الله أكرمُ أن يحظى بنعمته الطائعون ويشقى المجرم العاصي
وإن شقي فكآلام يصيبُ بها ألمؤمنين فمن دانٍ ومن قاصي
وكلّهم عالم بالله مستنِد إليه: مفلسهم ورَبُّ أوقاص

فكان يبتسم. فبينما نحن كذلك إذ مرّ القاضي شمس الدين الشيرازي رضي الله تعالى عنه.

فلمّا أبصرني، نزل عن بغلته وجاء فقعد إلى جانب العِزَّ بن عبد السلام، ثم أقبل عليّ وقال لي: أريد أن تقبّلني في فمي. فضمّني وقبّلته في فمه. فقال العِزُّ بن عبد السّلام: ما هذا؟! فقلت له: إنّا في رؤيا، والتقبيل قبول يطلبه منّي؛ فإنّه شخص قد حسّن الظنّ بي، وقد خطر له قِصر أمله وقبيح عمله واقتراب أجله .

ثمّ قمت فعضدته حتى ركب وانصرف. ثم قال لي العزّ بالإيماء والتلويح لا بالتصريح: كيف حالك مع أهلك؟ فكنت أنشده بيتين ما طرقا سمعي قبل ذلك، بل كان الله ينطّقني في ذلك الوقت بهما وهما :

إذا رأى أهل بيتي الكيس ممتلئا تبسّمتْ ودَنَتْ مِنّي تمازحني
وإن رأته خليّا من دراهمه تكرّهتْ وانثنت عنّي تقابحني

فكان يقول لي في إشارته: كلنا مع الأهل ذلك الرجل، والله لقد صدقتَ. وههنا انتهت المبشّرة والله الواقي ."

وعندما قرّر الشيخ الأكبر الاستقرار في دمشق عام 620 هـ، استضافه طيلة حياته فيها قضاتها الشافعيّون بنو زكي، ووفّروا له دارا بقي فيه حتى انتقاله إلى رحاب ربّه بعد 18 عاما، فغسلوه وكفّنوه، وهيّئوا مرقده في تربتهم .

وفاته :

بعد حياة حافلة بالعطاء، امتدّت 78 عاما، توزّعت إلى رحاب ربه ليلة الجمعة الثانيةτمناصفة بين المغرب العربي ومشرقه، انتقل والعشرين من ربيع الآخر سنة ثمان وثلاثين وستمائة . "وكان لجنازته يوم مشهود ووقت مسعود، وشيّعه صاحبُ دمشق راجلا مع جمهور الأمراء والوزراء والعلماء والفقراء، ولم يبق بدمشق أحد إلا شيّعه. وغلّقت أهلُ الأسواق دكاكينهم ثلاثة أيام تعزية له. ودفن بجبّانة محيي الدين بن الزكي بصالحيّة دمشق، وبني عليه بناء عظيم ومزار كريم . "

وحين دخل السلطان التركي سليم الأوّل دمشق بعد استيلاء جيوشه على الشام ومصر، كان من أوّل أوامره بناء مقام واسع على ضَريح الشيخ في ساحة مسجد أسّسه بجواره، وصلّيت فيه أوّل جمعة بحضور السلطان عام 924هـ (5 فبراير 1518 . (

المعترضون :

؛ يقولυ:ذكر الشيخ في السفر 10 ص 126ب أنّه كان يكتب عن مقام إبراهيم الخليل "فأخذتني سِنَةٌ. فإذا قائل من الأرواح؛ أرواح الملأ الأعلى، يقول لي عن الله تعالى: ادخل مقام إبراهيم، وهو أنّه كان أوّاها حليما. ثمّ تلا عليّ: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ﴾ فعلمتُ أنّ الله –تعالى– لا بدّ أن يعطيني من الاقتدار ما يكون معه الحِلم، إذ لا حليم عن غير قدرة على مَن يحلم عنه. وعلمتُ أنّ الله –تعالى– لا بدّ أن يبتليَني بكلام في عِرْضِي من أشخاص، فأعاملهم، مع القدرة عليهم، بالحِلم عنهم، ويكون أذى كثير ."

وخلال حياته بلغت شهرته الآفاق وصار قبلة العلماء ومرجعهم.. وبعد انتقاله زاد وهجه ولم يتوقف، وحرص العلماء في أرض العرب وخراسان والهند والسند والأناضول على اقتناء كتبه ودراستها وشرحها.. كل هذا أثار عليه حنق بعض الفقهاء هنا أو هناك فارتفعت أصواتهم قليلا في القرنين الثامن والتاسع الهجريين، مما دفع العشرات من أساطين العلم المشهورين للردّ على هؤلاء المناوئين وفنّدوا اعتراضاتهم .. ومع بداية القرن العاشر حسم الأمرَ الإمام جلال الدين السيوطي بمؤلفه "تنبيه الغبي على تنزيه ابن عربي"؛ فألجم المنكرين، وخفتت أصواتهم منذئذ لأكثر من خمسة قرون ونصف لم يتوقف خلالها أنصار الشيخ ومحبّوه من التأليف عنه والتحليل والشرح لكتبه .

مسك الختام :

سنورد هنا موقفا حدث في بداية القرن التاسع في اليمن أثناء ظهور هذه الاعتراضات. فقد بعث السلطان الرسولي الملك الناصر بسؤال إلى قاضي القضاة الشيخ الإمام مجد الدين محمد بن يعقوب الشيرازي الفيروز أبادي (729–817هـ)، وهو من أئمة اللغة والأدب والتفسير والحديث والفقه والسير، تزيد مؤلفاته عن 50 مؤلفا، صاحب القاموس المحيط، والسؤال هو: "ما يقول سيدنا ومولانا شيخ الإسلام في الكتب المنسوبة إلى الشيخ محيي الدين بن عربي كالفتوحات والفصوص؛ هل تحلّ قراءتها وإقراؤها ومطالعتها؟ فأجابه :

"اللهم أنطقنا بما فيه رضاك. الذي أعتقده في حال المسئول عنه، وأدين الله تعالى به، إنه كان شيخ الطريقة حالا وعلما، وإمام التحقيق حقيقة ورسما، ومحيي رسوم المعارف فعلاً واسما، إذا تغلغل فكر المرء في طرفٍ من مجده غرقتْ فيه خواطره، عبابٌ لا تكدِّره الدِّلاء، وسحابٌ تتقاصر عنه الأنواء، كانت دعواته تخترق السبع الطباق، وتُفرّق بركاته فتملأ الآفاق، وإنّي أصفه وهو يقينا فوق ما وصفته، وناطق بما كتبته، وغالب ظنّي أنّي ما أنصفته .

وما عليّ إذا ما قلت معتقدي دع الجهول يظنُّ العدل عدوانـــا
واللهِ واللهِ واللهِ العظيم ومَـــــن أقامه حجّة لله برهانـــــــــــا
إنّ الذي قلتُ بعضٌ من مناقبه ما زِدتُ، إلّا لعلّي زدتُ نقصانا

وأمّا كتبه ومصنّفاته فالبحار الزواخر، التي بجواهرها لكثرتها لا يعلم لها أوّل ولا آخر، ما وضع الواضعون بمثلها، وإنما خصّ الله بمعرفة قدرِها أهلَها. ومن خواص كتبه؛ أنّه من واظب على مطالعتها، والنظر فيها، وتأمّل في مبانيها؛ انشرح صدره لحلّ المشكلات، وفكّ المعضلات، وهذا الشأن لا يكون إلا لأنفاس مَن خصّه الله بالعلوم اللدنّيّة الربّانّيّة .

ووقفتُ على إجازة كتبها للملك المعظّم، فقال في آخرها: وأجزتُ له أيضا أن يروي عنّي مصنّفاتي، ومن جملتها كذا وكذا حتّى عدّ نيفا وأربعمائة مصنّف، ومنها "التفسير الكبير" الذي بلغ فيه إلى تفسير سورة الكهف عند قوله –تعالى–: ﴿وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا﴾[1] ستّين سفرا، فاستأثره الله –تعالى–، وتوفّى ولم يكمل.

1

وهذا التّفسير كتاب عظيم، كلّ سفر منه بحر لا ساحل له، ولا غرو فإنّه صاحب الولاية العظمى والصدّيقية الكبرى، فيما نعتقده وندين الله به.

وثَمّ طائفة في الغيّ يعظّمون عليه النّكير، وربما بلغ بهم الجهل إلى حدّ التكفير، وما ذلك إلاّ لقصور أفهامهم عن إدراك مقاصد أقواله ومعانيها، ولم تنل أيديهم –لِقصرها– إلى اقتطاف مجانيها.

عَلَيَّ نحتُ القوافي مِن مَقاطِعِها وَما عَلَيَّ لَهُم أَن لم تَفهَمَ البَقَرُ

هذا الذي نعلم، ونعتقده، وندين الله به في حقّه، والله تعالى أعلم".

وصلّى الله وسلّم على سيّدنا محمد وآله وصحبه أجمعين.

VII – شهرة ابن عربي وعلاقة المذاهب الفقهيّة والكلاميّة به:

السيد محمد بن علي بن عربي شخصية بارزة في عالم الفكر الديني وشهرته لاتنحصر في حدود العالم الإسلامي فحتى الغربيين والأسيويين بلغهم صيت هذا الرجل بل وساهموا في دراسته واستلهامه، أضف إلى ذلك فإن شخصيته مثيرة للجدل فلايكاد يتفق عليه اثنان حتى أن تحديد مذهبه الفقهي أو الكلامي من خلال كلماته يكاد يكون ضربا من التعسف والمجازفة, ويعزو البعض ذلك إلى أنه فوق المذاهب وأعلى من أن يتمذهب بها.

هذا ولقد اختلف أرباب المذاهب الإسلامية المختلفة بشأن العلامة ابن عربي فبينما ثابر نفر منهم على التبري منه وإخراجه عن دائرة المذهب بل والدين ترى من نفس هذا المذهب من هو على النقيض من ذلك، فكما تنافس بعض أرباب المذاهب لإخراجه من مذاهبهم تنافس البعض الآخر في جره إلى نفس ما أخرج منه من مذاهب فكل يقول أن ابن عربي هو على مذهبي وليس من مذاهب الآخرين في شيء.

VIII – كتب في سيرة حياته والدفاع عنه

1 – في سيرته:

هكذا تكلم ابن عربي، نصر حامد أبو زيد.

ابن عربي ومولد لغة جديدة، د. سعاد الحكيم.

محيي الدين ابن عربي – حياته، مذهبه، زهده – جزء – 49، سلسلة أعلام الفلاسفة، فاروق عبد المعطي.

قرة أهل الحظ الأوفر في ترجمة الشيخ الأكبر للشيخ حامد العمادي (دار الكتب مجاميع 3445).

جامع كرامات الأولياء للشيخ يوسف النبهاني 1/ 198، 206.

رسالة صفي الدين بن أبي المنصورفي سير الأولياء الذين لقيهم (ط. المعهد الفرنسي بدمشق).

نفح الطيب للإمام للمقري وهو من أحسنها (2 / 361، 384).

سير أعلام النبلاء للذهبي (23/ 48،49).

البداية والنهاية لابن كثير (13/ 156).

التكملة لوفيات النقلة للمنذري (555/3).

شذرات الذهب لابن عماد الحنبلي (190/3، 203).

العبر في خبر من غبر للذهبي (5/ 158، 159).

عنوان الدراية للغريني (158 / 160).

لسان الميزان لابن حجر العسقلاني (310/5، 313).

ميزان الاعتدال للذهبي (659 / 660).

النجوم الزاهرة لابن تغري بردي (6 / 339).

الوافي بالوفيات للصفدي (4 / 972، 179).

الأعلام للزركلي (6 / 281).

2 – في الدّفاع عنه:

تنبيه الغبي في تبرئة ابن العربي، تأليف: جلال الدين السيوطي المتوفى سنة 911 هـ.

الاغتباط بمعالجة ابن الخياط، تأليف: الفيروزآبادي المتوفي سنة 817 هـ، يرد فيه على ابن الخياط ما اتّهم به الشيخ ابن عربي في عقيدته.

الرد على المعترضين على الشيخ محيي الدين، تأليف: الفيروزآبادي، موجود في معهد المخطوطات العربية 201 تصوف.

الرد المتين على منتقص العارف محيى الدين، تأليف: عبد الغني النابلسي.

تنبيه الأغبياء على قطرة من بحر علوم الأولياء، تأليف: عبد الوهاب الشعراني، وهو مفقود.

الكبريت الأحمر في بيان علوم الشيخ الأكبر، تأليف: عبد الوهاب الشعراني، وهو مطبوع.

القول المبين في الرد عن الشيخ محيي الدين، تأليف: عبد الوهاب الشعراني، وهو مطبوع.

الفتح المبين في رد المعترض على الشيخ محيي الدين، تأليف: عمر حفيد شهاب الدين العطار، وقد طبع قديمًا.

مفتاح الوجود الأشهر في توجيه كلام الشيخ الأكبر، تأليف: عبد الله الصلاحي، وهو موجود في دار الكتب 195 تصوف، وذيله 199 تصوف.

الفتح المبين في رد اعتراض المعترضين، تأليف: عمر حفيد الشهاب الشيخ أحمد العطار، أحد علماء الشام.

ميزان الحق في اختيار الأحق، تأليف: كاتب حلبي أحد أكابر العلماء العثمانية.

الجانب الغربي في حل مشكلات ابن العربي، تأليف: مكي، ألفه بأمر السلطان سليم.

قرة أهل الحظ الأوفر في ترجمة الشيخ الأكبر، تأليف: حامد العمادي، وهو موجود في دار الكتب مجاميع 3445.

الانتصار للشيخ محيي الدين، تأليف: علي بن ميمون المغربي، وهو موجود في برلين 2851، ونسخة بدار الكتب.

كشف الغطاء عن أسرار كلام الشيخ محيي الدين، تأليف: سراج الدين المخزومي.

IX – مضمون الكتاب:

يعتبر كتاب "الفتوحات المكّيّة" أهمّ مؤلّفات الشيخ الأكبر محيي الدين بن العربي .. ويمكن القول الآن إنّه يمثّل الموسوعة الصوفيّة الأولى، والمرجع الأساس لجميع المعارف

الصوفيّة –بعد القرآن الكريم والحديث النبويّ– دون منازع. قال عنه الصفدي" : وقفت على كتابه الذي سماه الفتوحات المكية لأنه صنّفه بمكة، وهو في عشرين مجلّدة بخطّه، فرأيت أثناءه دقائق وغرائب وعجائب ليست توجد في كلام غيره وكأنّ المنقول والمعقول ممثّلان بين عينيه في صورة محصورة يشاهدها متى أراد أتى بالحديث أو الأمر ونزّله على ما يريده، وهذه قدرة ونهاية إطلاع وتوقّد ذهن وغاية حفظ وذكر، ومَن وقف على هذا الكتاب علِم قدره، وهو من أجلّ مصنفاته".

بدأ الشيخ الأكبر تأليف كتابه هذا بمكة المكرّمة عام 599 هـ، وانتهى منه في دمشق في شهر صفر عام 629 هـ، وذكر عند إتمامه: "هذا هو الأصل بخطّي، فإنّي لا أعمل لتصنيف من تصانيفي مسودّة أصلاً". إلّا أنّ الشيخ الأكبر رأى في عام 632 هـ إعادة كتابة هذه الموسوعة بخط يده، معتبرا النسخة الأولى بمثابة مسودّة؛ حذف منها وأضاف إليها، واستغرق عمله 4 سنوات انتهت عام 636 هـ وبرز، من ثمّ، الكتاب بصورته النهائية المنقّحة، ليكون بذلك معبّرا تعبيرا أصيلا عن خلاصة رؤيته وتجربته بعد أن بلغ عمره الثانية والسبعين .

واللافت للنظر أنّ الشيخ الأكبر لم يكتف بإعادة كتابته فقط، والتأشير على ذلك، وإنما نجده بعد كتابة كل جزء منه يعمد إلى مقابلته من جديد مع النسخة الأولى بحضور عدد من أصحابه ويتم أثناء السماع إجراء التصحيحات التي يراها مناسبة، وفي نهاية كل مقابلة يثبت السماع ويثبت أسماء الحاضرين والتاريخ بخط القارئ وتأكيد الشيخ الأكبر لذلك ممهورا بتوقيعه.. الخ.. ونجده أحيانا يكرر السماع لبعض الأجزاء في أوقات أخرى ويثبت ذلك وفق ما جرى في السماع الأوّل ..

استغرقت النسخة الثانية 10544 صفحة بخط يده، وقسّمها فيه إلى 37 سفرا ، متضمّنة 560 بابا –بعدد السنوات من العام الأوّل للهجرة حتى عام مولد الشيخ الأكبر، وكأنّها تتويج لهذه السنوات التي سبقته بمولده قدّس الله سرّه!– موزّعة على ستة فصول. وفي الصفحة الأخيرة يخطّ الشيخ الأكبر بقلمه: "انتهى الباب –بحمد الله– بانتهاء الكتاب على أمكن ما يكون من الإيجاز والاختصار على يدي مُنشيه، وهو النسخة الثانية من الكتاب بخطّ يدي.

وكان الفراغ من هذا الباب، الذي هو خاتمة الكتاب، بكرة يوم الأربعاء الرابع والعشرين من شهر ربيع الأوّل سنة ست وثلاثين وستمائة، وكتب منشيه بخطّه محمد بن علي بن محمد بن العربي الطائي الحاتمي، وفّقه الله .

هذه النسخة سبعة وثلاثون مجلّدا، وفيها زيادات على النسخة الأُولَى التي وقفتها على ولدي محمد الكبير، الذي أُمّه فاطمة بنت يونس بن يوسف أمير الحرمين، وفّقه الله وعلى عقبه وعلى المسلمين بعد ذلك شرقا وغربا، برًّا وبحرا".

وقبل عدة أشهر من انتقاله إلى جوار ربه أهدى هذه النسخة إلى تلميذه الوفي صدر الدين محمد بن إسحق القونوي، وهذا مبيّن في الصفحة الأولى من السفر الأول، وفيه بقلم الشيخ الأكبر: "رواية مالك هذه المجلدة محمد بن إسحق القونوي عنه "مما يشير إلى أنها منذ الآن صارت بعهدة صدر الدين القونوي عنه، وبالقرب منها يحدد الشيخ صدر الدين موعد ذلك الانتقال بما نصه: "انتقل هذا السفر وسائر الكتاب من منشيه شيخ الإسلام، أيّده الله تعالى، بحكم الإنعام إلى خادمه وربيب نظره محمد بن إسحق غفر الله له ولوالديه، ونفعه بكل علم مقرّب إليه بالشيخ نفعه الله، في شهور سنة سبع وثلاثين وستمائة".

واحتفظ تلميذه بالنسخة بعد أن أكمل في حلب مقابلة الأجزاء التي لم يتمكن الشيخ من مقابلتها، وأثبت ذلك في حواشيها. وبدوره؛ أوقفها الشيخ صدر الدين القونوي قبيل انتقاله هو إلى جوار ربه بعد وفاة شيخه بـ 34 عاما على دار الكتب التي أنشأها في الزاوية المجاورة لقبره، مشيرا في الوقفيّة إلى أنّ الغرض من ذلك هو انتفاع المسلمين بها، ولا يجوز خروجها من الدار إلى غيرها من المواضع لا برهن ولا بغيره. وعرفت منذئذ بنسخة قونية.

وتشاء الحكمة الإلهية أن يكون هذا المسار لهذه النسخة هو السبب الذي حفظها لنا حتى اليوم. فهي النسخة التي من صورتها أعددنا هذا الكتاب المطبوع بمنّ الله وتوفيقه.

X – تحقيقنا للكتاب:

1 – وصف المخطوطات:

أ – نسخة السليمانية :

هذه النسخة من محفوظات مكتبة حكيم أوغلو في السليمانية بتركيا، وتتكون من مجلدين رئيسيين: الأوّل يحمل رقم 488 ويتضمن 529 صفحة مزدوجة، والثاني يحمل رقم 489 ويتضمن 527 صفحة مزدوجة ويبدأ بالباب 270. تتكون الصفحة من 39 سطرا، والسطر من 21 كلمة .

هذه النسخة منقولة من النسخة الأولى مباشرة ويتضح ذلك من العبارة قبل الأخيرة في نهاية المجلد الثاني، وهي:

"قال الشيخ رضي الله عنه: انتهى الباب بحمد الله بانتهاء الكتاب على أمكن ما يكون من الإيجاز والاختصار، وهذا هو الأصل بخطي، فإنّي لا أعمل لتصنيف من تصانيفي مسودة أصلا. وكان الفراغ من هذا الباب في شهر صفر سنة تسع وعشرين وستمائة، والحمد لله وحده".

أمّا العبارة الأخيرة فتشير إلى كاتبها وزمان كتابته، وهي: "تمت الفتوحات المكية بحمد الله ومنّه وحسن توفيقه نهار الأحد في آخر شهر جمادى الأولى من شهور سنة سبع عشرة وألف على يد العبد الفقير إلى الله تعالى محمود بن خليل النابلسي لطف الله به والمسلمين آمين".

وسيتبيّن لنا لاحقا أنّ هذه النسخة هي التي طبع منها الفتوحات المكية لأوّل مرة عام 1274 هـ، كما تم الاستعانة بها عند تنفيذ الطبعة الثانية عام 1329 هـ وفقا للإشارة التي وجدنا باللغة التركية في كلا المجلدين.

ب – نسخة قونية:

تعرّضت النسخة في عمرها الطويل –وهو يقترب الآن من ثمانية قرون– إلى تلف بعض صفحاتها لأسباب عدة منها الرطوبة وتسرُّب المياه إلى بعض أجزائها وكثرة تقليب صفحاتها.. فقد كانت قونية مزارا خلال العقود الثمانية يتّجه إليها النساخون من مختلف بلاد المسلمين لينقلوا نسخا لهم ولمشائخهم منها.. وكان القائمون على هذه النسخة يعملون قدر جهدهم على إعادة كتابة محتويات الصفحات التالفة من خلال خطاطين يجيدون النسخ بالعربية دون معرفة مضمونها في بعض الحالات وهو ما أحدث تشويها لحق بالسفر التاسع على وجه الخصوص، وأشرنا إليه في موضعه، ومن حسن الحظ أنّه فيما عدا السفر التاسع فإنّ الصفحات التالفة في بقية الأسفار قليلة للغاية وبيّنا مواضعها في الكتاب.

وقامت الحكومة التركية منذ زمن بنقل هذه النسخة إلى مكتبة متحف الآثار الإسلاميّة باستامبول وأعطت مجلداتها الـ 37 الأرقام 1845–1881 ونسخت صفحاتها فوتوغرافيا، وتوزّعت نسخٌ مصورة منها إلى بعض المكتبات خارج تركيا، وبذلك تعدّدت أماكن حفظ هذا العمل الموسوعيّ الهامّ.

الكتاب كله –عدا السفر التاسع الذي أعيد نقله وعدد محدود من الصفحات الأخرى– بقلم الشيخ الأكبر، وكثيرة تلك الإشارات التي تثبت هذا، ومنها:

1 – في الصفحة الأولى من السفر الأول، وتحت عنوان السفر، نجد عبارة: "رواية مالك هذه المجلدة محمد بن إسحق القونوي عنه "وبجانبها بقلم صدر الدين القونوي ما يلي: "هذا السطر هو بخطّ شيخنا رضي الله عنه–".

2 – السماعات المثبتة في مواقعها في الأعوام 633 هـ إلى 637 هـ كلها جرت في منزله بدمشق وبحضور المذكورين عند هذه السماعات، وتوقيع الشيخ بقلمه في كثير منها يؤكد صحة شهاداتها أمامه، ومنها على سبيل المثال: "كمّل هذا السماع الوليّ في الله تعالى الفقير محيي الدين أبي المعالي عبد العزيز بن عبد القوي بن الحسن بن الجباب –أدام الله سعادته– عليَّ، وكمل بحمد الله. وكتب منشيه وهو المسمَّع له محمد بن علي بن العربيّ بخطّه في التاسع عشر ربيع الأوّل سنة ثلاث وثلاثين وستمائة".

3 – في السفر 23 هناك عبارة، اختلفت صيغتها في نسخة قونية قليلا عما جاء في نسخة السليمانية بسبب تاريخ الكتابة من قبل الشيخ نفسه، وهي: "ولي مذ عبدتُ الله فيها، من سنة تسعين وخمسمائة، وأنا اليوم في سنة خمس وثلاثين وستمائة" وكانت فد جاءت في نسخة السليمانية بنفس التعبير عدا الجزء الأخير منه الذي كان: "وأنا اليوم في سنة ثمان وعشرين وستمائة".

4 – وفي نهاية الكتاب يذكر: "وكان الفراغ من هذا الباب، الذي هو خاتمة الكتاب، بكرة يوم الأربعاء الرابع والعشرين من شهر ربيع الأوّل سنة ستّ وثلاثين وستمائة، وكتب منشيه بخطّه محمد بن علي بن محمد بن العربي الطائي الحاتمي، وفّقه الله".

5 – في كثير من الحالات نجد إشارة إلى نسبة تاريخ هجري إلى يوم معيّن، ولم يكن سهلا من قبل اكتشاف مطابقة التاريخ لليوم المقصود، وإذ تيسّرت في هذا العصر إمكانية التأكد من ذلك، فيصير هذا أحد وسائل التحقق من نسبة صحة الكتاب. وفي هذا الكتاب هناك مواضع كثيرة ذكر فيها التاريخ واليوم وجميعها صحيحة ومنها ما جاء في النقطة

السابقة الذي حدد فيها الأربعاء بأنه يقابل24/3/636 هـ. وفي السفر الأول ص 47 نجد في السماع الثّاني أنّه جرى يوم الأربعاء 26 من شوال عام 633 هـ، والتطابق واقع بينهما، بل إنّه ذكر تقييده أحد الفصول في الليلة الرابعة من شهر ربيع الآخر سنة 627 هـ، وذكر مباشرة أنه يقابل ليلة الأربعاء الذي هو الموفي عشرين من فبراير، وهذا التحديد صحيح تماما وفق الحساب الفلكي لدمشق وعامه الميلادي 1230.

كلّ هذه الأدلة –وغيرها كثير– لا تدع مجالا للشكّ من صحة نسبة الكتاب إلى الشيخ الأكبر وأنّه كتب نسخته الثانية بخطّ يده في السنوات الأربع الممتدّة من عام 632هـ إلى 636هـ .

اسم الكتاب:

أشار الشيخ في بداية الكتاب أنّ الاسم الذي رآه هو: "رسالة الفتوحات المكيّة في معرفة الأسرار المالكية والملكية" ، ويبدو أنّه كان يتصور أنّ حجم الكتاب سيكون صغيرا بحيث يمكن إطلاق مسمّى "رسالة" عليه.

ولمّا توسّع الكتاب وجدناه يكتفي بـ"الفتح المكي" 9 مرات و"الفتوحات المكيّة" 28 مرّة.

الخطّ:

كتب الشيخ كتابه بخطه الأندلسيّ المغاربي.. وأهم سماته في المخطوط ما يلي:

1 – أكثر حروفه المعجمة كانت تهمل، فلم يكن قد رسخ بعد عند العرب استعمال النقاط للحروف المعجمة. ومع ذلك نجد حرص الشيخ واضحا عند شعوره باللبس الذي يمكن حصوله عند القراء؛ فيعمد عندئذ إلى كتابة النقاط في حالات عديدة .

2 – موضع نقطة حرف الفاء –في الأغلب– تحت تعريقة الفاء .

3 – حرف القاف: في الأغلب له نقطة واحدة من فوق، وفي حالات أخرى –ربما خوف اللبس– كان يكتبه بنقطتين .

4 – الحروف المشددة: نوّع التشديدات فيها إلى ثلاثة أنواع.. فهناك شَدّة تدلّ على الضم، وشَدّة تدلّ على الكسر، وشَدّة تدلّ على الفتح .الأولى شكلها قريب من رقم الثمانية الهندي وموقعها فوق الحرف، والثانية مثلها وموقعها تحت الحرف، والثالثة شكلها قريب من رقم السبعة الهندي وموقعها فوق الحرف .

5 – حرفا الطاء والظاء: نجد فيهما إمالة الخط العمودي إلى اليمين .

6 – حرفا الصاد والضاد: لا تضاف إليهما نبرة تفصلهما عما بعدهما .

7 – حرف الكاف: تميل ترويسته أفقيّا إلى اليسار مع إمالة صغيرة في النهاية جهة اليمين.

8 – وفي الإملاء يختلف رسم عدد من الكلمات عما هو عليه اليوم، ومنها على سبيل المثال:

2 – وصف الكتاب:

الكتاب عبارة عن 37 سفرا، ومجموع صفحاته 10860 صفحة منها 316 صفحة بيضاء، والصفحات المكتوبة 10544 صفحة. وعند تصوير هذه الصفحات أخذت اللوحات المصورة بواقع لوحة واحدة لكل صفحتين متقابلتين، فصار عدد هذه اللوحات أو الصفحات الجديدة المزدوجة 5430 صفحة منها 158 صفحة بيضاء و 5272 صفحة مكتوبة .

وضع مختصّو التوثيق في تركيا أرقاما لهذه الصفحات في أعلى الجزء الأيسر في الصفحة المزدوجة يعبر عن كلا الجزئين أو الصفحتين وفق المخطوط، ولذلك كنا نشير إلى بداية الصفحة في جزئها الأيمن بالرقم المخصص لتلك الصفحة وفق ذلك التنظيم، ونشير إلى الجزء الأيسر بنفس الرقم مع إضافة حرف ب. فالصفحة رقم 5 مثلا نشير إلى جزئها الأيمن (ص 5) وإلى جزئها الأيسر (ص 5 ب) وسيحتاج الباحثون إلى هذا عند بحثهم في الفهارس الملحقة بكل سفر للآيات القرآنية والأحاديث والشعر والمصطلحات والأسماء.. الخ إذ أننا اعتمدنا أرقام صفحات مخطوط قونية لمن يريد الرجوع إليها .

القاعدة العامة في صفحات المخطوط أنّ الصفحة الواحدة تتكون من 17 سطرا مستقيمة التنسيق، ومتوسط كلمات السطر الواحد 9.7 كلمة، ومتوسط كلمات الصفحة المفردة 165 كلمة.

أهم الخصائص التي لمسناها في الكتاب ما يلي:

تعبيرات الكتاب مبسّطة رغم دقائق العلوم التي يناقشها، وحرص الشيخ على إزالة أي غموض متوقع عند استطراده في أي موضوع، فنراه يلتفت إلى أي عبارة أو كلمة يخطر له أنّه ربما يقف عندها أيّ من القراء فيعمل على شرحها أو الإتيان بدليلها من الكتاب أو السنة..

ثم يعود بعد ذلك إلى موضوعه الأصليّ ..

نأى الشيخ بنفسه بعيدا عن تسفيه الآراء الأخرى المخالفة لآرائه مهما كان بعدها عنه، وكذا عدم تجريح أصحابها أو سبّهم أو تكفيرهم، بل نجده يحرص على مناقشة الرأي الآخر برويّة وحكمة وهدوء، ويبذل جهده للبحث عن الصواب لدى ذلك الرأي الآخر سواء بمجمله أو بجزئيّة من جزئيّاته، وهذه صفة حميدة قلّ من يحملها .

حفظه القرآن الكريم، واستيعابه للقراءات، واستشهاده من كل القراءات المختلفة .

حرصه الدائم على دعم أفكاره بالنصوص القرآنيّة والأحاديث النبويّة التي تثبت صحة أقواله. وفي هذا الخصوص يصف الشّيخ الأكبر نهجه بقوله: "فجميع ما نتكلّم فيه في مجالسي وتصانيفي إنما هو من حضرة القرآن وخزانته؛ أُعطيتُ مفتاح الفهم فيه، والإمداد منه".

عاد إلى الآيات القرآنية **10634** مرة، ومن كل سور القرآن الكريم، وعدد مرات عودته إلى الحديث النبويّ زادت عن **3518** مرة، وتعبيرات الصلاة والسلام على الرسول الكريم زادت عن **5000** مرة .

احترامه البالغ لأئمة المذاهب الفقهية باعتبارهم من أكابر الأولياء، واستيعابه لاجتهادات المذاهب الفقهية جميعها، وتسليمه لكل اجتهاداتهم بل وتبريرها رغم اختلافاتها، واعتبارها كلها صحيحة وفقا للتوجيه النبويّ الشريف المتعلّق بالاجتهاد .

حبّه الطاغي للآخرين، وابتعاده عن منهج التنفير، واتّكاؤه على منهج التقريب، وتوسيعه مفهوم الولاية لدرجة تجعل كل من يقرأ للشيخ في هذا الموضوع يشعر –وربما يجزم– أنه من أهل هذه الدرجات ..وفي هذا الخصوص يقول الشيخ: "واللهِ؛ إنّي لأجد من الحبّ ما لو وُضِع –في ظنّي– على السماء لانفطرت، وعلى النجوم لانكدرت، وعلى الجبال لسُيِّرت".

إلمامه الواسع بالأدب العربي وسير الأدباء، وبلغت استشهاداته **342** مرة (**682** بيتا) لأدباء من مختلف العصور إلى زمنه .

نصوصه الشعرية في الكتاب **1498** نصا (**7185** بيتا)

ممارسته للنقد الأدبي الراقي حين يجد ضرورة لذلك .

للشيخ مراجعاته النحوية وترجيحه– بالأدلة– قواعدَ لم يقل بها النحويّون .

وفي الأخير.. نشير إلى أنّ الشيخ كان قد ذكر أنّ السفرين 34، 35 يمثّلان خلاصة أبواب الكتاب كلّها، وخصّ كل باب منها بعنوان رمزيّ وعبارات مركزة لا تزيد عن أسطر قليلة..

وكان يشير في بداية الأمر إلى صلة الخلاصة بالباب المعنيّ، ثم توقّف عن ذلك بعد أن اضطربت الصفحات التي بيده على ما يبدو.. ولقد حاولنا من جانبنا القيام بهذا الأمر ونجحنا في تحديد الصلة لقرابة أربعمائة باب ولم يتسنّ لنا إكمال ذلك لانشغالنا بتجهيز تحقيق مادة الكتاب.. ونأمل أن نستكمله ونرفقه ضمن طبعة قادمة بإذن الله .

3 – مراحل طباعة الفتوحات المكية:

المرحلة الأولى :

ظهرت أوّل طبعة للكتاب عام (1274هـ=1858م) في مصر في عهد الخديوي محمد سعيد باشا. وذيّلها أحد أشهر المحقّقين في مصر في ذلك الوقت، وهو الأستاذ محمد قطة العدوي "بنبذة مختصرة تتضمّن ترجمة صاحبه وذكر شيء من مآثره ومناقبه.. ملخّصا ذلك من كتاب نفح الطيب" .. وهذه الطبعة عرفت بطبعة بولاق، وكانت معتمدة على نسخة السليمانية وهي منقولة من المخطوطة الأولى التي كتبها الشيخ في الأعوام (599–629هـ)، وتبيّن ذلك من خلال الكتابة التي ذيّلت بها هذه النسخة .

لاحظ المهتمّون الذين حصلوا على الطبعة الأولى وجود أخطاء كثيرة فيها ناهيك عن أنها لم تقابل بالنسخة الثانية المخطوطة بقلم الشيخ الأكبر وهي نسخة قونية المعدّلة والمصحّحة.. ولذلك فقد عهد الأمير عبد القادر الجزائري –والذي كان قد استقرّ به المقام في دمشق– إلى اثنين من العلماء، وهما: الطيب بن الشيخ محمد المبارك الجزائري الدلسي المالكي (ت 1313هـ)، والشيخ محمد بن مصطفى الطنطاوي، بالتوجه إلى قونية على نفقته الخاصّة في عام 1287هـ، لمقابلة النسخة المطبوعة مع نسختها المكتوبة بخطّ مؤلّفها الشّيخ الأكبر، وعادا إلى دمشق بعد أن قابلا هذه النسخة مع نسخة قونية مرتين وسجلا عليها نتيجة هذه المقابلة.. وأشار شاهد الواقعة، عبد الرزاق البيطار، في كتابه "حلية البشر في تاريخ القرن الثالث عشر"، إلى أنه: "وبعد مجيئهما قرأناها جميعًا على الأمير المرقوم (يقصد الأمير عبد القادر) مع التزامنا لإصلاح نسخنا على النسخة المقابلة على خطّ المؤلف".

وفي عام (1329هـ=1910م) قامت دار الكتب العربية الكبرى بمصر بطباعته، على نفقة الحاج فدا محمد الكشميري وشركاه بمكة، وفيها إشارة إلى أنها طبعت "على النسخة المقابلة على نسخة المؤلف الموجودة بمدينة قونية، وقام بهذه المهمة جماعة من العلماء بأمر المغفور له الأمير عبد القادر الجزائري، رحم الله الجميع وأثابهم المكان الرفيع".

والواقع أنّ مصححي هذه الطبعة قد استعاروا نسخة مكتبة السليمانية مجددا – وصورتها بين أيدينا– وفيها تذييل في مجلدي هذه النسخة مكتوبا باللغة التركية يشير إلى ذلك وترجمته: "هذا الكتاب من ضمن تصحيح الكتاب الشريف الفتوحات المكيّة الذي طبع في مصر. جُلِب إلى مصر مرة أخرى في عهد والي مصر السابق المتوفى، عباس باشا، وعاد إلى مكتبته".

وتقلّصت الأخطاء في هذه النسخة إلى حدّ كبير.. وطبعت في 4 مجلدات كبيرة وبقيت المرجع الرئيسي خلال القرن العشرين. ولقد أجرينا اختبارا بالعينة شمل 14% من الكتاب فوجدنا نسبة الاختلاف فيها عن نسخة قونية يعادل مرة واحدة في كل 75 كلمة. ونظرا لأنّ المتن الأصلي للكتاب يتضمن (1735000) كلمة، فهذا يعني وجود ما لا يقل عن 23000 اختلاف .وكثير من هذه الاختلافات يمكن التعامل معها، إلا أنها –مع ذلك– تضمّنت أخطاء جسيمة، وفيما يلي عيّنة منها:

المرحلة الثّانية:

وفي عام 1954 م تمّ تكليف الدكتور عثمان يحيى من قبل جامعة السوربون ومنظمة اليونسكو والمجلس الأعلى للثقافة في مصر والهيئة المصرية العامة للكتاب بتحقيق الكتاب بعد أن لاحظ المعنيّون أنّ نسخة القاهرة ينقصها الكثير من متطلبات التحقيق العلميّ الحديث إضافة إلى شمولها أخطاء كثيرة ..

اعتمد د/ عثمان يحيى على 3 نسخ أساسية في تحقيقه وهي :

1 – صورة نسخة مخطوط قونية وهي النسخة الثانية المكتوبة بخط الشيخ .

2 – صورة مخطوطة منقولة من النسخة الأولى وجدها في مكتبة بيازيد بتركيا .

3 – نسخة القاهرة المطبوعة عام 1329 هـ .

استغرق د/ عثمان يحيى حوالي 18 عاما في الأعمال التمهيدية لتظهر عام 1972 م نتيجة عمله للسفر الأوّل من الكتاب. وتوالى ظهور الأسفار التالية في العقدين اللاحقين

وكان آخرها السفر 14 عام 1992م.. وتوقف العمل بعدئذ لانتقال صاحبه في تسعينيات القرن العشرين إلى رحاب ربه وكان المتبقي أمامه 23 سفرا .

اتضح أنّ د/ عثمان يحيى قد بذل جهدا مضنيا في تحقيق الأسفار الأربعة عشر الأولى من الفتوحات المكية وتميّز بضبط المادة وفق النهج الحديث المعتمد على ضوابط علامات الترقيم لغرض تسهيل قراءة واستيعاب النصوص.. إضافة إلى وضعه فهارس عديدة لتسهيل مهمّة الباحثين في العثور على متطلبات أبحاثهم ..

ولأنّ كل عمل وخاصّة بحجم هذا العمل معرّض لحدوث شوائب وأخطاء، فقد سجل الباحثون عليه عددا من الملاحظات لعل أهمها ما يلي :

1 – استغرق جلّ عمل التحقيق في إثبات رسم الكلمات والحروف لمخطوطتي قونية وبيازيد مما أهدر وقتا كبيرا وهامّا في ذلك.. وكان يمكنه وضع جدول لكيفية كتابة الكلمات مرة واحدة بدلا من تكرار ذلك مع كل كلمة.. مثل الإشارة لرسم كلمة (ملائكة، ملائكه، ملئكة، ملئكه) في كل موضع كتبت فيه بهذا الرسم أو ذاك.. ومع هذا التدقيق الزائد الذي سار عليه فإنه لم يسلم من الوقوع في أخطاء إثبات الرسم؛ فكثيرا ما ينسب رسما معيّنا للنسخة الأولى مثلا في حين يكون هذا الرسم للنسخة الثانية ..

2 – لقد ارتاب عدد من دارسي الشيخ الأكبر بعمل الدكتور عثمان يحيى ولم يطمئنوا إليه لملاحظتهم حرصه –في بداية عمله في التحقيق– على اصطناع علاقة خاصّة بين مشرب الشيخ الأكبر وثقافة المدرسة الإسماعيليّة، إلى حدّ اعتباره يبدو وكأنه تلميذ لشيوخ هذه المدرسة. .

3 – كما أنه لم يحالفه الحظ في استخدامه بعض علامات الترقيم في مواقع تصادم الفطرة الدينية الإيمانية، مثل إكثاره من وضع علامة التعجب بعد صيغ التفخيم للمولى عزّ وجلّ، أو بعد صيغ الصلاة والتسليم على النبي محمد عليه الصلاة والسلام ..

4 – كما لاحظنا سقوط عبارات كاملة وكلمات كثيرة من النسخة المحققة، وورود كلمات مضافة من غير الإشارة إلى ذلك.. إضافة إلى كثرة وقوعه في أخطاء إثبات نسبة نص معيّن إلى نسخة معيّنة في حين يكون أصله للنسخة الأخرى ..

3 – المرحلة الثّالثة:

وبعد ظهور الإنترنت والنشر الإليكتروني استبشرنا خيرا بظهور طبعة للفتوحات المكية عبر هذا النظام.. ولكن تبيّن أنه بمجرد الإطلاع على أي صفحة منها يصدم القارئ

للأخطاء التي لا يخلو منها سطر، وللعبارات المزوَّرة والمنحولة التي تمتلئ بها هذه الطبعة، وللتكرار غير المنطقيّ لمئات الصفحات وآلاف الأسطر، ولسقوط أبواب وصفحات كثيرة.. والواقع إنها مأساة أن يطّلع القارئ على تلك الإساءات الواردة في هذا الإصدار ..

وواضح هنا أنّ مناوئي التصوف والشيخَ الأكبر لجأوا إلى هذه الحيلة كونها أسهل وسيلة لتشويه الشيخ الأكبر والتصوّف بدلا من مواجهة الحجة بالحجة.. ورأوا أنه يكفي تحويل القارئ المهتم إلى هذا الإصدار ليقتنع من تلقاء نفسه بخطأ الشيخ ونهج التصوف بشكل عام..

والمثير للأسف هنا هو قيام بعض مواقع التصوّف الإليكترونية بالتقاط هذه النسخة المزوّرة ووضعها ضمن الإصدارات الصوفية التي يمكن للمتابعين تنزيلها من لديها.. ولا تخفى خطورة هذا الأمر بسبب غطاء الثقة الذي تمنحه هذه المواقع للإصدارات التي تمرّ عبرها.

واللافت للنظر أنّ الجهة التي ظهرت هذه النسخة لأوّل مرة في أحد مواقعها الإليكترونية تنتمي للتيّار المناوئ للتصوّف، وكانت مراجعها الدينيّة منذ قرون مضت قد اتّهمت الشيخ بتهم باطله وأقوال مزوّرة.. قد كررت –هذه الجهة– تلك الأقوال في هذا الإصدار بعد تغييرها للنصّ الأصلي الذي قاله الشيخ رغم أنّها نقلته –كما هو مفترض– من نسخة القاهرة المطبوعة منذ أكثر من مائة عام!! ولو حاول أحد البحث عن عذر لأولئك المراجع مثل تصوّر احتمال وقوع نسخة مزوّرة بأيديهم جراء النقل الخطأ والتصحيف ورداءة خط الناقل وخلافه.. وهي التي دفعتهم إلى تلك المواقف المعادية للشيخ الأكبر.. فلا نعلم المبرّر لهؤلاء النقلة الجدد بتغيير نسخة مطبوعة لا يحتمل خطها التصحيف والرداءة !!أو تجاهلها والإصرار على نشر مطبوعة لا يُعلم مصدرها، وحشوها بعدد لا يحصى من الأكاذيب والافتراءات الباطلة ..

والواقع إنّ هذا يبيّن لنا مدى التردّي النقدي الذي سلكه مناوئو الشيخ الأكبر بوجهٍ خاصّ والتصوّف بشكل عام، بلجوئهم إلى التزوير والتحريف، والابتعاد عن المصداقيّة في مناقشة الرأي الآخر، والتعصّب الأعمى لمرجعيّاتهم حتى لو صادمت الحقّ عملا بضدّ الحكمة القائلة بأنّ "العاقل هو من يعرف الرجال بالحقّ، وغير العاقل هو من يعرف الحقّ بالرجال !!"

هذا العمل

بناء على ما سبق، يتضح أنّ التحديات التي كانت أمامنا كبيرة وكثيرة .. وأهمها ما يلي:

1 – أن الكتاب هو في حقيقته موسوعة متكاملة لعلم دقيق وعميق؛ كون مساحة الجزء المكنون فيه واسعة، وكثير من معارفه ودقائقه لا تُنال إلا بالكشف، وعمل التحقيق يتطلب الشروع في مهام عدة؛ مثل الترجيح، وتحديد مسمّى اللفظ في حال التصحيف الذي كثيرا ما يرد في المخطوطات، ومنها قراءة الخطوط من المخطوطات..

ومعلوم أنّ هذه الخطوط تختلف باختلاف البلاد والعصر الذي كتبت فيه، واستيعاب الموضوع حتى يسهل تنسيق الكتابة من خلال (تحديد الفقرات وفقا لبداياتها ونهاياتها، والنقاط والفواصل وعبارات الاعتراض.. الخ) ومعلوم أنّ أي خلل يحدث في ذلك يؤدي في كثير من الحالات إلى اضطراب المعني الذي أراده صاحبه .

هذه وغيرها من لوازم التحقيق تستدعي إدراكا يتناسب مع موضوعات الكتاب. فإذا أضفنا إليه أنّ مؤلفه هو الشيخ الأكبر بفتوحاته وإلهاماته وقدراته التي منحه إياها المولى ولم يجاريه فيها أحد من ذوي الشأن.. فإن التصدّي لعمل كهذا يصير مخاطرة من الوزن الثقيل .

–2حجم هذا الكتاب الموسوعة كبير للغاية.. فأسفاره 37 سفرا، وأبوابه 560 بابا، وصفحاته بخط الشيخ الأكبر 10544 صفحة، وكلماته تزيد عن 1735000 كلمة. وبالتالي فإنه يتطلب وقتا وتفرّغا وإمكانيات وجهدا يزيد عن طاقة فرد واحد.. إلخ

3 – صعوبة الحصول على مخطوطات الكتاب، وفي علمنا أنّ النسخة الأصليّة المكتوبة بقلم الشيخ نفسه محفوظة في تركيا، ومن ثمّ يصير العمل عبثا إن لم يستند عليها، والحصول على صورة منها يتطلب إذنا خاصّا من رئاسة الجمهورية التركية كما بلغنا فيما بعد.. وليس هذا الأمر باليسير. (وكنا قد طرقنا أبواب اليونسكو وأنقرة والقاهرة ودمشق وطوكيو والإمارات ..بل وأبواب مهتمين ممن توجد صورة هذه النسخة لديهم.. إلا أنّ هذه الجهود ذهبت كلها أدراج الرياح (!!

4 – التجارب السابقة التي ذكرناها –رغم توفّر كل الإمكانيات الداعمة لها، والوقت اللازم، والتفرغ– لم تكتمل ولم تسلم من الوقوع في آلاف الأخطاء التي لا تليق بموسوعة عظيمة كهذه.

***

ولكن.. لا مفرّ من قدر.. وإذا أراد الله أمرا يسّر أسبابه، وأوّل التيسير لنا كان توفُّر النّيّة والعزم بضرورة معالجة تصحيح هذا الفساد الواقع، وإزالة العبث والتشويه اللامسئول، وإبراز هذا الكتاب بحلّته التي ألبسه أيّاها صاحبه كما هي، من غير زيادة أو نقصان، ورافق هذه النّيّة إحساس قويّ بإمكانيّة إنجازه، وساعد على ذلك إشارات وبشارات قبل الشروع في العمل بمدة –وتعزّزت أثناءه بعد ذلك– رأيناها تدفعنا دفعا في هذا العمل.. في وقت لم يكن بأيدينا من أدواته سوى نسخة القاهرة المطبوعة.. وحينئذ فتحت الأبواب المغلقة .. فأبدى أخوان هما المهندس محمود سلطان المنصوب والأستاذ أحمد سعيد ناصر استعدادهما للعمل بتفرغ شبه كامل قرابة ثلاثة أعوام شاركاني فيها عملية المراجعة والتدقيق والفهرسة، وتكرم الشيخ الدكتور/ محمد عبد الرب النظاري بتوفير صورة من نسخة مخطوطة قونية، حصل عليها من مركز جمعة الماجد للمخطوطات في دبي، وكذا الأخ الدكتور/ محمد أبو بكر المفلحي، وزير الثقافة، قام بالتراسل مع وزارة الثقافة التركية وتأمين صورة من نسخة السليمانية.. وتوفَّر الدعم التقني من قبل العزيزين الدكتور المهندس/ سامي عبد العزيز المنصوب، والمهندس/عمر عبد العزيز المنصوب. بعد تدبير أجهزة الكمبيوتر المطلوبة ولم يبق أمامنا بعدئذ سوى الإبحار في مركب الشيخ الأكبر قدّس الله سرّه، مستمدّين العون والتوفيق من الحقّ تعالى جلّت قدرته .

وفي المرحلة الأولى –التي ابتدأت في شهر رجب من عام 1428هـ وانتهت من غير ترتيب مسبق ليلة 27 رمضان من عام 1429هـ!!– أنجزنا مهمّتين رئيسيتين :
–إخراج أوّلي لنسخة محكمة الفقرات والجمل ومختلف علامات الضبط والترقيم .
–استكمال المقابلة والضبط وفق نسخة القاهرة .

وفي المرحلة الثّانية التي انتهت آخر ليلة من شهر رمضان عام 1430هـ!! –وكنا قد استلمنا صورتي مخطوطتي قونية والسليمانية– أنجزنا كذلك مهمّتين رئيسيتين:

أجرينا المقابلة من جديد لضبط النسخة المحقّقة وفقا لمخطوط قونية باعتبارها الأصل الذي نعمل عليه، مع الاستفادة من نسخة السليمانية ونسخة القاهرة كنسختين مساعدتين في توضيح الكلمات المصحّفة أو العبارات التي ربما تكون سقطت سهوا عند إعادة نقلها من قبل الشيخ الأكبر، أو الحلول محلّ صفحاتها المفقودة .

ضبط النصوص القرآنيّة وتثبيت مرجعيّتها ، وكذا الأحاديث النبويّة ، والنصوص الشعرية وتشكيلها. وجدولة المصطلحات الصوفية والأعلام والأماكن... الخ .

ونظرا لأنّ عملا كبيرا كهذا لن يسلم من الأخطاء بسهولة، فقد بدأنا العام الثالث بإجراء اختبار بالعيّنة لنتبيّن مدى نجاحنا في إبراز النسخة التي كتبها الشيخ الأكبر كما هي تماما.. ومن البداية ظهر لنا وجود اختلاف بمقدار كلمة واحدة في كل ألف وخمسمائة كلمة.

ومع أنّ هذه النتيجة تعتبر من المعايير ذات الكفاءة العالية، إضافة إلى أنّ كلّ المؤشّرات كانت تقود إلى أنّ هذه الاختلافات الباقية ناتجة كلها عن السماع عند المقابلة بحيث يسقط أو يزيد فيها حرف من غير أن يؤثّر في المعنى من مثل: (وكان، كان) أو يحلّ حرف بدل حرف آخر، مثل: (وقال، فقال) أو أنها أخطاء مطبعيّة كأنْ يتبادل فيها حرفان موقعيهما.. وكلّها من النوع الذي لا يغيب عن فطنة القارئ. إلّا أنّا رأينا –مع ذلك– إعادة المراجعة والمقابلة لإزالة كلّ ما نعثر عليه من اختلاف عن النصّ الأصلي نظرا لأهميّة هذا الكتاب الموسوعة الذي بين أيدينا، فقد آن الأوان أن يلبس حلّته الأصلية بعيدا عن أي تشويه وتحريف ..

وانتهت هذه المرحلة بتوفيق المولى الكريم –من غير ترتيب مسبق منّا– يوم الجمعة 12 ربيع الأوّل من عام 1431هـ ..

وإذ تزامن هذا الإنجاز مع إعلان مدينة تريم عاصمة للثقافة الإسلامية في هذا العام 2010 م، فلم نجد عندئذ بدًّا من تسليم النسخة للطباعة ليكون عنوان وفاء تقدمه اليمن لعَلم بارز من أبنائها، كان مشعل هداية، سطع وَهَجُهُ فأنار للإنسانيّة دروبا مظلمة، ولم يخفت هذا الوهج على مدى قرون ثمانية، بل لم تزده الدهور والأزمان إلاّ سطوعا ولمعانا ورونقا وبَهاء.

محيي الدّين بن عربي

كتاب رحمة من الرّحمن في تفسير وإشارات القرآن

الجزء الأوّل

سورة الفاتحة

سورة الفاتحة

تفسير سورة الفاتحة كتاب تفسير القرآن الكريم رحمة من الرحمن في تفسير وإشارات

1 – سورة الفاتحة

هي فاتحة الكتاب، والسبع المثاني ، والقرآن العظيم ، وأم القرآن ، وأم الكتاب ، والكافية ، وتسمى سورة الحمد.

والبسملة آية منها ، وقد قيل في الفاتحة إن اللّه أعطاها نبيه محمدا صلّى اللّه عليه وسلم خاصة دون غيره من الرسل ، من كنز من كنوز العرش ، لم توجد في كتاب منزل من عند اللّه ولا صحيفة إلا في القرآن خاصة.

وبهذا سمي قرآنا لأنه جمع بين ما نزل في الكتب والصحف وما لم ينزل ، ففيه كل ما في الكتب كلها المنزلة ، وفيه ما لم ينزل في كتاب ولا صحيفة ، وهي فاتحة الكتاب ، لأن الكتاب يتضمن الفاتحة وغيرها ، ولأنها منه ، وإنما صح لها اسم الفاتحة من حيث أنها أول ما افتتح به كتاب الوجود ، وجعلها اللّه مفتاحا له ، وهي أم القرآن لأن الأم محل الإيجاد ، والموجود فيها هو القرآن ، وهي أم الكتاب الذي عنده ، في قوله« وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتابِ »لأن الأم هي الجامعة ، ومنها أم القرى ، والرأس أم الجسد ، يقال أم رأسه لأنه مجموع القوى الحسية والمعنوية كلها التي للإنسان ، وكانت الفاتحة أما لجميع الكتب المنزلة ، وهي القرآن العظيم ، أي المجموع العظيم الحاوي لكل شيء ، ولما كان رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم مبعوثا إلى الناس كافة ، والناس من آدم إلى آخر إنسان ، فجميع الرسل نوابه بلا شك ، فلما ظهر بنفسه لم يبق حكم إلا له ، ولا حاكم إلا راجع إليه ، واقتضت مرتبته أن تختص بأمر عند ظهور عينه في الدنيا ، لم يعطه أحد من نوابه ، ولا بد أن يكون ذلك الأمر من العظم بحيث أنه يتضمن جميع ما تفرق في نوابه وزيادة ، فأعطاه أم الكتاب ، فتضمنت جميع الصحف والكتب ، وظهر بها فينا مختصرة ، سبع آيات تحتوي على جميع الآيات ، فأم الكتاب ألحق اللّه بها جميع الكتب والصحف المنزلة على الأنبياء نواب محمد صلّى اللّه عليه وسلم ، فادخرها له ولهذه الأمة ، ليتميز على

الأنبياء بالتقدم، وإنّه الإمام الأكبر، وأمّته التي ظهر فيها خير أمة أخرجت للنّاس، لظهوره بصورته فيهم، وهي السّبع المثاني والقرآن العظيم الصّفات، فظهرت في الوجود في واحد وواحد، فحضرة تفرّد، وحضرة تجمع، فمن البسملة إلى ﴿الدين﴾[1] إفراد إلهي، ومن ﴿اهدنا﴾[2] إلى ﴿الضالين﴾[3]: إفراد العبد المألوه.

وقوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾[4] تشمل وما هي العطاء، وإنّما العطاء ما بعدها، و﴿إياك﴾[5] في الموضعين ملحق بالإفراد الإلهي، فصحّت السبع المثاني.

يقول العبد: فيقول اللّه: ﴿وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ﴾[6]: الجمع ، وليس سوى ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾[7].

إشارة من اسم فاتحة الكتاب وأم الكتاب

وسميت الفاتحة الكافية، لأن بقراءتها وحدها تصح الصلاة ، وهي قرآن من حيث ما اجتمع العبد والرب في الصلاة ، وهي فرقان من حيث ما تميز به العبد من الرب ، مما اختص به في القراءة من الصلاة ، والعبد في الفاتحة قد أبان الحق بمنزلته فيها ، وأنه لا صلاة للعبد إلا بها ، فإنها تعرفه بمنزلته من ربه ، وأنها منزلة مقسمة بين عبد ورب كما ثبت ، وتسمى الفاتحة: سورة الحمد ، فإنها الجامعة للمحامد كلها ، وما أنزلت على أحد قبل رسول اللّه –صلّى اللّه عليه وسلم–.

ولا ينبغي أن تنزل إلا على من له لواء الحمد ، فهي الجامعة للمحامد كلها، فإنه –سبحانه– لا ينبغي أن يحمد إلا بما يشرع أن يحمد به ، من حيث ما شرعه لا من حيث ما تطلبه الصفة الحمدية من الكمال ، فذلك هو الثناء الإلهي ، ولو حمد بما تعطيه الصفة لكان حمدا عرفيا عقليا ، ولا ينبغي مثل هذا الحمد لجلاله

.

إشارة وتحقيق:

1
2
3
4
5
6
7

اعلم أن الفاتحة لها طرفان وواسطة ، ومقدمتان ورابطة ، فالطرف الواحد بالحقائق الإلهية منوط ، والطرف الآخر بالحقائق الإنسانية منوط ، والواسطة تأخذ منهما على قدر ما تخبر به عنهما ، والمقدمة الواحدة سماوية ، والمقدمة الأخرى أرضية ، والرابطة لهما هوائية ، فهي الفاتحة ، للتجليات الواضحة ، وهي المثاني ، لما في الربوبية والعبودية من المعاني ، وهي الكافية ، لتضمنها البلاء والعافية ، وهي السبع المثاني ، لاختصاصها بصفات المعاني ، وهي القرآن العظيم ، لأنها تحوي صورة المحدث والقديم ، وهي أم الكتاب ، لأنها الجامعة للنعيم والعذاب.

إشارة : هي فاتحة الكتاب لأن الكتاب عبارة من باب الإشارة عن المبدع الأول.

وكذلك الروح ازدوج مع النفس بواسطة العقل ، فصارت النفس محل الإيجاد حسا ، فهذه النفس هو الكتاب المرقوم لنفوذ الخط ، فظهر في الابن ما خط القلم في الأم.

إشارة : الأم أيضا عبارة عن وجود المثل محل الأسرار ، فهو الرق المنشور الذي أودع فيه الكتاب المسطور المودعة فيه تلك الأسرار الإلهية.

ص 18

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الوجه الأول : البسملة آية مستقلة ، ونقول فيها في سورة النمل إنها جزء من آية « بسم اللّه » هو اللّه من حيث هويته وذاته « الرحمن » بعموم رحمته التي وسعت كل شيء « الرحيم » بما أوجب على نفسه للتائبين من عباده ، فقدم سبحانه في كتابه العزيز« بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ » *في كل سورة ، إذا كانت السورة تحتوي على أمور مخوفة ، تطلب أسماء العظمة والاقتدار ، فقدم أسماء الرحمة تأنيسا وبشرى.

فإنه تعالى القائل« وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ »لهذا ليس في البسملة شيء من أسماء القهر ظاهرا ، بل هو اللّه الرحمن الرحيم وإن كان يتضمن الاسم « اللّه » القهر ، فكذلك يتضمن الرحمة ، فما فيه من أسماء الغلبة والقهر والشدة ، يقابله بما فيه من الرحمة والمغفرة والعفو والصفح ، وزنا بوزن في الاسم « اللّه » من البسملة ، ويبقى لنا فضل زائد على ما قابلنا به الأسماء في الاسم « اللّه » وهو قوله« الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ »فأظهر عين « الرحمن » وعين « الرحيم » خارجا زائدا على ما في الاسم اللّه الجامع من البسملة ،

فرجح ، فكأن اللّه عرفنا بما يحكمه في خلقه ، وأن الرحمة بما هي في الاسم اللّه الجامع من البسملة ، هي رحمته بالبواطن ، وبما هي ظاهرة في« الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ »هي رحمته بالظواهر ، فعمت ، فعظم الرجاء للجميع ، وما من سورة من سور القرآن إلا والبسملة في أولها ، فأولناها أنها إعلام من اللّه بالمآل إلى الرحمة ، فإنه جعلها ثلاثة :الرحمة المبطونة في الاسم »اللّه » و « الرحمن » و « الرحيم « ولم يجعل للقهر سوى المبطون في الاسم « اللّه » فلا عين له موجودة في الظاهر.

واعلم أن اختصاص البسملة في أول كل سورة ، تتويج الرحمة الإلهية في منشور تلك السورة ، أنها تنال كل مذكور فيها ، فإنها للسورة كالنية

من كتاب إيجاز البيان في الترجمة عن القرآن:

سورة الفاتحة الترجمة عن فاتحة الكتاب« بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ »البسملة عندي آية من القرآن حيث ما وقعت منه إذا تكررت للفصل بين السور ، فقد تكررت قصة آدم وموسى وغيرهما وذكر الأنبياء في مواضع كثيرة من القرآن ، ولم يقل أحد أن ذلك ليس من القرآن ، وإن أسقطت في بعض الروايات كقراءة حمزة

ص 19

للعمل ، فكل وعيد ، وكل صفة توجب الشقاء مذكورة في تلك السورة ،

]البسملة فاتحة الفاتحة[

فإن البسملة بما فيها من « الرحمن » في العموم و « الرحيم » في الخصوص ، تحكم على ما في تلك السورة من الأمور التي تعطي من قامت به الشقاء ، فيرحم اللّه ذلك العبد ، إما بالرحمة الخاصة ، وهي الواجبة ، وإما بالرحمة العامة ، وهي رحمة الامتنان ، فالمآل إلى الرحمة لأجل البسملة ، فهي بشرى.

والبسملة فاتحة الفاتحة ، وهي آية أولى منها ، أو ملازمة لها ، كالعلاوة ، على الخلاف المعلوم بين العلماء ، و« بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ »عندنا ، خبر ابتداء مضمر ، وهو ابتداء العالم وظهوره ، لأن الأسماء الإلهية سبب وجود العالم ، وهي المسلطة عليه والمؤثرة ، فكأنه يقول : ظهور العالم بسم اللّه الرحمن الرحيم ، أي باسم اللّه الرحمن الرحيم ظهر العالم ، والبسملة التي تنفصل عنها الكائنات على الإطلاق هي بسملة الفاتحة

، لا بسملة سائر السور ، فإن بسملة سائر السور لأمور خاصة ، واختص الثلاثة الأسماء لأن الحقائق تعطي ذلك ، فاللّه هو الاسم الجامع للأسماء كلها ، والرحمن صفة عامة ، فهو رحمن الدنيا والآخرة ، بها رحم كل شيء من العالم في الدنيا ، ولما كانت الرحمة في الآخرة لا تختص إلا بقبضة السعادة ، فإنها تنفرد عن أختها ، وكانت في الدنيا ممتزجة ، يولد كافرا ، ويموت مؤمنا ، أي ينشأ كافرا في عالم الشهادة ، وبالعكس ، وتارة وتارة ، وبعض العالم تميز بإحدى القبضتين بإخبار صادق ، فجاء الاسم « الرحيم » مختصا بالدار الآخرة لكل من آمن ، وتم العالم بهذه الثلاثة الأسماء ، جملة في الاسم « اللّه » وتفصيلا في الاسمين « الرحمن

من كتاب إيجاز البيان في الترجمة عن القرآن:
ابن حبيب الزيات وكإسقاط هو من سورة الحديد « 1 » ، والباء من بالزبر « 2 » ، ولم يجرح إسقاطها في قراءة من أثبتها من القرآن ، وأما في الفاتحة وفي النمل فما أحد من القراء أسقطها رأسا ، إلا بسملة الفاتحة في الصلاة ، فمنع مالك قراءتها سرا وجهرا ، في المكتوبة ، وأجازها في النافلة ، وأما الثوري وأبو حنيفة فقالا يقرؤها سرا في كل ركعة ، وقال الشافعي يقرؤها ولا بد في الجهر جهرا وفي السر سرا ، وهي عندي آية من الفاتحة وهو مذهب أبي ثور وأحمد ، ومن بعض أقوال الشافعي أن البسملة

»(1)فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ » *قرأ المدنيان وابن عامر بغير (هو) وكذلك هو في مصاحف المدينة والشام ، وقرأ الباقون بزيادة (هو) وكذلك في مصاحفهم – سورة الحديد.
»(2)بِالْبَيِّناتِ وَالزُّبُرِ وَالْكِتابِ »قرأ ابن عامر « وبالزبر » بزيادة باء بعد الواو والباقي بحذفها – آل عمران.
20

الرحيم » « فبسم اللّه » أي بي قام كل شيء وظهر « الرحمن » من أعربه بدلا من اللّه ، جعله ذاتا ، ومن أعربه نعتا ، جعله صفة ، وفيها بسط الرحمة على العالم « الرحيم » وبه تمت البسملة ، وبتمامها تم العالم خلقا وإبداعا.

أما سورة التوبة ، فهي والأنفال سورة واحدة ، قسمها الحق على فصلين ، فإن فصلها القارئ وحكم بالفصل ، فقد سماها سورة التوبة ، أو سورة الرجعة الإلهية بالرحمة على من غضب عليه من العباد ، فما هو غضب أبد ، لكنه غضب أمد ، واللّه هو التواب ، فما قرن بالتواب إلا الرحيم ، ليئول المغضوب عليه إلى الرحمة ، أو الحكيم ، لضرب المدة في الغضب ، وحكمها فيه إلى أجل ، فيرجع عليه بعد انقضاء المدة بالرحمة ، فانظر إلى الاسم الذي نعت به « التواب » تجد حكمه كما ذكرنا ، والقرآن جامع لذكر من رضي عنه وغضب عليه ، وتتويج منازله ب« الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ »والحكم للتتويج ، فإنه به يقع القبول ، وبه يعلم أنه من عند اللّه.

من كتاب إيجاز البيان في الترجمة عن القرآن:

آية من كل سورة ، وبه نقول ، وأما قراءة الفاتحة في الصلاة قال تعالى« فَاقْرَؤُا ما تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ عَلِمَ أَنْ سَيَكُونُ مِنْكُمْ مَرْضى »فروي عن عمر أن الصلاة تجوز بغير قراءة ، وروي عن ابن عباس أنه لا يقرأ في صلاة السر ، وأوجب الشافعي قراءة فاتحة الكتاب في كل ركعة من الصلاة ، وهي أشهر الروايات عن مالك ، وروي عنه أنه إن قرأها في ركعتين من الرباعية أجزأه ، وقال الحسن البصري وكثير من فقهاء البصرة : تجوز في قراءة واحدة ، قال أبو حنيفة : يجب قراءة أي آية اتفقت في الركعتين الأوليين ، ويستحب فيما بقي من الصلاة التسبيح دون القراءة ، وبه قال الكوفيون ، وجمهور العلماء يستحبون القراءة في الصلاة كلها« بِسْمِ اللَّهِ »العامل في الباء من بسم اللّه ما في الحمد لله من معنى الفعل ، أي يضمر له فعل من لفظه ، مثل حمدته أو أحمده ، وبه تتعلق الباء من بسم اللّه ، وهكذا في كل سورة في القرآن أولها الحمد ، وفي بعض سور القرآن تكون في أولها أفعال تطلب الباء من بسم اللّه . أذكرها في موضعها أن شاء اللّه « اللّه » اسم للذات وإن كان يجري مجرى العلمية له سبحانه ، فإن المفهوم منه مع هذا بأول الإطلاق من له نعوت الألوهية من الكمال والتنزيه والجلال ، وفي طريق الاشتقاق فيه تكلف وتعسف ، وهو اسم

مختلف في اشتقاقه فأضربنا عن الخوض في ذلك لقلة فائدته ، غير أن الغالب عليه أن يجري مجرى الأسماء الأعلام ، وهو اسم محفوظ من أن يسمى به غيره سبحانه على هذه الصورة الخاصة« الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ »من وقف عند قوله سبحانه(قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمنَ أَيًّا ما تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْماءُ

ص 21

والقراء في وصل البسملة على أربعة مذاهب : المذهب الواحد لا يرونه أصلا ، وهو أن يصل آخر السورة بالبسملة ويقف ويبتدئ بالسورة ، هذا لا يرتضيه أحد من القراء العلماء منهم ، وقد رأيت الأعاجم من الفرس يفعلون مثل هذا ، مما لا يرتضيه علماء الأداء من القراء . والمذهب الحسن الذي ارتضاه الجميع ، ولا أعرف لهم مخالفا من القراء ، الوقوف على آخر السورة ، ووصل البسملة بأول السورة التي يستقبلها . والمذهبان الآخران ، وهما دون هذا من الاستحسان : أن يقطع في الجميع ، أو يصل في الجميع ، وأجمع الكل أن يبتدئ بالتعوذ والبسملة عند الابتداء بالقراءة في أول السورة ، وأجمع على قراءة البسملة في الفاتحة جماعة القراء بلا خلاف ، واختلفوا في سائر سور القرآن ، ما لم يبتدئ أحد منهم بالسورة ، فخيّر من خيّر في ذلك « كورش » ومنهم من ترك « كحمزة » ومنهم من بسمل ولم يخيّر كسائر القراء.

الحمد لله رب العالمين 2

قرئ « الحمد » بخفض الدال ، و « الحمد لله » برفع اللام اتباعا لحركة الدال ، والحمد : ثناء عام ، ما لم يقيده الناطق به بأمر ، وله ثلاث مراتب : حمد الحمد ، وحمد المحمود نفسه ، وحمد غيره له ، وما ثم مرتبة رابعة في الحمد ، ثم في الحمد بما يحمد الشيء

من كتاب إيجاز البيان في الترجمة عن القرآن:

الْحُسْنى) *أجراه مجرى الاسم اللّه في العلمية ، فاتحد المدلول وهو الذات ، وهو فعلان ، وإن كان هذا اللفظ مشتقا من لفظ الرحمة وهو الأظهر ، فمعناه الذي له تعميم الرحمة في خلقه ، أي هذه النسبة إليه صحيحة ، وإن كان المرحومون معدومين ، و « الرحيم »

تخصيص الرحمة بالسعداء في الدنيا بالتوفيق والهداية ، وفي الآخرة بالنجاة من العذاب وحصول النعيم ، وسيأتي ذلك في الفاتحة ، والرحمن [نعت لعموم الرحمة بالخلق] « * » من الاسم الرحمن ، والنعت وإن كان يأتي لرفع اللبس فقد يجاء به لمجرد المدح والثناء ، قيل لهم : اعبدوا اللّه ، لم يقولوا : وما اللّه ؟ قيل لهم : اسجدوا للرحمن ، قالوا : وما الرحمن ؟ فعلى كل وجه النعت فيه أولى ، ولا يلتفت لما قاله الطبري في ذلك ، فإنه مدخول معلول من عدم معرفة العرب بالرحمن (2)« الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعالَمِينَ »« الْحَمْدُ لِلَّهِ »بسم اللّه ، أي الثناء عليه بأسمائه الحسنى ، وهذا يدلك على أن أسماءه سبحانه تجري مجرى النعوت

(*)بياض في الأصل.

ص 22

نفسه ، أو يحمده غيره ، تقسيمان : إما أن يحمده بصفة فعل ، وإما أن يحمده بصفة تنزيه ، وما ثم حمد ثالث هنا . وأما حمد الحمد له ، فهو في الحمدين بذاته ، إذ لو لم يكن لما صح أن يكون لها حمد ، ثم إن الحمد على المحمود قسمان : القسم الواحد أن يحمد بما هو عليه ، وهو الحمد الأعم ، والقسم الثاني : أن يحمد على ما يكون منه ، وهو الشكر ، وهو الأخص ، فإن النبي صلّى اللّه عليه وسلم يقول في المقام المحمود : فأحمده بمحامد لا أعلمها الآن ، وقال:

لا أحصي ثناء عليك ، لأن ما لا يتناهى لا يدخل في الوجود ، ولما كان كل عين حامدة ومحمودة في العالم كلمات الحق ، رجعت إليه عواقب الثناء ، فلا حامد إلا اللّه ، ولا محمود إلا اللّه ، وحمد الحمد صفته ، لأن الحمد صفته ، وصفته عينه ، إذ لا يتكثر ، فما في المحامد أصدق من حمد الحمد ، فإنه عين قيام الصفة به ، فلا محمود إلا من حمده الحمد ، لا من حمد نفسه ، ولا من حمده غيره ، فإذا كان عين الصفة عين الموصوف عين الواصف ، كان الحمد عين الحامد والمحمود ، وليس إلا اللّه ، فهو عين حمده ، سواء أضيف ذلك الحمد إليه أو إلى غيره ، فإن قيام الصفة بالموصوف ما فيها دعوى ، ولا يتطرق إليها احتمال ، والواصف نفسه أو غيره بصفة ما ، يفتقر إلى دليل على

صدق دعواه ، فالحمد : هو الثناء على اللّه بما هو أهله ، والشكر : الثناء على اللّه بما يكون منه من النعم ، ولا يكون الثناء أبدا على اللّه إلا مقيدا إما بالنطق ، وإما بالمعنى الباعث على الحمد ، وقد يرد في النطق مطلقا ومقيدا مثل قوله تعالى في المطلق اللفظي« قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ » *وأما المقيد فتارة يقيده بصفة تنزيه كقوله تعالى« الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَداً »وتارة يقيده بصفة فعل ، كقوله « الحمد للّه

من كتاب إيجاز البيان في الترجمة عن القرآن:
لا مجرى العلمية ، لأن الأسماء الأعلام لا يكون بها الثناء ، وإنما يقع الثناء على المثنى عليه بما تدل عليه هذه الألفاظ من نعوت الجلال له سبحانه ، فبها يحمد ، فمن المفهوم الثاني من الاسم اللّه يكون الاسم اللّه ثناء عليه سبحانه ، بل أتم الثناء لجمعيته مراتب الألوهية ، ولذا علقنا الباء بما في الحمد من معنى الفعل ، يقول سبحانه الثناء للّه من حيث أنه مثني عليه سبحانه ومثن اسم فاعل واسم مفعول بجميع أوصاف الثناء ، دل على الأول اللام من للّه ، فلا حامد ولا محمود الا هو ، وكل ثناء من غيره فهو راجع إليه بما يكون منه وهو عليه ، فله عواقب الثناء كله ، وله الحمد في الأولى والآخرة في الحالتين معا ، ودل على الثاني الألف واللام لاستغراق أجناس الثناء ، فالثناء عليه سبحانه بوجهين ، بما هو عليه من نعوت الجلال وبما يكون منه من الإنعام والإحسان ، وهذا
ص 23

الذي أنزل الكتاب على عبده » وقوله« الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ »وما خرج حمد من محامید الكتب المنزلة من عنده عن هذا التقسيم . الحمد للّه تملأ الميزان ، لأنه كل ما في الميزان ، فهو ثناء على اللّه وحمد للّه ، فما ملأ الميزان إلا الحمد ، فالتسبيح حمد ، وكذلك التهليل والتكبير والتمجيد والتعظيم والتوقير والتعزيز ، وأمثال ذلك كله حمد ، فالحمد للّه هو العام الذي لا أعم منه ، وكل ذكر فهو جزء منه ، كالأعضاء للإنسان ، والحمد كالإنسان بجملته ، « الحمد لله » بعد ما خلق اللّه آدم وسواه ، نفخ فيه الروح ، فاستوى قاعدا ، فعطس ، فقال « الحمد لله » فقال له الحق « يرحمك اللّه يا آدم ، لهذا خلقتك » ولهذا قال عقيب قوله« الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعالَمِينَ »«

الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ »فقدم الرحمة ، ثم قال« غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ »فأخر غضبه ، فسبقت الرحمة الغضب في أول افتتاح الوجود ، فسبقت الرحمة إلى آدم قبل العقوبة على أكل الشجرة ، ثم رحم بعد ذلك ، فجاءت رحمتان بينهما غضب ، فتطلب الرحمتان أن تمتزجا ، لأنهما مثلان ، فانضمت هذه إلى هذه ، فانعدم الغضب بينهما ، فإذا قال العالم« الْحَمْدُ لِلَّهِ » *أي لا حامد إلا هو ، فأحرى أن لا يكون محمودا سواه ، وتقول العامة« الْحَمْدُ لِلَّهِ » *أي لا محمود إلا اللّه ، وهي الحامدة ، فاشتركا في صورة اللفظ .« رَبِّ الْعالَمِينَ »[اعلم أن العالم عبارة عن كل ما سوى اللّه ، وليس إلا الممكنات ، سواء وجدت أو لم توجد ، فإنها بذاتها علامة على علمنا ، أو على العلم بواجب الوجود

من كتاب إيجاز البيان في الترجمة عن القرآن:
النوع الواحد يسمى شكرا ، والحمد يجمعها فمن فسر الحمد هنا بالشكر خاصة فقد قصر وما أعطى الكلمة حقها في الدلالة ، يقول العبد في الصلاة« الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعالَمِينَ »يقول اللّه حمدني عبدي ، وما قال شكرني عبدي ، فصح ما ذكرناه من عموم الثناء هنا أنه مراد ، وللّه متعلق أيضا بما في الكلام من معنى الفعل وهو كائن ومستقر . – إشارة – اللام من للّه الخافضة حرف ، فهي عبد ، إذ الحرف يدل على المعنى ، والعبد يدل على اللّه ، والهاء من للّه معمولة للام بما حصل لها من الخفض ، الحق مدلول دليل العبد ، من عرف نفسه عرف ربه ، فجعله دليلا على معرفته ، فكان العلم به معمولا للعلم بنا ، وكونه خفضا لأنه يتعالى عن أن نعرف حقه ، فلا نعلم منه إلا ما يناسبنا ولهذا نتخلق بأسمائه الحسنى التي بيدنا ، فهذا معنى الخفض لأنها معرفة نازلة عن علمه بنفسه سبحانه . قوله« رَبِّ الْعالَمِينَ »يقول مصلح العالم ، واسم العالمين هنا كل ما سوى اللّه ،
ص 24

لذاته ، وهو اللّه ، فإن الإمكان حكم لها لازم في حال عدمها ووجودها ، بل هو ذاتي لها ، لأن الترجيح لها لازم ، فالمرجح لها لازم ، فالمرجح معلوم ، ولهذا سمى عالما من العلامة ، لأنه الدليل على المرجح ، فاعلم ذلك . وليس العالم في حال وجوده بشيء سوى الصور التي قبلها العماء وظهرت فيه ، فالعالم إن نظرت حقيقته إنما هو عرض زائل ،

أي في حكم الزوال ، وهو قوله تعالى« كُلُّ شَيْءٍ هالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ »وقال رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم : أصدق بيت قالته العرب قول لبيد « ألا كل شيء ما خلا اللّه باطل » يقول ما له حقيقة يثبت عليها من نفسه ، فما هو موجود إلا بغيره ، ولذلك قال صلّى اللّه عليه وسلم أصدق بيت قالته العرب « ألا كل شيء ما خلا اللّه باطل » فالجوهر الثابت هو العماء ، وليس إلا نفس الرحمن ، والعالم جميع ما ظهر فيه من الصور ، فهي أعراض فيه ، يمكن إزالتها ، وتلك الصور هي الممكنات ، ونسبتها من العماء نسبة الصور من المرآة ، تظهر فيها لعين الرائي ، والحق تعالى هو بصر العالم ، فهو الرائي ، وهو العالم بالممكنات ، فما أدرك إلا ما علمه من صور الممكنات ، فظهر العالم بين العماء وبين رؤية الحق ، فكان ما ظهر دليلا على الرائي ، وهو الحق ، فتفطن[دحض ما جاء في فتاوى الإمام ابن تيمية وما نسب إلى الشيخ الأكبر ابن العربي أنه يقول : إن وجود المحدث هو عين وجود القديم وأنه ينكر التمييز بين القديم والمحدث[

واعلم من أنت . « * » [والرب لا يعقل إلا مضافا ، ولذلك ما جاء في القرآن قط مطلقا من غير إضافة وإن اختلفت إضافاته ، فتارة يضاف إلى أسماء مضمرة ، وتارة يضاف إلى الأعيان ، وتارة يضاف إلى الأحوال ، فقال تعالى« الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعالَمِينَ »لم يقل رب نفسه ، لأن الشيء لا يضاف إلى نفسه ، وأثبت بقوله هذا حضرة الربوبية ، أي مربيهم ومغذيهم ،

من كتاب إيجاز البيان في الترجمة عن القرآن:

والرب هو المصلح والمربي والسيد والمالك والثابت ، والعالم إذا كان مشتقا من العلامة أي هو دليل عليه ، فإصلاح الدليل أن يكون سادا لا يدخله خلل ، وإذا لم يكن مشتقا ، فهو سبحانه مصلح العالمين بما جعل فيهم من صلاح دنياهم وآخرتهم وجميع أسبابهم ، كما أنه سبحانه من هذا الاسم مغذيهم ومربيهم ، كما أنه سيدهم ومالكهم ، فهو الثابت وجوده الذي لا ينقطع ، ويكون العالم محفوظا ببقائه وثبات وجوده . – إشارة – والرب هنا أيضا معمول للام الجر ، والعالمين في موضع خفض بالإضافة لا باللام ، فإن الرب هنا هو المضاف إلى العالم ، ولما كان حرف الباء

(*)هذه الفقرة تدحض وترد ما جاء في فتاوى الإمام ابن تيمية في الصفحة رقم 239 من المجلد الحادي عشر من مجموعة فتاويه المطبوعة بالرياض عام 1382 هـ ، حيث ينسب إلى الشيخ الأكبر ، أن وجود المحدث هو عين وجود القديم ، وأن الشيخ رضي اللّه عنه ينكر التمييز بين القديم والمحدث.
ص 25

الفقرة الثانية:
والعالمين عبارة عن كل ما سوى اللّه ، وهذه وصية إلهية لعباده ، لما خلقهم على صورته ، وأعطى من أعطى منهم الإمامة الكبرى والدنيا وما بينهما ، وذلك قوله صلّى اللّه عليه وسلم : كلكم راع ومسؤول عن رعيته ، وجعل هذا التحميد بين الرحمة المركبة ، فإنه تقدمه« الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ »وتأخر بعده« الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ »فصار العالم بين رحمتين ، فأوله مرحوم ومآله إلى الرحمة.

]إشارة إلى معنى اسم الرب بالثابت[

إشارة – الرب الثابت فلا يزول ، فلا تزيله « 1. «
الحمد للّه رب العالمين على .... ما كان منه من الأحوال في الناس
مما يسرهمو مما يسوؤهمو ..... وكل ذلك محمول على الرأس
له الثناء له التمجيد أجمعه .... من قبل والدنا المنعوت بالناسي
عبدته وطلبت العون منه كما .... قد قال شرعا على تحرير أنفاسي
وأن يهيئ لي من أمرنا رشدا ..... وأن يلين مني قلبي القاسي
حتى أكون على النهج القويم به .... خلقا كريما بإسعاد وإيناس

الرحمن الرحيم 3
"الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ " من أسماء اللّه تعالى وهو من الأسماء المركبة ، كبعلبك ورام هرمز ، فكانت تربيته تعالى للعالم باللطف والحنان والرحمة الرحمانية المؤكدة بالرحيمية ، فعم

بالرحمن ، فالرحمن مبالغة في الرحمة العامة ، التي تعم الكون أجمعه ، وخص بالرحيم ، وجعل اللّه تعالى في أم الكتاب أربع رحمات : فضمن الآية الأولى من أم الكتاب وهي البسملة

من كتاب إيجاز البيان في الترجمة عن القرآن:
من الرب معمولا للام للّه ، لم يكن العالم من طريق المعنى مرفوعا ، فبقي على أصله من الخفض ، فلا وجه للرفع هنا أصلا ، لفظا ومعنى ، وقد نبهتك على مأخوذ الإشارات كيف هي عند أصحابنا ، فإنها لا تجري مجرى التفسير ، ولكن تجري مجرى الدلالة ، فارجع إلى الترجمة من غير إشارة تتخللها والحمد للّه ، قوله (3)« الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ »اعلم أنه مهما وقع ذكر العالم مجاورا لاسم إلهي وبين اسمين من أسماء اللّه ، فلا بد أن يكون للاسم معنى فيه ، فينبغي للمفسر أن لا يغفل عن هذا القدر ، والرحمن هو الذي وسعت رحمته كل شيء بإخراج كل شيء من العدم إلى الوجود ،

---

(1)لا : هنا نافية أي أنك بإزالته في زعمك فإنه لا يزول.
ص 26

رحمتين ، هو قوله
]نصيحة : الرحمن الرحيم[
الرحمن الرحيم ، وضمن الآية الثالثة منها أيضا رحمتين ، وهما قوله الرحمن الرحيم ، فهو رحمن بالرحمتين ، العامة ، وهي رحمة الامتنان ، وهو رحيم بالرحمة الخاصة وهي الواجبة ، في قوله« فَسَأَكْتُبُها لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ »الآيات ، وقوله« كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ »وأما رحمة الامتنان فهي التي تنال من غير استحقاق بعمل ، وبرحمة الامتنان رحم اللّه من وفقه للعمل الصالح الذي أوجب له الرحمة الواجبة ، فبها ينال العاصي وأهل النار إزالة العذاب ، وإن كان مسكنهم ودارهم جهنم ، وهذه رحمة الامتنان ، فالرحمن في الدنيا والآخرة ، والرحيم اختصاص الرحمة بالآخرة – نصيحة – الزم الاسم المركب من اسمين فإن له حقا

عظيما ، وهو قولك الرحمن الرحيم خاصة ، ما له اسم مركب غيره فله الأحدية ، ومن ذكره بهذا الاسم لا يشقى أبدا

مالك يوم الدين 4

يريد يوم الجزاء فهو يوم الدنيا والآخرة ، فإن الحدود ما شرعت في الشرائع إلا جزاء ،

من كتاب إيجاز البيان في الترجمة عن القرآن:

وبما خلق في الموجودات من الرحمة التي يتعاطفون بها بعضهم على بعض ، وذلك سار في كل حيوان ، وهي لهم من باب المنة ، ومن حكم هذه الرحمة اجترأ من اجترأ على مخالفة أوامر اللّه من المؤمنين ، فإنهم لا يقنطون من رحمة اللّه ، قال تعالى« يا عِبادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلى أَنْفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً »وفي حديث الشفاعة يقول اللّه : وبقي أرحم الراحمين ، فأتى بنعت الرحمة ، ومن رحمته تلقين عبده حجته« يا أَيُّهَا الْإِنْسانُ ما غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ ؟ »ليقول له العبد : كرمك ، فيلطف به ، فلو قال : الشديد العقاب ، ذهل وتحير ، وقد يمكن أن يجري« الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ »مجرى الاسم الواحد المركب ، مثل بعلبك ورام هرمز ، لما قيل في مسيلمة رحمان اليمامة ، ولم يطلق على أحد قط مجموع الاسمين ، وقد يكون الرحيم مبالغة في رحمته بعباده السعداء ، فإن رحمته قد خصها بقوله(فَسَأَكْتُبُها لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ)أي أوجبها على نفسي لهم(كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ)الآية ، فهؤلاء يأخذونها من طريق الوجوب لقيام الأسباب التي جعلها الحق موجبة لها بهم ، ومن عدا هؤلاء فينتظرونها من باب المنة ، فإن التقييد من صفة الخلق لا من صفة الحق ، حتى إن إبليس يطمع فيها من باب المنة ، إذ لا مكره له ، وإن دخلوا النار ، يقول العبد في الصلاة(الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ)يقول اللّه أثنى عليّ عبدي ، فهو قولنا إن أسماءه لا تجري مجرى الأعلام . (4)« مالِكِ يَوْمِ الدِّينِ »يقول : مالك يوم الجزاء ، وهو يوم الدنيا

ص 27

وما أصابت المصائب من أصابته إلا جزاء بما كسبت يده ، مع كونه يعفو عن كثير ، وكذلك ما ظهر من الفتن والخراب والحروب والطاعون ، فهو كله جزاء أعمال عملها الناس ، استحقوا بذلك ما ظهر من الفساد في البر والبحر فهو جزاء في الدنيا ، فيوم الدنيا يوم الجزاء ويوم الآخرة هو يوم الجزاء ، غير أنه في الآخرة أشد وأعظم ، لأنه لا ينتج أجرا لمن أصيب وقد ينتج في الدنيا أجرا لمن أصيب وقد لا ينتج ، ومن الجزاء في الدنيا مجازاة أهل الشقاء بما عملوا من مكارم الأخلاق في الدنيا ، بما أنعم اللّه به عليهم من النعم حتى انقلبوا إلى الآخرة وقد جنوا ثمرة خيرهم في الدنيا ، فلو لم تكن الدنيا دار جزاء ما كان هذا ، فلا اختصاص ليوم الدين بيوم عند العلماء باللّه ، أقام لهم الحق في ذلك دليلا لما جهلوا« ظَهَرَ الْفَسادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِما كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا »فأخبر أنه جزاء ما هو ابتداء ، فما ابتليت البرية وهي برية ، وهذه مسألة صعبة المرتقى لا تنال إلا بالإلقاء ، اختلفت فيها طائفتان كبيرتان (الأشاعرة والمعتزلة) ، فمنعت واحدة ما أجازته أخرى والرسل بما اختلفت فيه تترى ، ولا تحقق واحد ما جاء به الرسول ، ولا يسلك فيه سواء السبيل ، بل ينصر ما قام في غرضه وهو عين مرضه ، إلا الطبقة العليا فإنهم علموا الأمور في الدنيا فلم يتعدوا بالأمر مرتبته ، وأنزلوه منزلته ، فما رأوا في الدنيا أمرا إلا كان جزاء ما كان ابتداء ،

من كتاب إيجاز البيان في الترجمة عن القرآن:

والآخرة ، لأنه المجازي في الدنيا والآخرة ، فأما في الآخرة فمعلوم عند الجميع ، وأما في الدنيا فبما شرع من إقامة الحدود جزاء لأعمال نص عليها ، كالزنا والسرقة والمحاربة وغير ذلك ، وبما شرع من مكافأة المحسن وشكر المنعم ، وبما أخبر عليه السلام من جزاء اللّه تعالى الكافر في الدنيا بما فعله من الخير ، وهذا يدلك على أن الكل مخاطبون بفروع الشريعة ، مؤاخذون بها مجازون عليها ، كما خوطبوا بأصولها سواء ، وأن الشرائع قد عمت جميع الخلق من آدم إلى نبينا محمد صلى اللّه عليهما ، قال تعالى : (وَما كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا)وقال(وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلا فِيها نَذِيرٌ)وقال وَما مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلا طائِرٍ يَطِيرُ بِجَناحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثالُكُمْ) ،وكل نذير من جنس من بعث إليه(وَلَوْ جَعَلْناهُ مَلَكاً لَجَعَلْناهُ رَجُلًا)و(لَوْ كانَ فِي الْأَرْضِ مَلائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنا عَلَيْهِمْ مِنَ

السَّماءِ مَلَكاً رَسُولًا)يعني من جنسهم ، فالجزاء محقق في الدنيا والآخرة ، وقد قال تعالى(ظَهَرَ الْفَسادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِما كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا)وجعله جزاء ، وقال : (وَما أَصابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِما كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ)وهذا هو الجزاء ، فمن خصه بيوم الآخرة فما أعطى الآية حقها ، يقول العبد في الصلاة« مالِكِ يَوْمِ الدِّينِ »يقول اللّه (فوض إليّ
ص 28

والملك على الحقيقة هو الحق تعالى المالك للكل ومصرفه ، وهو الشفيع لنفسه عامة وخاصة ، خاصة في الدنيا وعامة في الآخرة من وجه ما ، ولذلك قدم على قوله« مالِكِ يَوْمِ الدِّينِ »الرحمن الرحيم ، لتأنس أفئدة المحجوبين عن رؤية رب العالمين ، ألا تراه يقول يوم الدين (شفعت الملائكة والنبيون وشفع المؤمنون وبقي أرحم الراحمين) ولم يقل الجبار ولا القهار ليقع التأنيس قبل وجود الفعل في قلوبهم.

إياك نعبد وإياك نستعين 5
إياك نعبد أي لك نقر بالعبودية وحدك لا شريك لك ، فقدم قول إياك نعبد وهو قول العبد المحض بذاته إياك نعبد ، فمن قالها متحققا بعبوديته فقد وفّى حق سيده ، ولم يلتفت إلى نفسه ولا إلى صورة ما خلقه اللّه عليها التي توجب له الكبرياء بل كان عبدا محضا ، ثم قال بالصورة التي خلق عليها« إِيَّاكَ نَسْتَعِينُ »على عبادتك ولا يطلب العون إلا من له نوع تعمّل في العمل ، فيقول وإليك نأوي في الاستعانة لا إلى غيرك ، فبهذه الآية نفى الشريك.

من كتاب إيجاز البيان في الترجمة عن القرآن:
عبدي) وفي رواية (مجدني عبدي) فهو قولنا إن الدين هنا هو الجزاء في الدارين ، فإن التفويض تكليف ومحله الدنيا ، بل لا يصح أن يكون إلا فيها ، وهو أخص من (مجدني عبدي) فإن التمجيد له في الدارين ، وهو الشرف ، والتفويض من العبد لا يكون إلا هنا ،

فإن الآخرة لا يصح فيها تفويض من العباد ، إذ لا دعوى هناك ، بل الأمور كلها مكشوفة للعباد أنها بيد اللّه ، ولا يفوض المفوض إلا ما له فيه تصرف ، وليس ذلك هناك ، فتأمل ، قوله (5)« إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ »أفرد نفسه بالكاف في الموضعين ، لأنه المعبود وحده ، ولا يعبد غيره ، والمطلوب منه ، لأنه المعين وحده بكل وجه ، يؤيد ذلك قوله(وَقَضى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ)والألوهية هي المعبودة من كل معبود ، ولكن أخطئوا في النسبة فشقوا شقاوة الأبد ، وكذلك هو المعين بما يوجده ويخلقه في خلقه من أسباب المعونة ، وجمع عباده بالنون فيهما ، لأن العابدين والمستعينين كثيرون ، سواء كان العابد شخصا واحدا أو ما زاد عليه ، فإن الشخص وإن كان واحدا ، فإن كل عضو فيه ، عليه عبادة ، فصحت الكثرة في الشخص الواحد ، فلهذا له أن يأتي بنون الجماعة.
قال عليه السلام « يصبح على كل سلامي منكم صدقة » وهي العروق ، وقال تعالى(وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلكِنْ لا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ)لسترها عنا ، ولهذا قال في الآية : إِنَّهُ كانَ حَلِيماً
ص 29

اهدنا الصراط المستقيم 6
قرئ الزراط بالزاي وهي لغة وقرأ ابن كثير السراط بالسين وحمزة وباقي القراء بالصاد ، والصراط الذي سألته النفس هنا هو صراط النجاة بالتوحيد والتنزيه الذي سار عليه الذين أنعمت عليهم وهو الشرع هنا ، ولا يزال العبد في كل ركعة من الصلاة يقول« اهْدِنَا الصِّراطَ الْمُسْتَقِيمَ »لأنه أدق من الشعر وأحد من السيف ، وكذا هو علم الشريعة في الدنيا ، لا يعلم الحق في المسألة عند اللّه ولا من هو المصيب من المخطئ بعينه ، ولذلك تعبدنا بغلبة الظنون بعد بذل المجهود في طلب الدليل ، فالنص الصريح أحد من السيف وأدق من الشعر في الدنيا ، والصراط ظهوره في الآخرة محسوس أبين وأوضح من ظهوره في الدنيا ، إلا لمن دعا إلى اللّه على بصيرة كالرسول وأتباعه.

من كتاب إيجاز البيان في الترجمة عن القرآن:

غَفُوراً)والغفر الستر ، وسيأتي الترجمة عنها في موضعها ، كما أنه سبحانه إذا كنى عن نفسه بالنون في مثل (نزلنا) و (خلقنا (و (نحن) فالناس يجعلون ذلك للعظمة ، وليس في الأصل بصحيح ، بل هي على بابها من الجمع في الدلالة ، وغاية من قدر على معناها وقرب أن قال : إذا قال بقوله جماعة لمكانته وشرفه ولا يرد له قول ، فبذلك الاعتبار يكنى بالنون عن الواحد ، وليس كذلك ، ولكنه أقرب الوجوه ، بل الوجه الصحيح أن الكناية هنا عن الأسماء التي عنها تقع الآثار على اختلافها ، وإن جمعتها ذات واحدة ، فهو العالم من حيث كذا ، والقادر من حيث كذا ، والمريد من حيث كذا ، والرازق من حيث كذا ، فكثرت الوجوه والنسب ، فطلبت النون ، ومعنى نعبد نتذلل ، يقال أرض معبدة أي مذللة ، وسمي العبد عبدا لذلته ، يقول العبد في الصلاة« إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ »يقول اللّه (هذه الآية بيني وبينك ، ولعبدي ما سأل) يعني الكاف له والنون للعبد ، والسؤال هنا الاستعانة ، فقد وعد بها ، بل هي له في الوقت ، فإنه لولا معونته ما قام إلى الصلاة ، فليس يطلب إلا استصحاب المعونة ، والذي لنا القيام بالعبودة وطلب المعونة منه ، إذ لا حول ولا قوة إلا باللّه ، والذي له إعطاء المعونة ، وتعيين ما عبد من أجله ، كل على حسب ما ألقي فيه من القصد ، فمن عابد لما تقتضيه الربوبية من التعظيم ، ومن عابد وفاء بحق العبودة والعبودية معا ، ومن عابد طمعا فيما وعد ، ومن عابد حذرا مما أوعد ، وهذا تقتضيه العبودة.

قوله (**6**)« اهْدِنَا الصِّراطَ الْمُسْتَقِيمَ »الآية يقول : بيّن لنا الطريق الموصلة إلى سعادتنا عندك ، إذ كل طريق موصلة إليه ، قال تعالى(وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ)و(أَلا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ)و(ما مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِناصِيَتِها إِنَّ رَبِّي عَلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ)فأتى به نكرة ، لأنه على كل صراط

ص **30**

صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين **7**

صراط الذين أنعمت عليهم من نبي ورسول ، أي الطريق وليس إلا الشرع الذي أنعمت به عليهم وهو الرحمة التي أعطتهم التوفيق والهداية في دار التكليف ، وهي رحمة عناية فكانوا بذلك غير مغضوب عليهم ولا ضالين ، لما أعطاهم اللّه الهداية فلم يحاروا« غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ »نعت للذين أنعمت عليهم وهو نعت تنزيه يقول من غضب

اللّه عليه ، منّ علينا بالرحمة التي مننت بها على أولئك ابتداء من غير استحقاق حتى وصفتهم بأنهم غير مغضوب عليهم ، إذ قد مننت عليهم بالهداية فأزالت الضلالة التي هي الحيرة عنهم ، فمنّ بالذي يزيل ما استحققناه من غضب اللّه ، فيرحمهم اللّه برحمة الامتنان وهي الرحمة الثالثة بالاسم الرحمن ، فيزيل عنهم العذاب ويعطيهم النعيم فيما هم فيه بالاسم الرحيم ، فليس في أم الكتاب آية غضب بل كلها رحمة ، وهي الحاكمة على كل آية في الكتاب لأنها الأم ، فسبقت رحمته غضبه ، وكيف لا يكون ذلك والنسب الذي بين العالم وبين اللّه إنما هو من الاسم الرحمن ، فجعل الرحم قطعة منه فلا تنسب الرحم إلا إليه.

قال صلّى اللّه عليه وسلم : الرحم شجنة من الرحمن من وصلها وصله اللّه ومن قطعها قطعه اللّه ، وما في العالم إلا من عنده رحمة بأمر ما لا بد من ذلك ، فلا بد أن ينال الخلق كلهم رحمة اللّه ، فمنهم العاجل والآجل ، فإن رحمة اللّه سبقت غضبه فهي أمام الغضب ، فلا يزال غضب اللّه يجري في شأوه بالانتقام من العباد حتى ينتهي إلى آخر مداه ، فيجد الرحمة قد سبقته ، فتتناول منه العبيد المغضوب

من كتاب إيجاز البيان في الترجمة عن القرآن:

شهيد ، وجاء في هذا بالتعريف ، فهو صراط مخصوص ، فلذا فسرناه بالصراط المؤدي إلى السعادة ، ولما كان الإنسان تعتريه في أكثر الأوقات الشبه المضلة الصارفة عن طريق العلم باللّه ، من حيث توحيده وما يجب له ، وغير ذلك ، ولا سيما لأرباب الفكر والنظر ، احتاج أن يقول:

بيّن لنا طريق الحق في ذلك ، والمطلوب هنا بالصراط المستقيم الاجتماع منه على إقامة الدين مطلقا ، حتى لا يؤمن ببعض ويكفر ببعض لما ذكرناه ، ونون الجماعة في اهدنا هي النون في نعبد ، وإنما

ص 31

الفقرة الثالثة:

عليهم ، فتنبسط عليهم ويرجع الحكم لها فيهم ، والمدى الذي يعطيه الغضب هو ما بين الرحمن الرحيم الذي في البسملة وبين الرحمن الرحيم الذي بعد قوله« الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعالَمِينَ »فالحمد للّه رب العالمين هو المدى ، فأوله الرحمن الرحيم وانتهاؤه الرحمن الرحيم ، وإنما كان الحمد للّه رب العالمين عين المدى ، فإن في هذا المدى تظهر السراء والضراء ولهذا كان الحمد فيه وهو الثناء ، ولم يقيد بضراء ولا سراء في هذا المدى لأنه يعم السراء والضراء.

فكان رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم يقول في السراء : " الحمد للّه المنعم المفضل" وفي الضراء « الحمد للّه على كل حال«

ويرجو رحمته ويخاف عذابه واستمراره عليه ، فجعل اللّه عقيب« الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعالَمِينَ »قوله« الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ »فالعالم بين هذه الرحمة ورحمة البسملة بما هو عليه من محمود ومذموم ، وهذا تنبيه عجيب من اللّه لعباده ليقوى عندهم الرجاء والطمع في رحمة اللّه فإنه أرحم الراحمين ، فإنه إن لم يزد على عبيده في الرحمة بحكم ليس لهم فما يكون أرحم الراحمين ، وهو أرحم الراحمين بلا شك ، فو اللّه لا خاب من أحاطت به رحمة اللّه من جميع جهاته ، وإذا صحت الحقائق فليقل الأخرق ما شاء ، فإن جماعة نازعوا في ذلك ولولا أن رحمة اللّه بهذه المثابة من الشمول لكان القائلون بمثل هذا لا تنالهم رحمة اللّه أبدا.

الوجه الثاني الفاتحة في الصلاة : الصلاة جامعة بين اللّه والعبد في قراءة فاتحة الكتاب ، ومن هنا يؤخذ الدليل بفرضيتها على المصلي في الصلاة ، فمن لم يقرأها في الصلاة فما صلى الصلاة التي قسمها اللّه بينه وبين عبده ، فإنه ما قال قسمت الفاتحة وإنما قال قسمت الصلاة بالألف واللام اللتين للعهد والتعريف ، فلما فسر الصلاة المعهودة بالتقسيم جعل محل القسمة قراءة الفاتحة ، وهذا أقوى دليل يوجد في فرض قراءة الحمد في الصلاة ، والذي أذهب إليه وجوب قراءة فاتحة الكتاب في الصلاة وإن تركها لم تجزه صلاته ، فقراءة أم القرآن في الصلاة واجبة إن حفظها ، وما عداها ما

من كتاب إيجاز البيان في الترجمة عن القرآن:

قلنا الاجتماع على إقامة الدين لقوله (7)« صِراطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ »يعني من النبيين ، فإنه جعل لكل نبي شرعة ومنهاجا ، وقال تعالى : (شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ ما وَصَّى بِهِ نُوحاً وَالَّذِي أَوْحَيْنا إِلَيْكَ وَما وَصَّيْنا بِهِ إِبْراهِيمَ وَمُوسى وَعِيسى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ)أي في القيام به ، فهذه الصفة هي الجامعة لكل ذي شرع ، وهو قوله تعالى لما ذكر الأنبياء لنبيه صلى اللّه على جميعهم : (أُولئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُداهُمُ اقْتَدِهْ)أي فيما ذكرناه ، لا في فروع الأحكام ، وإن

فيه توقيت ، وينبغي أن يكون العامل في« بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ »(أذكر) فتتعلق الباء بهذا الفعل إن صح الخبر ، يقول العبد« بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ »يقول اللّه « ذكرني عبدي » وإن لم يصح فيكون الفعل أقرأ بسم اللّه ، فإنه ظاهر في« اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ »هذا يتكلفه لقولهم إن المصادر لا تعمل عمل الأفعال إلا إذا تقدمت ، وأما إذا تأخرت فتضعف عن العمل ، وهذا عندنا غير مرضي في التعليل لأنه تحكم من النحوي ، فإن العرب لا تعقل ولا تعلل ، فيكون تعلق البسملة عندي بقوله« الْحَمْدُ لِلَّهِ »بأسمائه فإن اللّه لا يحمد إلا بأسمائه غير ذلك لا يكون ، ولا ينبغي أن نتكلف في القرآن محذوفا إلا لضرورة وما هنا ضرورة.

فإن صح قول رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم عن اللّه تبارك وتعالى إن العبد إذا قال« بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ »في مناجاته في الصلاة يقول اللّه يذكرني عبدي فلا نزاع ، هكذا روي هذا الخبر عن

]الفاتحة في الصلاة[

أبي هريرة عن النبي صلّى اللّه عليه وسلم قال « من صلى صلاة لم يقرأ فيها بأم القرآن فهي خداج ثلاث غير تمام. «

فقيل لأبي هريرة إنا نكون وراء الإمام فقال : اقرأ بها في نفسك فإني سمعت رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم يقول « قال اللّه تعالى قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين ولعبدي ما سأل » ، وذكر مسلم هذا الحديث ولم يذكر البسملة فيه ، فمن عبيد اللّه من يسمع ذلك القول بسمعه ، فإن لم تسمعه بسمعك فاسمعه إيمانا به فإنه أخبر بذلك ، فمن الأدب الإصغاء ، وهي السكتات بين الآيات في الصلاة.

فإذا قال العبد« بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ »علق الباء بما في الحمد من معنى الفعل كما قلنا يقول لا يثنى على اللّه إلا بأسمائه الحسنى ، فذكر من ذلك ثلاثة أسماء : الاسم اللّه لكونه جامعا غير مشتق ، فينعت ولا ينعت به فإنه للأسماء كالذات للصفات فذكره أولا من حيث أنه دليل على الذات ، كالأسماء الأعلام كلها في اللسان وإن لم يقو قوة الأعلام لأنه وصف للمرتبة كاسم السلطان ، فلما لم يدل إلا على

من كتاب إيجاز البيان في الترجمة عن القرآن:
ظهر في شرعنا من فروع شرع من قبلنا ، فمن حيث هو شرع لنا ، وقد يقع الاتفاق في بعض الأحكام كالتوحيد والإيمان بالآخرة وما فيها ، لا ينكر ذلك ، وكلا الصراطين معرّفة ، فالتعريف للصراط بالإضافة أخرج الصراط المستقيم من حكم ما تعطيه الألف واللام من استغراق الجنس إلى حكم ما تعطيه من العهد ، وقوله (7)« غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ »يعني المرضي عنهم (7)« وَلَا الضَّالِّينَ »يعنى المهتدين ، ولذا قال : اهدنا كما هديت هؤلاء ، فهما نعتان للذين أنعمت عليهم ،
ص 33

الذات المجردة على الإطلاق من حيث ما هي لنفسها من غير نسب لم يتوهم في هذا الاسم اشتقاق ، ولهذا سميت بالبسملة وهو قولك الاسم مع اللّه أي قولك بسم اللّه خاصة ، ثم قال بعد« بِسْمِ اللَّهِ »« الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ »من حيث ما هو أعني« الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ »من الأسماء المركبة كمثل بعلبك ورام هرمز ، فسماه به من حيث ما هو اسم له لا من حيث المرحومين ولا من حيث تعلق الرحمة بهم ، بل من حيث ما هي صفة له جل جلاله فإنه ليس لغير اللّه ذكر في البسملة أصلا ، فإذا قال العبد« بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ« قال اللّه تعالى « ذكرني عبدي » وما قيد هذا الذكر بشيء لاختلاف أحوال الذاكرين أعني البواعث لذكرهم ، فذكر تبعثه الرغبة وذكر تبعثه الرهبة وذكر يبعثه التعظيم والإجلال ، فأجاب الحق على أدنى مراتب العالم وهو الذي يتلو بلسانه ولا يفهم بقلبه ، لأنه لم يتدبر ما قاله إذا كان التالي عالما باللسان ولا ما ذكره ، فإن تدبر تلاوته أو ذكره كانت إجابة الحق له بحسب ما حصل في نفسه من العلم بما تلاه ، فإن اللّه يقول عند قراءة العبد

القرآن كذا جوابا على حكم الآية ، فينبغي للإنسان إذا قرأ الآية أن يستحضر في نفسه ما تعطيه تلك الآية على قدر فهمه ، فإن الجواب يكون مطابقا لما استحضرته من معاني تلك الآية ، ولهذا ورد الجواب على أدنى مراتب العامة مجملا ، إذا العامي والعجمي الذي لا علم له بمعنى ما يقرأ يكون قول اللّه له ما ورد في الخبر ، فإن فصّلت في الاستحضار فصل اللّه لك الجواب ، فعلى هذا القدر في القراءة تتميز مراتب العلماء باللّه والناس في صلاتهم.

ثم قال : قال اللّه تعالى فإذا قال العبد« الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعالَمِينَ »في الصلاة يقول اللّه « حمدني عبدي » والحمد للّه رب العالمين يعني العبد أن عواقب الثناء ترجع إلى اللّه ، ومعنى عواقب الثناء أي كل ثناء يثنى به على كون من الأكوان دون اللّه فعاقبته ترجع إلى اللّه لا لذلك الكون ، فرجعت عواقب الثناء إلى اللّه ومن وجه آخر إذا نظر إلى موضع اللام من قوله« لِلَّهِ »يرى أن الحامد عين المحمود لا غيره فهو الحامد المحمود ، وينفي الحمد عن الكون من كونه حامدا ونفى كون الكون محمودا ، فالكون من وجه محمود لا حامد ، ومن وجه لا حامد ولا محمود ، وأما كونه غير حامد فإن الحمد فعل والأفعال للّه ، وأما كونه غير محمود فإنما يحمد المحمود بما هو له لا لغيره والكون لا شيء

من كتاب إيجاز البيان في الترجمة عن القرآن:

وهو من أسماء النواقص ، يقول العبد في الصلاة« اهْدِنَا الصِّراطَ الْمُسْتَقِيمَ صِراطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ

ص 34

له فما هو محمود أصلا ، وجاء قوله تعالى« رَبِّ الْعالَمِينَ »بالاسم الرب على ما يعطيه من الثبات والإصلاح والتربية والملك والسيادة ، فهذه الخمسة يطلبها الاسم الرب ، ويحضر القارئ ما يعطيه العالم من الدلالة عليه تعالى ، فلا يكون جواب اللّه في قوله « حمدني عبدي » إلا لمن حمده بأدنى المراتب ، لأنه لكرمه يعتبر الأضعف الذي لم يجعل اللّه له حظا في العلم به تعالى رحمة به ، لعلمه أن العالم يعلم من سؤاله أو قراءته ما حضر معه

في تلك القراءة من المعاني ، فيجيبه اللّه على ما وقع له ويدخل في إجمال ما خاطب به عبده العامي القليل العلم ، أو الأعجمي الذي لا علم له بمدلول ما يقرؤه.

ثم قال يقول العبد« الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ »يقول اللّه « أثنى علي عبدي » فإن قلت لم اختصت الرحمة بالثناء قلنا لأنه لا يثنى عليه إلا بما هو عليه ولا يثنى عليك إلا بما تعطيك حقيقتك ، فإذا رحمك ردك إلى عبوديتك واعتقدت أن الربوبية له وحده سبحانه ، فكل من أثني عليه بوصف مشترك فما أثني عليه ، إنما ينبغي أن يثنى على الموجود بما لا يقع فيه المشاركة ، فإذا رحمك منّ عليك بثناء تنفرد به ، ومتى أشركت معه غيره في الثناء فما خصصته بل شركته بغيره.

فيقول اللّه « أثنى علي عبدي » يعنى بصفة الرحمة لاشتقاق هذين الاسمين منها ، ولم يقل في ما ذا لعموم رحمته ، ولأن العامي ما يعرف من رحمة اللّه به إلا إذا أعطاه ما يلائمه في غرضه وإن ضره ، أو ما يلائم طبعه ولو كان فيه شقاؤه .

أما العالم إذا قال« الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ »فإنه يحضر في نفسه مدلول هذا القول من حيث ما هو الحق موصوف به ، ومن حيث ما يطلبه المرحوم لعلمه بذلك كله ، ويحضر في قلبه أيضا عموم رحمته الواحدة المقسمة على خلقه في الدار الدنيا ، إنسهم وجنهم ومطيعهم وعاصيهم وكافرهم ومؤمنهم وقد شملت الجميع ، ورأى أن هذه الرحمة الواحدة لو لم تعط حقيقتها من اللّه أن يرزق بها عباده من جماد ونبات وحيوان وإنس وجان ولم يحجبها عن كافر ومؤمن ومطيع وعاص عرف أن ذاتها من كونها رحمة تقتضي ذلك ، ثم جاء الوحي من أثر هذه الرحمة الواحدة بأن هذه الرحمة الواحدة السارية في العالم التي اقتضت حقيقتها أن تجعل الأم تعطف على ولدها من جميع الحيوان ، وهي واحدة من مائة رحمة ، وقد ادخر سبحانه لعباده في الدار الآخرة تسعا وتسعين رحمة ، فإذا كان يوم القيامة ونفذ في العالم حكمه وقضاؤه وقدره بهذه الرحمة الواحدة ، وفرغ الحساب ونزل الناس منازلهم من الدارين ، أضاف سبحانه هذه الرحمة إلى التسع والتسعين رحمة فكانت

من كتاب إيجاز البيان في الترجمة عن القرآن:

عليهم » إلى آخر السورة ، يقول اللّه : هؤلاء لعبدي ولعبدي ما سأل ، فقد ضمن الإجابة.

مائة ، فأرسلها على عباده مطلقة في الدارين فسرت الرحمة فوسعت كل شيء ، فمنهم من وسعته بحكم الوجوب ، ومنهم من وسعته بحكم الامتنان ، فوسعت كل شيء في موطنه وفي عين شيئيته ، وقد كان الحكم في الدنيا بالرحمة الدنيا ما قد علمتم ، وهي الآن أعني بالآخرة من جملة المائة فما ظنك ، ثم قال يقول العبد« مالِكِ يَوْمِ الدِّينِ »يقول اللّه « مجدني عبدي » واختص الملك بالتمجيد لتصحيح التوحيد ، فأراد بالتمجيد التشريف بالوحدانية في الألوهية ، فلا إله إلا هو ، وفي رواية « فوض إلي عبدي. «
فالعالم يجب أن لا يقصر يوم الدين على الآخرة ، ويرى أن الرحمن الرحيم لا يفارقان ملك يوم الدين فإنه صفة لهما ، فيكون الجزاء دنيا وآخرة ، وكذلك ظهر بما شرع من إقامة الحدود وظهور الفساد في البر والبحر بما كسبت أيدي الناس ليذيقهم بعض الذي عملوا لعلهم يرجعون ، وهذا هو عين الجزاء ، فيوم الدنيا أيضا يوم الجزاء واللّه ملك يوم الدين ، فالكفارات سارية في الدنيا ، والإنسان في الدار الدنيا لا يسلم من أمر يضيق به صدره يؤلمه حسا وعقلا حتى قرصة البرغوث والعثرة ، فالآلام محدودة موقتة ورحمة اللّه غير موقتة ، فإنها وسعت كل شيء ، فمنها تنال وتحكم من طريق الامتنان وهو أصل الأخذ لها ، ومنها ما يؤخذ من طريق الوجوب الإلهي في قوله« كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ« وقوله« فَسَأَكْتُبُها » ،فأناس يأخذونها جزاء ، وبعض المخلوقات من المكلفين تنالهم امتنانا حيث كانوا ، فكل ألم في الدنيا والآخرة فإنه مكفر لأمور قد وقعت محدودة موقتة ، وهو جزاء لمن يتألم به من صغير وكبير بشرط تعقل التألم لا بطريق الإحساس بالتألم دون تعقله ، فالرضيع لا يتعقل التألم مع الإحساس به ، إلا أن أباه وأمه وأمثالهما من محبيه وغير محبيه يتألم ويتعقل التألم لما يرى في الرضيع من الأمراض النازلة به ، فيكون ذلك كفارة لمن تعقل الألم ، فإذا زاد ذلك العاقل الترحم به كان مع التكفير عنه مأجورا ، إذ في كل كبد رطبة أجر ، وأما الصغير إذا تعقل التألم وطلب النفور عن الأسباب الموجبة للألم واجتنبها ، فإن له كفارة فيها لما صدر منه مما آلم به غيره من حيوان أو شخص آخر من جنسه ، فإذا تألم الصغير كان ذلك الألم القائم به جزاء مكفرا ، حتى الإنسان يتألم بوجود الغيم ويضيق صدره به ، فإنه كفارة لأمور آتاها قد نسيها أو يعلمها.

فهذا كله من بعض ما يدل عليه« مالِكِ يَوْمِ الدِّينِ »فيقول اللّه « فوض إلي عبدي » أو " مجدني عبدي " أي جعل لي الشرف عليه كما هو الأمر في نفسه ، فهو الحق الذي له المجد بالأصالة ، فله تعالى المجد

من كتاب إيجاز البيان في الترجمة عن القرآن:
تنبيه : وإن كان النصف الأول له فقد جاء فيه ذكر العالمين ، وجاء في النصف الذي لنا ذكره
ص 36

والشرف على العالم في الدنيا والآخرة ، لأنه جازاهم على أعمالهم في الدنيا والآخرة ، فيوم الدين هو يوم الجزاء ، أو يقول اللّه كلاهما ، إلا أن التمجيد راجع إلى جناب الحق من حيث ما تقتضيه ذاته ومن حيث ما تقتضي نسبة العالم إليه ، والتفويض من حيث ما تقتضي نسبة العالم إليه لا غير ، فإنه وكيل لهم بالوكالة المفوضة ، ففي حق قوم يقول « مجدني عبدي وفيّ المقصد » وفي حق قوم يقول « فوض إلي عبدي وفي المقصد أيضا » وفي حق قوم يقول « مجدني عبدي وفوض إلي عبدي » ، فإن العبد قد يجمع بين المقصدين فيجمع اللّه له في الرد بين التمجيد والتفويض – وإلى هنا – فهذا النصف كله مخلص لجناب اللّه ليس للعبد فيه اشتراك – ثم قال اللّه يقول العبد« إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ »يقول اللّه هذه بيني وبين عبدي ولعبدي ما سأل ، فهذه الآية تتضمن سائلا ومسؤولا مخاطبا وهو الكاف من إياك فيهما ، ونعبد ونستعين هما للعبد فإنه العابد والمستعين.
فإذا قال العبد« إِيَّاكَ »وحد بحرف الخطاب بجعله مواجها لا على جهة التحديد ، ولكن امتثالا لقول الشارع لمثل ذلك السائل في معرض التعليم حين سأله عن الإحسان فقال له صلّى اللّه عليه وسلم « أن تعبد اللّه كأنك تراه » ، فلا بد أن تواجهه بحرف الخطاب وهو الكاف ، فهذه الآية وقع فيها الاشتراك بين الحق وبين عبده ، وما مضى من الفاتحة مخلص للّه وما بقي منها مخلص للعبد ، وهذه التي نحن فيها مشتركة ووقع الاشتراك من العبادة والعون لتتميز القدرة من عجز الكون ، فهو سبحانه المقصود بالعبادة ، والعبد

العابد ، وهو المقصود بالاستعانة ، والعبد المستعين ، فالاشتراك في الآية كلمة للرب وكلمة للعبد ، وإنما وحّده ولم يجمعه لأن المعبود واحد ، وجمع نفسه بنون الجمع في العبادة والعون المطلوب لأن العابدين من العبد كثيرون ، وكل واحد من العابدين يطلب العون والمقصود بالعبادات واحد ، فعلى العين عبادة وعلى السمع عبادة وعلى البصر واللسان واليد والبطن والفرج والرجل والقلب فلهذا قال نعبد ونستعين بالنون ، فإذا نظر العالم إلى تفاصيل عالمه وأن الصلاة قد عم حكمها جميع حالاته ظاهرا وباطنا لم ينفرد بذلك جزء عن آخر ، فجميع عالمه قد اجتمع على عبادة ربه وطلب العون منه على عبادته ، فجاء بنون الجماعة في نعبد ونستعين فترجم اللسان عن الجماعة ، كما يتكلم الواحد من الوفد بحضورهم بين يدي الملك ، فعلم العبد من الحق لما أنزل عليه هذه الآية بإفراده نفسه أن

من كتاب إيجاز البيان في الترجمة عن القرآن:
سبحانه في أنعمت بضمير المخاطب ، وإنما أتى بضمير المخاطب ، ولو أتى باسم ظاهر ، تخيل أن

ص 37

لا يعبد إلا إياه ، ولما قيد العبد بالنون أنه يريد منه أن يعبده بكله ظاهرا وباطنا من قوى وجوارح ويستعين على ذلك الحد ، ومتى لم يكن المصلي بهذه المثابة من جمع عالمه على عبادة ربه لم يصدق في قوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾.
وهو مشغول في الالتفات ببصره والإصغاء إلى حديث الآخرين ، مشغول بخاطره في دكانه أو تجارته ، ثم قال اللّه يقول العبد: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾.
فيقول اللّه: "هؤلاء لعبدي ولعبدي ما سأل"، فيسأل العبد اللّه أن يهديه الصراط المستقيم ، وأن يبينه له وأن يوفقه إلى المشي عليه ، وهو صراط التوحيد توحيد الذّات وتوحيد المرتبة التي هي الألوهية بلوازمها من الأحكام المشروعة التي هي من الإسلام في قوله –

صلّى اللّه عليه وسلم–: "إلّا بحق الإسلام وحسابهم على اللّه"، فهو الصراط المستقيم الذي هو عليه الرب ، من حيث ما يقود الماشي عليه إلى سعادته.

ولهذا قال: ﴿صِراطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾، يريد الذين وفقهم اللّه وهم العالمون كلّهم أجمعهم ، والصّالحون من الإنس مثل الرّسل والأنبياء والأولياء وصالحي المؤمنين من الجان ، كذلك لم يجعل الصراط المستقيم إلا لمن أنعم اللّه عليهم من نبي وصديق وشهيد وصالح ، وكل دابة هو آخذ بناصيتها.

﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾، أي لا من غضب اللّه عليهم لما دعاهم بقوله: « حيّ على الصّلاة »، فلم يجيبوا: ﴿وَلَا الضَّالِّينَ﴾، فاستثنى بالعطف من حار ، وهم أحسن حالا من المغضوب عليهم ، فمن لم يعرف ربه وأشرك معه في ألوهيته من لا يستحق أن يكون إلها كان من المغضوب عليهم ، فإذا أحضر العبد مثل هذا وأشباهه في نفسه عند تلاوته قالت الملائكة: « آمين » ويقول العبد « آمين. «

فمن وافق تأمينه تأمين الملائكة في الصفة ، موافقة طهارة وتقديس ذوات ، كرام برزة ، أجابه الحق عقيب قوله « آمين » ، أي أمنا بالخير ، فمن وافق تأمينه تأمين الملائكة غفر له ، « وآمين » كلمة شرعت بعد الفراغ من الفاتحة لما فيها من السؤال ، وهو قوله« اهْدِنَا »وهي أي آمين تقصر وتمد ، وورد في الشرع الجهر بها والإخفاء ، لأن الأمر ظاهر وباطن ، فالباطن يطلب الإخفاء والظاهر يطلب الجهر ، غير أن الظاهر أعم ، فإذا جهر بها حصل حظ الباطن ، وإذا أسر بها لم يعلم الظاهر ما جرى ، فالجهر بها عام لعام وخاص وأعم منفعة ، والسر بها أتم مقاما من الجهر بها ، وآمين معناها أجب دعاءنا ، لا بل معناه قصدنا إجابتك فيما دعوناك فيه ، يقال أمّ فلان جانب فلان إذا قصده ، وخفف آمين للسرعة المطلوبة في الإجابة ، والخفة

من كتاب إيجاز البيان في الترجمة عن القرآن:

الأمر مربوط بما تعطيه حقيقة ذلك الاسم ، ونسبة الأسماء إلى الضمير نسبة واحدة ، كما أنه أتى

ص 38

تقتضي الإسراع في الأشياء ، فمن وافق تأمينه تأمين الملائكة فقد غفر له ، ولم يقل فقد أجيب لما غفر له ، لأن المهدي ما له ما يغفر ، أي فمن أمن مثل تأمين الملائكة ، هذا معنى الموافقة لا الموافقة الزمانية ، وقد تكون الموافقة الزمانية فيحويهم زمان واحد عند قولهم آمين ، والملائكة لا يخلو قولها في آمين هل يقولونها متجسدين أو يقولونها غير متجسدين ، فإن قالتها متجسدين فربما يريد الموافقة الزمانية خاصة ، لأن التجسد يحكم عليها بالإتيان بلفظة آمين أي بترتيب هذه الحروف ، وإن قالتها غير متجسدة فلم تبق الموافقة إلا أن يقولها العبد بالحال التي يقولها الملك ، فإذا قالها غفر اللّه له ، ولا بد أن يستره عن كل أمر يضاد الهداية بما تنتج ، لا بد من ذلك ، لأن نتيجة الهداية سعادة ، وقد يكون في حياته الدنيا غير مهدي والعناية قد سبقت فيجني ثمرة الهداية ، فلهذا لم يقل أجيب وقال غفر فهذا معنى قول آمين فحصلت الإجابة بالأمن مع تأمين الملائكة ، فيجب قراءة الفاتحة على كل مصل من إمام وغير إمام.

وليس للمأموم أن يسبق إمامه بشيء من أفعال الصلاة ، ولا من أقوالها حتى في قراءة الفاتحة ، ليس له أن يشرع فيها إذا جهر بها حتى يفرغ منها أو يتبع سكتات الامام فيها ، فيقرأ ما فرغ الإمام منها في سكتة الإمام ، وفي صلاة السر يقرؤها بحسب ما يغلب على ظنه ، إلا في الصلاة بعد الجلسة الوسطى فإنه يقرؤها ابتداء ، فقراءة الفاتحة لا بد منها لكل مصل ، فإن اللّه قسم الصلاة بينه وبين عبده وما ذكر إلا الفاتحة لا غير ، فمن لم يقرأها فما صلى الصلاة المشروعة التي قسمها اللّه بينه وبين عبده ، وينبغي للعبد أن يقرأ سورة الفاتحة من غير أن تتقدمه روية فيما يقرأ من السور أو الآيات من سورة واحدة أو من سور ، فإذا فرغ المصلي من قراءة الفاتحة قرأ ما تيسر له من القرآن وما يجري اللّه على لسانه منه من غير أن يختار آية معينة أو يتردد ، والسنة إتمام السورة.

في الخبر الصحيح يقال لقارئ القرآن يوم القيامة اقرأ وارق فإن منزلتك عند آخر آية تقرأ – همة عالية شريفة – روى الشيخ محي الدين ابن العربي عن شيخه المقرئ أبي بكر محمد بن خلف بن صاف اللخمي ، من مشايخ القراءات بجامع قوس الحنية بإشبيلية ، عن بعض المعلمين من الصالحين ، أن شخصا صبيا صغيرا كان يقرأ عليه القرآن ، فرآه مصفر اللون فسأل عن حاله فقيل له إنه يقوم الليل بالقرآن كله.

فقال له يا ولدي أخبرت أنك تقوم الليل بالقرآن كله ، فقال هو ما قيل لك ، فقال يا ولدي إذا كان في هذه الليلة فأحضرني في قبلتك ، واقرأ عليّ القرآن في صلاتك ولا تغفل عني ، فقال

من كتاب إيجاز البيان في الترجمة عن القرآن:
بالعالمين ، وما ذكر عالما مخصوصا ، حتى لا يخرج من العالم أحد ، فالعالم مفتقر إلى حقائق الأسماء

ص 39

الفقرة الرابعة:
الشاب نعم فلما أصبح قال له هل فعلت ما أمرتك به ؟
قال نعم يا أستاذ ، قال وهل ختمت القرآن البارحة ؟
قال لا ما قدرت على أكثر من نصف القرآن ،
قال يا ولدي هذا حسن إذا كان في هذه الليلة فاجعل من شئت من أصحاب رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم أمامك ، الذين سمعوا القرآن من رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم ، واقرأ عليه واحذر فإنهم سمعوه من رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم فلا تزل في تلاوتك ، فقال إن شاء اللّه يا أستاذ كذلك أفعل ، فلما أصبح سأله الأستاذ عن ليلته فقال:
يا أستاذ ما قدرت على أكثر من ربع القرآن ،
فقال : يا ولدي أتل هذه الليلة على رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم الذي أنزل عليه القرآن ، واعرف بين يدي من تتلوه ، فقال نعم ، فلما أصبح قال:
يا أستاذ ما قدرت طول ليلتي على أكثر من جزء من القرآن أو ما يقاربه ،
فقال يا ولدي إذا كان هذه الليلة فلتكن تقرأ القرآن بين يدي جبريل ، الذي نزل به على قلب محمد صلّى اللّه عليه وسلم ، فاحذر واعرف قدر من تقرأ عليه ، فلما أصبح قال ، يا أستاذ ما قدرت على أكثر من كذا وذكر آيات قليلة من القرآن ،

قال يا ولدي إذا كان هذه الليلة فتب إلى اللّه وتأهب واعلم أن المصلي يناجي ربه ، وأنك واقف بين يديه تتلو عليه كلامه.

فانظر حظك من القرآن وحظه وتدبر ما تقرأ ، فليس المراد جمع الحروف ولا تأليفها ، ولا حكاية الأقوال ، وإنما المراد بالقراءة التدبر لمعاني ما تتلوه ، فلا تكن جاهلا ، فلما أصبح انتظر الأستاذ الشاب فلم يجئ إليه فبعث من يسأل عن شأنه فقيل له إنه أصبح مريضا يعاد ، فجاء إليه الأستاذ فلما أبصره الشاب بكى

وقال : يا أستاذ جزاك اللّه عني خيرا ، ما عرفت أني كاذب إلا البارحة ، لما قمت في مصلاي وأحضرت الحق تعالى وأنا بين يديه أتلو عليه كتابه ، فلما استفتحت الفاتحة ووصلت إلى قوله« إِيَّاكَ نَعْبُدُ »ونظرت إلى نفسي فلم أرها تصدق في قولها ، فاستحييت أن أقول بين يديه« إِيَّاكَ نَعْبُدُ »وهو يعلم أني أكذب في مقالتي.

فإني رأيت نفسي لاهية بخواطرها عن عبادته ، فبقيت أردد القراءة من أول الفاتحة إلى قوله« مالِكِ يَوْمِ الدِّينِ »ولا أقدر أن أقول« إِيَّاكَ نَعْبُدُ »إنه ما خلصت لي ، فبقيت أستحي أن أكذب بين يديه تعالى فيمقتني ، فما ركعت حتى طلع الفجر وقد رضت كبدي ، وما أنا إلا راحل إليه على حالة لا أرضاها من نفسي ، فما انقضت ثالثة حتى مات الشاب ، فلما دفن أتى الأستاذ إلى قبره فسأله عن حاله ، فسمع صوت الشاب من قبره وهو يقول له » : يا أستاذ

من كتاب إيجاز البيان في الترجمة عن القرآن:

الإلهية كلها ، وأيضا لو أتى به مضمرا ، لم يجد الضمير على من يعود ، والتاء تجد على من تعود ،

ص 40

أنا حي عند حي لم يحاسبني بشيء«

قال فرجع الأستاذ إلى بيته ولزم فراشه مريضا مما أثر فيه حال الفتى فلحق به.

فمن قرأ« إِيَّاكَ نَعْبُدُ »على قراءة الشاب فقد قرأ – نصيحة –إذا كان اللّه المعين فلا تبال فإنه لا يقاومه شيء.

بل هو القادر على كل شيء ، فما ثم مع الإعانة الإلهية قوة تقاوى قوة الحق ، فإن اللّه يقول فيمن سأله الإعانة « ولعبدي ما سأل » في الخبر الصحيح ، فإذا قال العبد« إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ »يقول اللّه : هذه الآية بيني وبين عبدي ولعبدي ما سأل.

وإذا قال« اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ »إلى آخر السورة – وهدايته من معونته – يقول اللّه : هؤلاء لعبدي ولعبدي ما سأل ، وخبره صدق وقد قال : ولعبدي ما سأل ، فلا بد من إعانته.

ولكن هنا شرط لا يغفل عنه العالم إذا تلا مثل هذا لا يتلوه حكاية ، فإن ذلك لا ينفعه فيما ذهبنا إليه ، وفيما أريد له وإنما اللّه تعالى ما شرع له أن يقرأ القرآن ويذكره بهذا الذكر إلا ليعلمه كيف يذكره ، فيذكره ذكر طلب واضطرار وافتقار وحضور في طلبه من ربه ما شرع له أن يطلبه ، فذلك هو الذي يجيبه الحق إذا سأله ، فإن تلا حكاية فما هو سائل ، وإذا لم يسأل وحكى السؤال فإن الحق لا يجيب من هذه صفته ، ولا جرم أن التالين الغالب عليهم الحكاية لا ثمرة عندهم ، فهم يقرءون القرآن بألسنتهم لا يجاوز تراقيهم ، وقلوبهم لاهية في حال التلاوة وفي حال سماعه ، فالمؤمن المخلوق يستعين بالمؤمن الخالق ، فيشد منه ويقوي ما ضعف عنه من كونه مخلوقا.

إشارة :

ما أحسن الإشارة في كون اللّه ما ختم القرآن العظيم الذي هو الفاتحة إلا بأهل الحيرة وهو قوله« وَلَا الضَّالِّينَ »والضلالة الحيرة ، ثم شرع عقيبها آمين أي أمنا بما سألناك فيه ، فإن غير المغضوب عليهم ولا الضالين نعت للذين أنعمت عليهم ، وهو نعت تنزيه ، ومن علم أن الغاية هي الحيرة فما حار ، بل هو على نور من ربه ، إذ الحيرة هي الانتهاء وما بيد العالم باللّه من العلم باللّه سواها.

)راجع معنى الحيرة في كتابنا الرد على ابن تيمية ص 50 – ومعنى الضالين في كتابنا شرح كلمات الصوفية ص 402(

إشارة:

في قسمة الفاتحة ، العبودية الواضحة ، واختصت الرحمة بالثنا ، ليتبين من أنت (الحق) ومن أنا ، والملك بالتمجيد ، لتصحيح التوحيد ، ووقع الشرك في العبادة والعون ، لتتميز القدرة من عجز الكون ، واختص العبد بنصفها الثاني ، ليصح عليها اسم المثاني ، فإن قلت قد ساوى موسى لمحمد في الفرقان فكيف

من كتاب إيجاز البيان في الترجمة عن القرآن:
لأنه قد تقدم.
ص 41

صحت له السيادة ، قلنا لاختصاصه بالقرآن والعبادة ، فإن قلت قد شاركه في العبودية ، نوح وزكريا الوجيه ، قلنا : الواحد عبد نعمة ، والآخر عبد ربوبية ، ومحمد عبد تنزيه ، فإن قلنا قد شاركه يحيى في السيادة الفاخرة ، قلنا تلك السيادة الظاهرة ، ولهذا صرح بها في الكتاب المبين ، وأخفى فيه سيادة محمد سيد العالمين ، ثم صرح بها على لسانه في الشاهدين ، فهذا سيد عموم ، وهذا سيد رسوم.

(2)

سورة البقرة

مدنية

)2(سورة البقرة مدنية

بسم الله الرّحمن الرّحيم

سمّيت سورة البقرة وآل عمران الزّهراويْن، وورد أنّهما يأتيان يوم القيامة صورة قائمة، ولهما عينان ولسانان وشفتان، يشهدان لمَن قرأهما بحقّ.

سورة البقرة (2) : آية 1

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ
ألم (1(
]الحروف [
اعلم –وفقنا اللّه وإيّاكم– أنّ الحروف أمّة من الأمم مخاطبون ومكلّفون ، وفيهم رسل من

من كتاب إيجاز البيان في الترجمة عن القرآن:
بسم الله الرحمن الرحيم
قوله بسم اللّه الرحمن الرحيم آية من هذه السورة ، والباء من بسم اللّه متعلقة بما في المتّقين من معنى الفعل ، كأنه يقول: « الذين اتقوا اللّه بأسمائه ».
وإن شئت علّقتها بفعل أمر محذوف ، وهو قولك « اقرأ بسم اللّه » لا ينبغي أن يضمر له غير ذلك ، وإن كان يجوز ، ولكن اتباع اللّه فيما أوحى به أولى.
قال –تعالى–: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾، فالعالم الأديب لا يضمر إلّا هذا الفعل على هذه الصّيغة ، فأمّا ما يتضمّنه من الرّحمة ، فهو رحمته –سبحانه– بمحمّد –عليه السّلام– بالكتاب الذي أنزله عليه حين سأل الكفار إنزاله.
فقالوا: ﴿وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى تُنَزِّلَ عَلَيْنا كِتاباً نَقْرَؤُهُ﴾، فأعطاه الأمرين المعراج والقرآن.

فقال له »ألم « ذلك الكتاب الذي سألوه منك هو هذا الكتاب لا شك فيه ، فهذا من أثر الرحمة من)بسم الله الرحمن الرحيم(
ص 42

جنسهم ولهم أسماء من حيث هم ، وهم عوالم ولكل عالم رسول من جنسهم ، ولهم شريعة تعبدوا بها ، ولهم لطائف وكثائف ، وعليهم من الخطاب الأمر ليس عندهم نهي ، وفيهم عامة وخاصة وخاصة الخاصة وصفاء خلاصة خاصة الخاصة ، وحروف أوائل السور من الخاصة التي فوق العامة ، ولا يعرف حقيقة مبادئ السور المجهولة.
الا أهل الصور المعقولة]هم الذين لهم حظ من خلق اللّه آدم على صورته ، وهم الذين وصلوا مرتبة الكمال والخلافة [وجعل تبارك وتعالى أوائل السور تسعا وعشرين سورة ، وهو كمال الصورة ، كما قدر منازل القمر ، وجعل الحروف على تكرارها ثمانية وسبعين حرفا ، فلا يكمل عبد أسرار الإيمان حتى يعلم حقائق هذه الحروف في سورها .
قال عليه السلام » : والإيمان بضع وسبعون شعبة « كما أنه إذا علمها من غير تكرار علم تنبيه اللّه فيها على حقيقة الإيجاد وتفرد القديم سبحانه بصفاته الأزلية ، ثمّ إنّه سبحانه جعل أولها الألف في الخط ، والهمزة في اللفظ ، وآخرها النّون.
فالألف لوجود الذات على كمالها لأنها غير مفتقرة إلى حركة ، والنون لوجود الشطر من العالم وهو عالم التركيب ، وذلك نصف الدائرة الظاهرة لنا من الفلك ، والنصف الآخر النون المعقولة عليها ، التي لو ظهرت للحسّ وانتقلت من عالم الروح لكانت دائرة محيطة ، ولكن أخفى هذه النون الروحانية – التي بها كمال الوجود – وجعلت نقطة النون المحسوسة دالة عليها.
فالألف كاملة من جميع وجوهها والنون ناقصة ، وجعلت هذه الحروف على أفراد في بعض السور مثل « ص ، ق ، ن » وثنيت في « طس ، طه » وأخواتها.
وجمعت في ثلاثة فصاعدا حتى بلغت خمسة حروف متصلة ومنفصلة ولم تبلغ أكثر ، ولا يعرف هذا العلم الا أولياء اللّه تعالى كشفا ، وسماه الحكيم الترمذي علم الأولياء.

من كتاب إيجاز البيان في الترجمة عن القرآن:

قوله" ألم " وقع النطق بأسماء هذه الحروف المعينة على طريق البناء على السكون الذي هو الثبوت ، فلا يتغير ، وأما ما تدل عليه فلا يعرف ذلك على الحقيقة إلا من جانب الحق ، وليس هذا مما يدرك بالرأي.

وكل ما قيل فيه فليس بمرضي ، ولا يفيد علما ، وكلام اللّه لا ينبغي أن يترجم بالحدس ولا بالظن والتخمين ، والعرب لا تعرفه ، وكل ما ذكره المفسرون في ذلك ونسبوه للعرب فلا يشبه هذا إذا حققته ، وكان سبب نزول هذه الحروف أن الكفار قالوا)لا تَسْمَعُوا لِهذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ.(

فكانوا إذا رأوا النبي صلّى اللّه عليه وسلم يوحى إليه يكثرون اللغط ، فلما سمعوا التلفظ بأسماء حروف المعجم ، أرادوا أن يعرفوا ما أريد بها ، عساه يفسر ذكرها ما يدل على المراد بها ، فيسكتون وتتوفر

ص 43

واعلم أن للّه ثمانية وعشرين اسما على عدد منازل الفلك وهي:

الرفيع الدرجات ، الجامع ، اللطيف ، القوي ، المذل ، رزاق ، عزيز ، مميت ، محيي ، حي ، قابض ، مبين ، محص ، مصور ، نور ، قاهر ، عليم ، رب ، مقدّر ، غني ، شكور ، محيط ، حكيم ، ظاهر ، باطن ، باعث ، بديع .

ولكل اسم من هذه الأسماء روحانية ملك تحفظه وتقوم به وتحفظها ، لها صور في النفس الإنساني تسمى حروفا في المخارج عند النطق وفي الخط عند الرقم ، فتختلف صورهما في الكتابة والرقم ولا تختلف في النطق ، وتسمى هذه الملائكة الروحانيات في عالم الأرواح بأسماء هذه الحروف.

فلنذكرها على ترتيب المخارج حتى تعرف رتبتها فأولهم :

ملك الهاء ثم الهمزة ، وملك العين المهملة ، وملك الحاء المهملة ، وملك العين المعجمة ، وملك الخاء المعجمة ، وملك القاف ، وملك الكاف ، وملك الجيم ، وملك الشين المعجمة ، وملك الياء ، وملك الضاد المعجمة ، وملك اللام ، وملك النون ، وملك الراء ، وملك الطاء المهملة ، وملك الدال المهملة ، وملك التاء المعجمة باثنتين من فوقها ، وملك الزاي ، وملك السين المهملة ، وملك الصاد المهملة ، وملك الظاء المعجمة ، وملك الثاء المعجمة بالثلاث ، وملك الذال المعجمة ، وملك الفاء ، وملك

الباء ، وملك الميم ، وملك الواو ، وهذه الملائكة أرواح هذه الحروف ، وهذه الحروف أجساد تلك الملائكة لفظا وخطا بأي قلم كانت ، فبهذه الأرواح تعمل الحروف لا بذواتها ، أعني صورها المحسوسة للسمع والبصر المتصورة في الخيال.

فلا يتخيل أن الحروف تعمل بصورها وإنما تعمل بأرواحها ، ولكل حرف تسبيح وتمجيد وتهليل وتكبير وتحميد يعظم بذلك كله خالقه ومظهره ، وروحانيته لا تفارقه وبهذه الأسماء يسمون هذه الملائكة في السماوات.

وكذلك الكواكب التي ترونها إنما هي صور لها أرواح ملكية تدبرها مثل ما لصورة الإنسان ، فبروحه يفعل الإنسان وكذلك الكوكب ، والحرف لولا الروح ما ظهر منه فعل ، فإن اللّه سبحانه ما يسوي صورة محسوسة في الوجود على يد من كان ، من إنسان أو ريح إذا هبت فتحدث أشكالا في كل ما تؤثر فيه ، حتى الحية والدودة تمشي في الرمل فيظهر طريق ، فذلك الطريق صورة أحدثها اللّه بمشي هذه الدودة أو غيرها ، فينفخ اللّه فيها روحا من أمره لا يزال يسبحه

من كتاب إيجاز البيان في الترجمة عن القرآن:

دواعيهم إلى ذلك ، فيسمعون ما أراد الحق أن يخاطبهم به من القرآن ، فهذا وجه إنزالها ، ومع هذا فلها معان لا يعلمها إلا هو ، ومن أنزلت عليه ، ثم إنه ما كتبت على صورة ما تلفظ بها ،

ص 44

ذلك الشكل بصورته وروحه إلى أن يزول فتنتقل روحه إلى البرزخ ، وذلك قوله« كُلُّ مَنْ عَلَيْها فانٍ » ،وكذلك الأشكال الهوائية والمائية لولا أرواحها ما ظهر منها في انفرادها ولا في تركيبها أثر ، وكل من أحدث صورة وانعدمت وزالت وانتقل روحها إلى البرزخ فإن روحها الذي هو ذلك الملك يسبح اللّه ويحمده ، ويعود ذلك الفضل على من أوجد تلك الصورة الذي كان هذا الملك روحها ، فما يعرف حقائق الأمور إلا أهل الكشف والوجود من أهل اللّه ، ولهذا نبه اللّه قلوب الغافلين ليتنبهوا على الحروف المقطعة في أوائل السور.

فإنها صور ملائكة وأسماؤهم ، فإذا نطق بها القارئ كان مثل النداء بهم فأجابوه ، فيقول القارئ « ألف ، لام ، ميم » فيقول هؤلاء الثلاثة من الملائكة مجيبين « ما تقول » فيقول القارئ ما بعد هذه الحروف تاليا فيقولون « صدقت » إن كان خبرا ، ويقولون « هذا مؤمن حقا نطق حقا وأخبر بحق » فيستغفرون له.

وهم أربعة عشر ملكا ، « ألف ، لام ، ميم ، صاد ، راء ، كاف ، هاء ، ياء ، عين ، طاء ، سين ، حاء ، قاف ، نون » ظهروا في منازل من القرآن مختلفة ، فمنازل ظهر فيها واحد مثل « ق ، ن ، ص » ومنازل ظهر فيها اثنان مثل « طس ، يس ، حم » وهي سبعة أعني الحواميم ، طه ، ومنازل فيها ثلاثة وهم ، « ألم البقرة ، وألم آل عمران ، وألم يونس وهود ويوسف وإبراهيم والحجر.

وطسم الشعراء والقصص والعنكبوت ولقمان والروم والسجدة » ومنها منازل ظهر فيها أربعة وهم « المص الأعراف ، والمر الرعد » ومنازل ظهر فيها خمسة وهي « مريم والشورى » وجميعها ثمان وعشرون سورة على عدد منازل السماء سواء ، فمنها ما يتكرر في المنازل ومنها ما لا يتكرر.

فصورها مع التكرار تسعة وسبعون ملكا بيد كل ملك شعبة من الإيمان ، وإن الإيمان بضع وسبعون شعبة أرفعها لا إله إلا اللّه ، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق – والبضع من واحد إلى تسعة – فقد استوفى غاية البضع ، فمن نظر في هذه الحروف يرى عجائب ، وتكون هذه الأرواح الملكية التي هذه الحروف أجسامها تحت تسخيره ، وبما بيدها من شعب الإيمان تمده وتحفظ عليه إيمانه .

واعلم أن هذه الحروف الأربعة عشر التي في أوائل السور ، كل حرف منها له ظاهر

من كتاب إيجاز البيان في الترجمة عن القرآن:

ولما كتبت ما قيدت بحركات مخصوصة ، بل تركت مهملة ، وهذا كله يدلك على أنه من فسر

ص 45

وهو صورته وله باطن وهو روحه ، ولكل حرف ليلة من الشهر أعني الشهر الذي يعرف بالقمر ، فإذا مشى القمر وقطع في سيره أربع عشرة منزلة أعطى في كل حرف من هذه الحروف من حيث صورها قوتين من حيث ذاته ، ومن حيث نوره ، وأعطاه قوتين أخريين من حيث المنزلة التي نزل بها ، ومن حيث البرج الذي لتلك المنزلة ، ولكن بقدر ما لتلك المنزلة من البرج ، فيصير في ذلك الحرف أربع قوى ، فيكون عمله أقوى ، فإذا أخذ القمر في النقص فقد أخذ في روحانية هذه الحروف إلى أن يكملها بكمال المنازل.

فتلك ثمان وعشرون والقوى مثل القوى إلا أنه يكون العمل غير العمل ، فالعمل الظاهر في المنافع ، والعمل الثاني في دفع المضار . وفي قوة النور الذي للقمر لهذه الحروف مراتب بحسب المنزلة والبرج الذي تكون فيه الشمس ، واتصالات القمر بالمنزلة في تسديسها وتربيعها وتثليثها ومقابلتها ومقارنتها ، فتختلف الأحكام باختلاف هذا للحرف من قوة النور القمري.

وأما لام ألف فهو من الحروف المركبة ، أنزلوه منزلة الحرف الواحد لكمال نشأة الحروف ، ولهذا الحرف ليلة السرار الذي يكون للقمر ، فالعمل بالحروف يحتاج إلى علم دقيق ، فهذه القوى تحصل للحروف من سير القمر ، فإن اللّه ما قدر هذا القمر منازل حتى عاد كالعرجون القديم واختصه بالذكر سدى.

بل ذلك لحكمة إلهية يعلمها من أوتي الحكمة التي هي الخير الكثير الإلهي.

فإن الستة الجواري الباقية قدّرها أيضا منازل في نفس الأمر وما خصها بالذكر ، فلما دخل القمر في الذكر كان له من القوة الإلهية والشرف في الولاية والحكم الإلهي ما ليس لغيره ، فإنه ما ذكر إلا بالحروف وبها نزل إلينا الذكر ، فكان نسبته إلى الحروف أتم من نسبة غيره ، فصار إمداده للحروف إمدادين ، إمداد جزاء وشكر لأن بها حصل له الذكر ، وإمدادا طبيعيا كإمداد سائر الستة لهذه الحروف – راجع والقمر قدرناه منازل .

»تفسير من باب الإشارة » : « الألف » من)ألم(إشارة إلى التوحيد فمهما نظرت إلى الوجود جمعا وتفصيلا ، وجدت التوحيد يصحبه ، لا يفارقه البتة ، صحبة الواحد الأعداد ، فالواحد ليس العدد ، وهو عين العدد ، أي به ظهر العدد ، فالألف ليس من الحروف عند من شم رائحة من الحقائق ، ولكن قد سمته العامة حرفا ، فإذا قال المحقق إنه

من كتاب إيجاز البيان في الترجمة عن القرآن:

برأيه فما أصاب ، واللّه أعلم ، أو قد اجترأ فيما ذكره ولو أصاب ، فإن ذلك مما لا يدرك بالاجتها
ص 46

حرف فإنما يقول ذلك على سبيل التجوز في العبارة ، ومقام الألف مقام الجمع ، له من الأسماء اسم اللّه ، وله من الصفات القيومية ، وله المراتب كلها ، وله مجموع عالم الحروف ومراتبها ، ليس فيها ولا خارجا عنها ، نقطة الدائرة ومحيطها ، ومركب العوالم وبسيطها . « والميم » للملك الذي لا يهلك « واللام » بينهما واسطة لتكون رابطة بينهما ، فالألف إشارة إلى الذات المنزهة عن قيام الحركات بها ، واللام إشارة إلى الصفات التي لا تعقل إلا بالأفعال ، لذلك اتصلت اللام بالميم الذي هو أثرها وفعلها.

تفسير سورة البقرة (2) : آية 2

"ذلِكَ الْكِتابُ لا رَيْبَ فِيهِ هُدىً لِلْمُتَّقِينَ" (2(
»ذلِكَ »مبتدأ ليس بفاعل ولا مفعول لما لم يسم فاعله ، ولا يصح أن يكون فاعلا لقوله« لا رَيْبَ فِيهِ »فلو كان فاعلا لوقع الريب ، لأن الفاعل إنما هو منزله لا هو ، ولا يقال فيه أيضا مفعول لم يسم فاعله لأنه من ضرورته أن يتقدمه كلمة على بنية مخصوصة محلها النحو و« الْكِتابُ »هنا نفس الفعل والفعل لا يقال فيه فاعل ولا مفعول ، وهو مرفوع فلم يبق إلا أن يكون مبتدأ ، وجاء بعد قوله« ألم »إشارة إلى موجود بيد أن فيه بعدا ، وسبب البعد لما أشار إلى الكتاب ، وهو المفروق محل التفصيل والإشارة نداء على رأس البعد عند أهل اللّه (1) فقوله « ذا » حرف مبهم فبيّن ذلك المبهم بقوله« الْكِتابُ »وهو حقيقة ذا

من كتاب إيجاز البيان في الترجمة عن القرآن:
قوله " :ذلِكَ الْكِتابُ(3) " الآية .
ذا إشارة ، والألف واللام للعهد ، فالإشارة للكتاب المسؤول المعهود هو هذا ، ولا وجه

لقوله(ألم)في الإعراب ، ومن أعربه فقد أخطأ ، فإن إعراب الكلام تابع لمعرفة معانيه ، وهذا مجهول المعنى ، ولا سيما في الخط حيث لم يقيد بحركة ، وقوله« لا رَيْبَ فِيهِ »يقول لا شك فيه ، فيحتمل أن يكون العامل في« فِيهِ »ما في الريب من معنى الفعل ، أو في الهدى من كائن ، فإن له تعلقا بالريب وتعلقا بالهدى ، وفي القرآن من ذلك كثير مثل« هذَا »في(يس)في قوله(مَنْ بَعَثَنا مِنْ مَرْقَدِنا ، هذا ما وَعَدَ الرَّحْمنُ)فله وجه إلى ما ، ووجه إلى مرقدنا ، وكذلك(وَالْآصالِ رِجالٌ لا تُلْهِيهِمْ)في سورة النور يطلبه« يُسَبِّحُ »بالفاعلية ، ويطلبه الابتداء بالمبتدئية ، وضمير لا تلهيهم يعود عليهم في الوجهين معا ، وكذلك هذا يجوز الوقف على

ص 47

وساق الكتاب بحر في التعريف والعهد ، فذلك الكتاب هو الكتاب المرقوم ، لأن أمهات الكتب ثلاثة : الكتاب المسطور والكتاب المرقوم والكتاب المجهول . والكتاب ضم معنى إلى معنى ، والمعاني لا تقبل الضم إلى المعاني حتى تودع في الحروف والكلمات ، فإذا حوتها الكلمات والحروف قبلت ضم بعضها إلى بعض فانضمت بحكم التبع لانضمام الحروف ، وانضمام الحروف تسمى كتابة ، فذلك الكتاب المرقوم المنزل عليك هو علمي لا علمك« لا رَيْبَ فِيهِ »عند أهل الحقائق أنزله في معرض الهداية« هُدىً لِلْمُتَّقِينَ »فهو في معرض الهداية لمن اتقاني وأنت المنزل فأنت محله ، ولا بد لكل كتاب من أم ، وأمه ذلك الكتاب المجهول لا تعرفه أبدا ، وقال تعالى« ذلِكَ »ولم يقل تلك آيات الكتاب ، فالكتاب للجمع والآيات للتفرقة ، وذلك مذكر مفرد ، وتلك مفرد مؤنث ، فأشار تعالى بذلك الكتاب أولا لوجود الجمع أصلا قبل الفرق ، كما أشار بالآيات إلى محل الأحكام والقضايا .

–إشارة – الكتاب المرقوم هو هذا القرآن ، والكتاب المسطور هو الوجود كله ، والكتاب المجهول هو علم اللّه تعالى.

سورة البقرة (2) : آية 3

الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَمِمَّا رَزَقْناهُمْ يُنْفِقُونَ (3(

]بحث في الإيمان [

بحث في الإيمان : إن الإيمان عبارة عن نور حاصل من قبل الحق تعالى ، قابل لكل ما

من كتاب إيجاز البيان في الترجمة عن القرآن:

"فِيهِ " ويجوز الابتداء به فيقرأ : فيه« هُدىً لِلْمُتَّقِينَ »هدى أي بيان ، أي أن الكتاب يتضمن بيان ما أراد اللّه أن يخبر به عباده ، من طريق السعادة التي من سلك عليها نجا ، وخص المتقين بالذكر ، فإن المتقي هو الذي يحذر ويخاف ، فيؤديه حذره إلى البحث والتفتيش عن الأمر الذي تكون فيه سعادته ، فيتبين له من القرآن ذلك ، فيما هو معجز يحصل له التصديق بالمخبر به ، وهو النبي صلّى اللّه عليه وسلم ، وبما يتضمنه من المعاني يحصل له التصديق بها ، فإن اللّه هو الصادق في خبره ، لا يجوز عليه الكذب ، ولا يشترط في المتقي هنا أن يكون مؤمنا في حال تقواه.

فإنه صاحب نظر وطلب واستكشاف عن بيان الأمر ، فإذا تبين له آمن ، وإذا آمن استصحبه التقوى والحذر من مخالفة اللّه فيما أمر به ونهى ، وفيما يطرأ على القلوب من الشكوك والشبه المضلة ، فلا تزال التقوى له صفة ، قوله (4 »(الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ «هو نعت للمتقين ، وقد يكون مبتدأ ، ويكون الخبر الجملة من قوله« أُولئِكَ عَلى هُدىً مِنْ رَبِّهِمْ » .ثم اعلم أن المعلومات على قسمين:

ص 48

يرد منه من دين وشرع ونحوهما ، فيستحق حامله بوصف قبوله المذكور الأمن من سخط الرحمن ، فيسمى بهذا الوصف والحكم الخاص إيمانا وتصديقا ، وعلى التحقيق إنما هو أول اعتبار من العلم متعلق بالدين والشرع وحداني النعت ، من غير اعتبار تأيد بدليل وبرهان عقلي أو سمعي أو كشفي ، فإذا تأيد بشيء من ذلك صار علما وإيقانا ، وخرج من كونه إيمانا ، ثم إن محل هذا النور يختلف بحسب رقة حجب العادة والطبع الحائل بين النفس والقلب ، وبين قبولهما الدين والشرع وبحسب كثافتهما ، فمهما رقّت الحجب

وشفت يرد هذا النور من ضمن إخبار مخبر صادق عن الحق تعالى ، رغما منه بطريق السمع غالبا ، ويخلص إلى القلب فيتلقاه القلب بالقبول ، وذلك يكون نفس التصديق الذي محله القلب.

والدليل على كونه نورا قول النبي صلّى اللّه عليه وسلم : [فذلك مثلهم ومثل ما قبلوا من هذا النور] وذلك في آخر حديث تمثيل اليهود والنصارى والمسلمين وتمثيل إجارتهم وأجورهم.

وأما الدليل على وروده على القلب قوله عزّ من قائل [أولئك كتب في قلوبهم الإيمان وأيدهم بروح منه] فيظهر القلب وآثاره ، ويتميز بعد أن كان مغمورا ومستورا ومقهورا تحت سلطنة النفس وآثارها ، ثم بعد هذا الورود يسري أثره من الباطن والقلب إلى ظاهر النفس ، حتى إلى صورتها البدنية وسائر قواها وأعضائها ، فتنقاد وتستسلم وتلين بعد انشراح الصدر له ولأحكامه الظاهرة والباطنة.

كما قال تعالى [ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر اللّه] ويسمى هذا النور بحكم سرايته في الظاهر وتليينه إياه وانقياد الظاهر له ولأحكامه إسلاما ، ومهما تراكمت الحجب لم يرد هذا النور من ضمن الأخبار المذكورة إلا على ظاهر النفس من قبل أن ينشرح الصدر ، فتتلقاه النفس بقبول مختلس ، فتنقاد له ولأحكامه الظاهرة الحسية ، رغبة أو رهبة متعلقة بالظاهر ، كحقن الدم وصون المال والعرض ، ويسمى هذا النور بهذا القدر اليسير من الانقياد الظاهري إسلاما ، لكن لما لم يخلص ذلك إلى القلب ، لكثافة الحجب وعدم سرايته إلى الباطن أصلا ، لم ينشرح له الصدر ، ولم ينبسط لقبوله كما قال تعالى [قالت

من كتاب إيجاز البيان في الترجمة عن القرآن:

معلومات تستقل العقول بإدراكها ، كالعلم بوجود الحق سبحانه وتوحيده ، ونسب نعوت الكمال والجلال إليه ، وما يجب له وما يستحيل عليه ، وما يجوز أن يكون منه في خلقه ، كل ذلك لا يفتقر إلى خبر ولا مخبر ، وقسم آخر لا تستقل العقول بإدراكه ، وهو وقوع ما يجوز

ص 49

الأعراب آمنا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا ولما يدخل الإيمان في قلوبكم] فأما إذا سرى أثر قبول الظاهر إلى الباطن وحكم قبول القلب إلى النفس ، بتلطيف الحجب وغلبة حكم العبادة على أحكام العادة ، فيحصل إما تمام شرح الصدر أو بعضه ، وذلك قول اللّه تعالى [أفمن شرح اللّه صدره للإسلام فهو على نور من ربه. [

ويعم حكم القبول للقلب من النفس ، ويتحد وصفهما الذي هو الإسلام والإيمان ، كما أخبر اللّه تعالى عن حال مؤمني قوم لوط في ذلك بقوله عزّ وجل من قائل : [فأخرجنا من كان فيها من المؤمنين فما وجدنا فيها غير بيت من المسلمين] فعلى هذا يكون لهذا النور بحسب محليه – أعني النفس والقلب – ظاهر وباطن فظاهره الانقياد القائم بالنفس وآلاتها التي هي القوى والأعضاء البدنية ، وله ثلاث مراتب فمبدؤها وصف المنافقين وذلك قبل شرح الصدر ، وهو انقياد النفس الأمارة بالسوء رغبة أو رهبة دنيوية فحسب ، ووسطها نعت الأبرار من المسلمين ، وهو انقياد النفس اللوامة للأوامر والنواهي ظاهرا وباطنا ، ولكن عن رغبة ورهبة متعلقة بالآخرة ، واستيفاء حظوظ النفس من الجنة بنعمها المحسوسة ودرجاتها ، وذلك في أثناء شرح الصدر ، وغايتها صفة المؤمنين الموقنين المقربين المخلصين ، وهو انقياد النفس المطمئنة ، ظاهرا وباطنا خالصا مخلصا من غير شائبة حظ النفس أصلا دنيا وآخرة.

وهو المراد بقول الخليل عليه السلام)إِذْ قالَ لَهُ رَبُّهُ « أَسْلِمْ » قالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعالَمِينَ. (

وبما وصى بنيه يعقوب عليه السلام بقوله)فَلا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ(وذلك بعد تمام شرح الصدر وفتح القلب ، وهو ظهوره من مشيمة النفس والروح ، وهذا النور الإيماني من هذه الحيثية الظاهرة ومن حيثية عموم الحكم واتحاد الوصف المذكورين قبيل هذا أيضا قابل للزيادة والنقصان ، لكون الأعمال البدنية منها ، فيزيد بزيادتها وينتقص بانتقاصها ، وأما باطنه وحقيقته المكتوب في القلب ، فهو مجرد التصديق ، وحداني النعت ، غير قابل من هذه الحيثية زيادة ونقصانا ، نعم قد يقوى ويضعف ظهوره برقة الحجب وكثافتها ، وربما يتأيد ويتقوى ويتفرع منه أشعة في الظاهر والباطن ، ولكن القوة والضعف والتأييد والظهور والأشعة ، كلها من نعوته وصفاته ، لا من أجزاء حقيقته ومقوماته ، ثم إن هذه الحيثية الباطنية التصديقية أيضا لها ثلاث

من كتاب إيجاز البيان في الترجمة عن القرآن:
أن يكون منه أو عدم وقوعه ، فهذا القسم مغيب عن العقول ، فلا تدركه إلا بالخبر الصدق
،
ص 50
درجات : أولها إيمان العوام ، وهو الاعتقاد الصحيح السليم الذي هو أصل الصراط المستقيم ، ووسطاها سرايتها في النفس وجميع قواها وآلاتها البدنية واستصحابها مع كل حركة وسكنة قولا وفعلا ، وثمرة ذلك الائتمار لجميع الأوامر والانتهاء عن جميع النواهي ظاهرا وباطنا.
وقوله صلّى اللّه عليه وسلم لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن « الحديث «
من هذه المرتبة الوسطى الإيمانية ، فإنه نفى الإيمان عمن لم يستصحبه في جميع حركاته وسكناته ، ولو صحبه حال فعل الزنا والسرقة باستحضار الحق تعالى ولزوم أوامره ونواهيه لما أقدم على ذلك ، فكان الإيمان المنفي من هذه المرتبة الوسطى لا الأعلى والأدنى.
وأعلى مراتب الإيمان ظهور عروقه الكلية الضاربة إلى الروح الروحانية ، وثمرة ذلك تعديل الأخلاق وتبديلها ، أو صرفها فيما ظهر حسنا جميلا بالنسبة إلى تلك المصارف ، ويؤول الأمر من هذه المرتبة إلى أن تزول الحجب كلها أو أكثرها ، ويظهر القلب فتصحو سماؤه عن غمام الشك والريب ، وتنجلي فيه آيات الرب تعالى وتقدس ، ويصير الإيمان إحسانا ، ويعود الكشف عيانا ، وهنالك الولاية للّه الحق ، فدخل في مرتبة الإحسان.
واعلم أيدك اللّه أن الإيمان بمعناه اللغوي ، الذي هو إعطاء الأمان.
إنما يتعدى بنفسه فيقال : « آمنته » وأما ما يتضمن معنى التصديق والاعتراف الباطن فيعدى بالباء ، كقوله تعالى) : يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ(وذلك باطنه المتعلق بالقلب وهو الأصل.
وأما ما يتضمن معنى الانقياد والاستسلام المتعلق بالنفس فيعدى باللام كقوله عزّ وجل« أَ فَتَطْمَعُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ »فالذي يقبل التشعب والانقسام والزيادة والنقصان من هذا النور إنما هو الظاهري المعدّى باللام ، الذي هو حقيقة الإسلام لا الباطن المعدى بالباء الذي هو الأصل الذي تفرعت منه الأغصان ، والتشعب المذكور في الحديث (الإيمان بضع وسبعون شعبة أعلاها لا إله إلا اللّه وأدناها إماطة الأذى عن الطريق والحياء شعبة من شعب الإيمان) وقد ذكر الإمام أبو القاسم الراغب في ذريعته في معنى انقسام الإيمان المذكور في هذا الحديث كلاما بليغا ، وحصر شعبه في اثنين وسبعين شعبة.

وحاصل كلامه : أن الإيمان شيئان ، تصديق وأعمال.
فالتصديق على ثلاث مراتب : أعلى وهو المراد بقوله« الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتابُوا »وأوسط وهو الظن المقارب لليقين بسبب

من كتاب إيجاز البيان في الترجمة عن القرآن:
فإذا وردت عليه صدّقت به ، فهو قوله »الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ « وهو ما وقع به الإخبار من اللّه
ص 51

أمارة قوته ، كما قال تعالى »يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلاقُوا رَبِّهِمْ.«
وأدنى وهو التقليد المحض ، والأعمال أيضا ثلاثة : خلافة معينة بقوله« وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ »وعبادة مرادة بقوله »إِلَّا لِيَعْبُدُونِ« وعمارة أرض كقوله تعالى« وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيها »فهذه ستة ، وكل واحد منها صدوره إما أن يكون عن رغبة ورهبة أو عن إخلاص فهذه اثنتا عشرة ، وكل واحد منها إما يكون المؤمن في مبدئه أو في وسطه أو في منتهاه ، فإن كل فضيلة ورذيلة لا تنفك عنها.
فاثنتا عشرة في ثلاث صارت ستا وثلاثين ، وكل واحد منها إما أن يكون باجتباء وهبي ، وإما باهتداء كسبي ، فصارت اثنتين وسبعين شعبة من غير زيادة ونقصان ، هذا حاصل كلام الراغب رحمة اللّه تعالى ، وقد أجاد في هذا الحصر والتقسيم ، إلا أنه حمل البضع الذي هو العدد المجهول على الاثنين ، وقد اختلف في الاثنين هل هو من العدد أم لا ، على أن الأكثر مالوا إلى أن البضع لا يقع إلا على العدد المجهول من الثلاثة إلى التسعة ، فقد عين واختار أمرا مختلفا فيه ، وأيضا يصير الفرع على ما قرره أفضل وأعلى من الأصل.
ويلوح لي في هذا الحصر والتقسيم وجه آخر مناسب لأفضلية هذا القول وحمل البضع الوضع إجماعا ، وذلك أنا قد قررنا آنفا أن حقيقة الإيمان باطنا أمر وحداني غير قابل للتجزئة والقسمة والتشعب ، وإنما ينقسم من حيث ظاهره وصفاته ونعوته الظاهرة وذلك هو الإسلام وهو المعدى باللام ، وحسبت حروف البضع بحساب الجمل ، فرأيت أن دلالة لفظ البضع على عدد الثمانية أشد وأقوى من دلالتها على غير ذلك من الأعداد

فحملناه هاهنا على ذلك ، فانحصرت شعب الإيمان وانقسمت على ثمان وسبعين شعبة ، ووجه ذلك أن كل ما يصدر من ظاهر نفس الإنسان من حيث قواها وآلاتها ، التي تصلح إضافة العمل إليها مبنيا على نية منتشئة من أصل الإيمان وماهيته ، التي بسراية تلك النية يقع ذلك التصادر في معرض المجازاة شرعا .

ينقسم ثلاثة أقسام :

أحدها قولي محض ، مثل قول »لا إِلهَ إِلَّا اللَّهُ* « مثلا .

ثانيها عملي محض كالجهاد والزكاة .

وثالثها متركب منهما كالصلاة ، ثم إن العملي إما أن يكون باجتماع القوى والآلات ، أو بتفرد كل قوة وآلة بما يخصه من العمل ، فالقولي وحده والمتركب منه ومن العملي والمتركب من العمليات ثلاثة أقسام ، وبقي ما تفرد

من كتاب إيجاز البيان في الترجمة عن القرآن:

مجملا ومفصلا ، مثل (فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر) ومثل قوله

ص 52

كل قوة وآلة بما يخصه من العمل ، وذلك نوعان : نوع غايته والمقصود منه العلم والإدراك لا غير ، وذلك منحصر في خمسة أصناف : هي الحواس الخمس ، السمع والبصر والشم والذوق واللمس . والنوع الثاني ما لا يكون غايته العلم والإدراك بل غايته منحصرة في أمرين : أحدهما جلب المنفعة أو اللذة ، وذلك يكون بالقوة الشهوية ، والأمر الثاني دفع المضرة والألم وذلك بالقوة الغضبية ، وآلات هاتين القوتين ومظاهرها خمسة أيضا إحداها اليد التي ينتهي إليها إعلاء كلمة الحق بضرب أعناق مخالفيه ، وثانيها الرجل التي بها يسارع إلى الائتمار بأمر(فَاسْعَوْا إِلى ذِكْرِ اللَّهِ) ،وثالثها الرأس الذي به يتقرب إلى اللّه تعالى بأمر(وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ) ،ورابعها البطن الذي به يقوم بقاء الشخص بالمبادرة إلى أمر (كلوا) ، وخامسها الفرج الذي تعلق به بقاء النوع بواسطة الانتداب بأمر (تناكحوا) وليس غير ما أحصيناه قوة وآلة في الظاهر يعمل ويتقرب بها إلى اللّه تعالى أصلا ، فهذه

العشرة مع الثلاثة المذكورة آنفا صارت ثلاثة عشر ، وكل واحد منها ينقسم قسمين : أحدهما فعلي كما وصفنا ، والثاني تركي كالصوم وجميع مقتضيات الحياة ، فتصير ستا وعشرين ، وكل واحد منها إما أن يكون صدوره ابتغاء مرضاة اللّه تعالى وخالصا لوجهه غير مشوب بعلة نفسانية أصلا أو يكون مشوبا بعلة.

والعلة النفسية نوعان :

رغبة ورهبة باقتضاء قوتي الشهوة والغضب وبحسبها ، فهذه الثلاثة تضرب في ست وعشرين تصير ثمانيا وسبعين.

فانحصرت شعب ظاهر الإيمان التي أفضلها قول لا إله إلا اللّه بسراية أصلها الذي هو القصد والنية المنتشئة من باطن الإيمان وأصله ومنبعثة في ثمان وسبعين شعبة ، ويحتمل أن يعد باطن الإيمان الوحداني من جملة شعبه الظاهرة ، تسمية للأصل والذات باسم الفرع والصفة ، فتصير الشعب تسعا وسبعين ويحمل البضع على أكثر ما يحتمله في العدد ، كما أن الراغب حمله على أقل العدد من وجه ، واللّه تعالى أعلم . وإذا علمت أن الإيمان نور وارد على القلب والنفس ، قابل لكل ما يرد من الحق من أنوار الأمر والنهي المقربة إلى اللّه تعالى ، المزيلة لظلمة الطبيعة العنصرية ، والمظهرة سبيل القرب إليه تعالى وتقدس ، علمت أن التقوى هي السلوك في ذلك السبيل ، والتقرب إليه عزّ وجل بإتيان الأوامر وأداء الواجبات والمندوبات التي هي مقتضاها ، وبالانتهاء عن النواهي وترك المحرمات والشبهات والانحرافات التي هي من

من كتاب إيجاز البيان في الترجمة عن القرآن:

)حُورٌ مَقْصُوراتٌ فِي الْخِيامِ)و(فِيهِما فاكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ)وما أشبه ذلك ، ومن الغيب أيضا

ص 53

مقتضياتها ، والدخول بواسطة ذلك الإتيان والانتهاء في وقاية رضى اللّه تعالى وهدايته ونفعه

]شعب الإيمان [

ولطفه – شعب الإيمان – اعلم أن الإيمان بضع وسبعون شعبة أدناها إماطة الأذى عن الطريق ، وأعلاها لا إله إلا اللّه ، وما بينهما على قسمين من اللّه : عمل وترك ، أي مأمور به ومنهي عنه ، فالمنهي عنه هو الذي يتعلق به الترك وهو قوله لا تفعل ، والمأمور به هو الذي يتعلق به العمل وهو قوله افعل ، وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا.

وقال صلّى اللّه عليه وسلم] : ما نهيتكم عنه فانتهوا] وأطلق ولم يقيد وقال في الأمر « وما أمرتكم به فافعلوا منه ما استطعتم » فهذا من رحمته بأمته ، وهو لا ينطق عن الهوى فهذا من رحمة اللّه تعالى بعباده : وأمره بما وجب به الإيمان على نوعين : فرض ومندوب ، والنهي على قسمين نهي حظر ونهي كراهة ، والفرض على نوعين : فرض كفاية وفرض عين.

وكذلك الواجب أقول فيه : واجب موسع وواجب مضيق ، فالواجب الموسع موسع بالزمان وموسع بالتخيير وهو الواجب المخير فيه مثل كفارة المتمتع ، وإتيان ما يؤتى من هذا كله وترك ما يترك من هذا كله هو الإيمان الذي فيه سعادة العباد ، فالبضع والسبعون من الإيمان هو الفرض منه من عمل وترك وأما غير الفرض كالمندوبات والمكروهات فيكاد لا ينحصر عند أحد ، فابحث عليها في الكتاب والسنة .

ومن شعب الإيمان :

الشهادة بالتوحيد وبالرسالة ، والصلاة ، والزكاة ، والصوم ، والحج ، والجهاد ، والوضوء والغسل من الجنابة والغسل يوم الجمعة ، والصبر ، والشكر ، والورع والحياء ، والأمان ، والنصيحة ، وطاعة أولي الأمر ، والذكر ، وكف الأذى ، وأداء الأمانة ، ونصرة المظلوم وترك الظلم ، وترك الاحتقار ، وترك الغيبة ، وترك النميمة ، وترك التحسس ، والاستئذان ، وغض البصر ، والاعتبار ، وسماع الأحسن من القول واتباعه ، والدفع بالتي هي أحسن ، وترك الجهر بالسوء من القول ، والكلمة الطيبة ، وحفظ الفرج ، وحفظ اللسان ، والتوبة ، والتوكل ، والخشوع ، وترك اللغو ، والاشتغال بما يعني وترك ما لا يعني ، وحفظ العهد والوفاء بالعقود ، والتعاون على البر والتقوى وترك التعاون على الإثم والعدوان ، والتقوى ، والبر ، والقنوت ، والصدق ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وإصلاح ذات البين وترك إفساد ذات البين ، وخفض الجناح ، واللين ، وبر الوالدين ، وترك العقوق ، والدعاء

، والرحمة بالخلق ، وتوقير الكبير

من كتاب إيجاز البيان في الترجمة عن القرآن:
ما هو من مجازات العقول ، وهو ما وقفت فيه ، فلم تحكم عليه بوجوب ولا جواز ولا إحالة ،
ص 54

ومعرفة شرفه ورحمة الصغير ، والقيام بحدود اللّه ، وترك دعوى الجاهلية فإن النبي صلّى اللّه عليه وسلم يقول : دعوها فإنها منتنة ، والتودد ، والحب في اللّه والبغض في اللّه ، والتؤدة ، والحلم ، والعفاف ، والبذاذة ، وترك التدابر ، وترك التحاسد ، وترك التباغض ، وترك التناجش ، وترك شهادة الزور وترك قول الزور ، وترك الهمز واللمز والغمز ، وشهود الجماعات ، وإفشاء السلام ، والتهادي ، وحسن الخلق ، وحسن العهد ، والسمت الصالح ، وحفظ السر ، والنكاح والإنكاح ، وحب الفأل ، وحب أهل البيت ، وترك الطيرة ، وحب النساء ، وحب الطيب ، وحب الأنصار ، وتعظيم الشعائر ، وتعظيم حرمات اللّه ، وترك الغش ، وترك حمل السلاح على المؤمن ، وتجهيز الميت والصلاة على الجنائز ، وعيادة المريض ، وإماطة الأذى ، وأن تحب لكل مؤمن ما تحب لنفسك.
وأن يكون اللّه ورسوله أحب إليك مما سواهما ، وأن تكره أن تعود في الكفر ، وأن تؤمن بملائكة اللّه ، وكتبه ، ورسله ، وبكل ما جاءت به الرسل من عند اللّه ، من ذلك نعلم أن الإيمان نور شعشعاني ، ظهر عن صفة مطلقة لا تقبل التقييد ، فإذا خالط هذا النور بشاشة القلوب لا يتصور في صاحبه شك ، لأن الشك لا يجد محلا يعمره ، فإن محله الدليل ولا دليل ، فما ثم على ما يرد عليه الدخل ولا الشك بل هو في مزيد ، فالإيمان لا تعطيه إقامة الدليل بل هو نور إلهي يلقيه اللّه في قلب من شاء من عباده ، وقد يكون عقيب الدليل وقد لا يكون هناك دليل أصلا.
كما قال تعالى : (وَلكِنْ جَعَلْناهُ نُوراً نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشاءُ مِنْ عِبادِنا)فنور الإيمان وهب إلهي ليس فيه من الكسب شيء ، ولا أثر للدلالة فيه البتة ، فإن الإيمان كشف نوري لا يقبل الشبهة ، وهو لا يقبل الزوال لأنه نور إلهي ، وصاحب الدليل لا يقدر على عصمة

نفسه من الدخل عليه في دليله القادح ، فيرده هذا الداخل إلى محل النظر ، فصاحب الإيمان يصف الحق بما لا تقبله الأدلة ، ويتأوله المؤمن به من حيث الدليل ، فينقصه من الإيمان بقدر ما نفاه عنه دليله ، وموطن الدنيا اقتضى أن ينحجب الخلق عن اللّه ، إذ لو أشهدهم نفسه في الدنيا لبطل حكم القضاء والقدر ، الذي هو علم اللّه في خلقه بما يكون عنهم وفيهم ، فكان حجابه رحمة بهم وإبقاء عليهم ، فإن تجليه سبحانه يعطي بذاته القهر فلا يتمكن معه دعوى ، والإيمان لا يكون إلا بالخبر لا بالعيان« الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ »فليس المؤمن إلا من يؤمن بالغيب ، وهو الخبر الذي جاء من عند اللّه ، فإن الخبر بما هو خبر يقبل الصدق والكذب ،

من كتاب إيجاز البيان في الترجمة عن القرآن:
وقد يمكن أن يكون من ذلك رؤية اللّه سبحانه ، فإذا قررها الخبر الصدق تعين الحكم وأن ذلك
ص 55

فالصدق متعلقه الخبر ، ومحله الصادق ، وليس بصفة لأصحاب الأدلة العلماء الذين آمنوا بما أعطتهم الآيات والمعجزات من الدلالة على صدق دعواه فذلك علم ، والصدق نور يظهر على قلب العبد ، يصدق به هذا المخبر ، ويكشف بذلك النور أنه صدق ، ويرجع عنه برجوع المخبر ، لأن النور يتبع المخبر حيث مشى ، والمصدق بالدليل ليس هذا حكمه ، إن رجع المخبر لم يرجع لرجوعه ، فالمؤمنون على قسمين : مؤمن عن نظر واستدلال وبرهان ، فهذا لا يوثق بإيمانه ولا يخالط نوره بشاشة القلوب ، فإن صاحبه لا ينظر إليه إلا من خلف حجاب دليله ، وما من دليل لأصحاب النظر إلا وهو معرض للدخل فيه والقدح ولو بعد حين ، فلا يمكن لصاحب البرهان أن يخالط الإيمان بشاشة قلبه وهذا الحجاب بينه وبينه ، والمؤمن الآخر الذي كان برهانه عين حصول الإيمان في قلبه لا أمر آخر . ثم إن المؤمن على نوعين :
مؤمن له عين فيه نور ، بذلك العين إذا اجتمع بنور الإيمان أدرك المغيبات التي متعلقها الإيمان ، ومؤمن ما لعينه سوى نور الإيمان ، فنظر إليه به ونظر إلى غيره به ، فالأول يمكن

أن يقوم بعينه أمر يزيل عنه النور الذي إذا اجتمع بنور الإيمان أدرك الأمور التي ألزمه الإيمان القول بها ، وهو المؤمن الذي لا دليل له وينظر الأشياء بذاته ، فيدخله الشك ممن يشككه فإن فطرته تعطي النظر في الأدلة ، إلا أنه لم ينظر فإذا نبّه تنبه ، فمثل هذا إن لم يسرع إليه الذوق وإلا خيف عليه ، والمؤمن الآخر هو بمنزلة الجسد الذي قد تسوت بنيته ، واستوت آلات قواه ، وتركبت طبقات عينه ، غير أنه ما نفخ فيه الروح فلا نور لعينه.
فإذا كان الإنسان بهذه المثابة من الطمس ، فنفخ فيه روح الإيمان ، فأبصرت عينه بنور الإيمان الأشياء ، فلا يتمكن له إدخال الشكوك عليه جملة ورأسا ، فإنه ما لعينه نور سوى نور الإيمان ، والضد لا يقبل الضد ، فما له نور في عينه يقبل به الشك والقدح فيما يراه ، ومتى لم يكن الإيمان بهذه المثابة وإلا فقليل أن يجيء منه ما جاء من الأنبياء والأولياء من الصدق بالإلهيات ، فالفطر الذكية التي تقبل النظر في المعقولات من أكبر الموانع لحصول ما ينبغي

من كتاب إيجاز البيان في الترجمة عن القرآن:
من قبيل الممكنات ، قوله« وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ »يقول : يتمون نشأتها كما أمروا بها ، والألف واللام للتعريف بالصلاة المشروعة لا اللغوية ، وإتمام نشأتها وكمال صورتها يختلف باختلاف الحالات ، يحصرها ثلاثة أحوال : الواحدة أن يصلي الرجل وحده فيتم ركوعها وسجودها وما تحوي عليه
ص 56

أن يحصل من العلم الإلهي ، والفطر المطموسة هي القابلة التي لا نور لعينها من ذاتها إلا من نور الإيمان ، فلا تعطي فطرته النظر في الأمور على اختلافها ، ومنزلة الأنبياء فيما يأخذونه من الغيب بطريق الإيمان من الملائكة منزلة المؤمنين مع ما يأخذونه من الأنبياء ، فالأنبياء مؤمنون بما يلقي إليهم الروح ، والروح مؤمن بما يلقي إليه من يلقي إليه.
فالمؤمن هو الذي لا نور لعين بصيرته إلا نور الإيمان ، وليس الإيمان المعتبر عندنا إلا أن يقال الشيء لقول المخبر على ما أخبر به ، أو يفعل ما يفعل لقول المخبر لا لعين الدليل العقلي.

»وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ »وقعت الصلاة في الرتبة الثانية من قواعد الإيمان التي بني الإسلام عليها.

في الخبر الصحيح عن رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم أنه قال : (بني الإسلام على خمس شهادة أن لا إله إلا اللّه ، وإقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، وصوم رمضان ، والحج) فعلم الصحابة أنه صلّى اللّه عليه وسلم راعى الترتيب لما يدخل الواو من الاحتمال.

ولهذا لما قال بعض رواة هذا الحديث من الصحابة لما سرده فقال : والحج وصوم رمضان ، أنكر عليه وقال له (وصوم رمضان والحج) فقدّمه ، وعلمنا أنه أراد الترتيب ، ونبه على أن لا ننقل عنه صلّى اللّه عليه وسلم إلا عين ما تلفظ به ، فإنه من العلماء من يرى نقل الحديث المتلفظ به من النبي صلّى اللّه عليه وسلم على المعنى.

فالصلاة ثانية في القواعد ، مشتقة من المصلي في الخيل ، وهو الذي يلي السابق في الحلبة ، والسابق من القواعد الشهادة ، والمصلي هي الصلاة ، وجعل الزكاة تلي الصلاة لأن الزكاة التطهير فناسبت الصلاة ، فإن الصلاة لا يقبلها اللّه بغير طهور ، والزكاة تطهير الأموال ، ومن شروط الصلاة طهارة الثياب والأبدان والبقعة التي توقع الصلاة عليها وفيها كانت ما كانت ، وجعل الصوم يلي الزكاة ، لما شرع اللّه في صوم رمضان عند انقضائه من زكاة الفطر فلم يبق الحج إلا أن يكون آخرا .

واعلم أن الصلاة تضاف إلى ثلاثة وإلى رابع ثلاثة بمعنيين بمعنى شامل وبمعنى غير شامل ، فتضاف الصلاة إلى الحق بالمعنى الشامل وهو الرحمة – فإن اللّه وصف نفسه بالرحيم – ووصف عباده بها فقال(أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ) *وقال تعالى(هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ)فوصف نفسه بأنه يصلي أي يرحمكم . وتضاف الصلاة إلى الملائكة بمعنى الرحمة ،

من كتاب إيجاز البيان في الترجمة عن القرآن:

من الأقوال والأفعال كما علمنا الشارع لنا ، وهذا سار في كل مصل على كل حال ، والثانية أن يكون المصلي مع إمام وحده ، فمن تمام صلاته وإقامته الاقتداء به ، فلا يرفع حتى يرفع ، ولا

ص 57

والاستغفار ، والدعاء للمؤمنين ، قال تعالى: (هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلائِكَتُهُ)فصلاة الملائكة ما ذكرناه ، قال اللّه عزّ وجل في حق الملائكة وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا)وتضاف الصلاة إلى البشر بمعنى الرحمة ، والدعاء والأفعال المخصوصة المعلومة شرعا ، فجمع البشر هذه الثلاث المراتب المسماة صلاة ، قال تعالى آمرا لنا« وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ »

*وتضاف الصلاة إلى كل ما سوى اللّه ، من جميع المخلوقات : ملك وإنسان وحيوان ونبات ومعدن بحسب ما فرضت عليه وعينت له.

قال تعالى): أَ لَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَنْ فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَالطَّيْرُ صَافَّاتٍ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ)فأضاف الصلاة إلى الكل ، والتسبيح في لسان العرب الصلاة.

وإقامة الصلاة ظهور نشأتها على أتم خلقها ، وخلقها يختلف باختلاف من تنسب إليه ، وكل صلاة مما ذكرنا تامة الخلقة ، حتى الصلاة المنسوبة إلى الجماد والنبات والحيوان ، ما عدا الإنس والجان.

فإن صلاتهما إذا أنشئاها قد تكون مخلقة أو غير تامة الخلقة ، لذلك أمرهما تعالى بقوله« وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ » *وإقامة البشر للصلاة المنسوبة إلى الإنسان والجن هو أن تنسب إليهم بمعنى الرحمة ، كما نسبت إلى الحق ، وبمعنى الدعاء والرحمة ، كما نسبت إلى الملائكة . وبمعنى الدعاء والرحمة وإتمام التكبير والقيام والركوع والسجود والجلوس كما ورد في الخبر ، فمن أتم ركوعها وسجودها وما شرع فيها ، وإن كان في جماعة مما تستحقه صلاة الجماعة والائتمام فقد أكمل خلقها ، وإن كان انتقص منها شيء كانت له بحسب ما انتقص منها ، واللّه لا يقبلها ناقصة.

فيضم بعض الصلوات إلى بعض فإن كانت له مائة صلاة وفيها نقص كملت بعضها من بعض ، وأدخلت على الحق كاملة ، فتصير المائة صلاة مثلا ثمانين صلاة أو خمسين أو عشرة أو زائدا على ذلك أو ناقصا عنه ، هكذا هي صلاة الثقلين ، وربط إقامة الصلاة بأزمان هي الأوقات المفروض فيها إقامة الصلوات المفروضات ، قال تعالى(إِنَّ الصَّلاةَ كانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتاباً مَوْقُوتاً)أي مفروضة في وقت معين سواء كان موسعا أو مضيقا ، وربطها بأماكن وهي المساجد ، والمبادرة إلى أول الأوقات في العبادات هو الأحوط والمطلوب من العباد في حال التكليف ،

من كتاب إيجاز البيان في الترجمة عن القرآن:
يفعل شيئا قبل فعل إمامه ، والحالة الثالثة أن يكون في جماعة ، فمن تمام صلاته التراص في الصف وإلزاق المناكب وتسوية الصف ، فهذا إقامة الصلاة ، وسميت صلاة لأنها في المرتبة الثانية من شهادة
ص 58

قال تعالى) :أُولئِكَ يُسارِعُونَ فِي الْخَيْراتِ وَهُمْ لَها سابِقُونَ)ولهذا الاحتراز والاحتياط يحمل الأمر الإلهي – إذا ورد معرى عن قرائن الأحوال التي يفهم منه الندب أو الإباحة – على الوجوب ، ويحمل النهي كذلك على الحظر إذا تعرى عن قرينة حال تعطيك الكراهة ، ولا تتوقف عن حمل الأمر والنهي على ما قلناه ، إلا بقرينة حال تخرجهما عن حكم الوجوب في الأمر ، وحكم الحظر في النهي .« وَمِمَّا رَزَقْناهُمْ يُنْفِقُونَ »فرضا كان أو تطوعا ، فالفرض من ذلك قد عين اللّه أصنافه ، ورتّبه على نصاب وزمان معين ، والتطوع من ذلك لا يقف عنده شيء ، وجعله تعالى إنفاقا لأنه له وجه ونسبة إلى الحق ، ووجه ونسبة إلى الخلق ، لأنه من النفق وهو جحر اليربوع ويسمى النافقاء ، له بابان إذا طلب من باب ليصاد خرج من الباب الآخر ، كالكلام المحتمل إذا قيدت صاحبه بوجه ، أمكن أن يقول لك إنما أردت الوجه الآخر من محتملات اللفظ . ورد أن الصدقة تقع بيد الرحمن قبل وقوعها بيد السائل فيربيها له كما يربي أحدكم فلوه أو فصيله ، فهذه نسبة إلهية مع الغنى المطلق الذي يستحقه ، والنسب الإلهية لا ينكرها إلا من ليس بمؤمن خالص.
فإن اللّه يقول): وَأَقْرَضُوا اللَّهَ قَرْضاً) *واليد العليا هي المنفقة ، فهي خير بكل وجه من اليد السفلى التي هي الآخذة ، فلما كان العطاء له نسبة إلى الحق والغنى ، ونسبة إلى الخلق والحاجة سماه اللّه إنفاقا ، فالعلماء ينفقون بالوجهين فيرون الحق فيما يعطونه معطيا وآخذا ، ويشاهدون أيديهم هي التي يظهر فيها العطاء والأخذ ، ولا يحجبهم هذا عن هذا ، والمعطي بحق والآخذ بحق ليسا على السواء في المرتبة ولا في الاسم ولا في الحال.

من كتاب إيجاز البيان في الترجمة عن القرآن:
التوحيد ، وتلك السابقة . وهذه متأخرة عنها ، تأخر المصلي عن السابق في الحلبة ، فإنه

يليه ، في الحديث الصحيح (بني الإسلام على خمس : شهادة أن لا إله إلا اللّه ، وإقام الصلاة) فأتى بها ثانية تابعة بلفظة الإقامة ، وهكذا جاءت هنا« يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ »وإذا وقع الإيمان باللّه ، فليس من حيث الدليل.

وإنما هو من حيث ما جاء به الخبر من قوله: (وَإِلهُكُمْ إِلهٌ واحِدٌ)وشبه ذلك ، فصدّقنا قوله ، فذلك التصديق هو الإيمان ، وهو نور يقذفه اللّه في قلب من شاء من عباده ، قوله تعالى« وَمِمَّا رَزَقْناهُمْ يُنْفِقُونَ »من هنا للتبيين ، ولها وجه إلى التبعيض ، والآية وردت على جهة المدح بصفة الكرم ، فعلى هذا سواء كان ذلك الرزق حراما أو حلالا ، ومن حمل الرزق على أنه الحلال خاصة وهو قوله تعالى(بَقِيَّتُ اللَّهِ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ(ص 59

سورة البقرة (2) : آية 4

وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِما أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَما أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ (4(

حكم اليقين سكون النفس بالمتيقن أو حركتها إلى المتيقن ، وهو ما يكون الإنسان فيه على بصيرة أي شيء كان ، فإذا كان حكم المتيقن من النفس حكم الحاصل فذلك اليقين ، سواء حصل المتيقن أو لم يحصل في الوقت.

من كتاب إيجاز البيان في الترجمة عن القرآن:

وهو الأظهر ، فإنه جاء هذا المدح للذين يؤمنون بالغيب ، وقد نقول إن المؤمن إذا عصى بكسب المال الحرام فله التصرف فيه ، والتصرف فيه رده إلى من غصبه ، أو إلى ذريته أو إلى بيت المال ، وإن لم يوجد شيء من هذا كله تصدق به عن صاحبه ، فتعمه هذه الآية ، وأتى بلفظ« يُنْفِقُونَ »من نفقت الدابة إذا هلكت ، وقد ورد في الصحيح فيمن آتاه اللّه مالا ، فسلّطه اللّه على هلكته في اللّه ، فهو يخرجه هكذا وهكذا ، وقوله« مِمَّا رَزَقْناهُمْ »ولم يقل (من أموالهم) فأضاف الرزق إليه لقوله(وَأَنْفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلَفِينَ فِيهِ)فهم فيما في أيديهم وكلاء للّه تعالى في التصريف فيه على حد ما شرعه الموكل ،

كالسلطان على بيت المال ، فأجرهم في ذلك أجر الوكيل الموفي حق مرتبة الوكالة ، فلنفقته وإنفاقه وجهان ، وجه من حيث أنه المباشر بالعطاء ، ووجه أنه معط ما هو موكّل فيه ، ليس هو ماله ، من النافقاء وهو الجحر الذي له بابان ، قال تعالى(فَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَنْ تَبْتَغِيَ نَفَقاً فِي الْأَرْضِ)واختلف الناس في مسمى الرزق ، هل يسمى الحرام رزقا أم لا ؟ فمن جعله رزقا لمن هو بيده كان المدح بصفة الكرم ، ومن منع ذلك كان المدح أيضا بصفة الكرم ، والمدح بالوقوف عندما حد له رب المال.

قوله : (5)« وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِما أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَما أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ »يقول : والذين يصدقون بما أنزل إليك ، وهو ما أوحي به إليه من القرآن ، وقوله(لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِما أَراكَ اللَّهُ)فرأيه شرع ، وأن اللّه أراه ذلك ، فالمؤمنون يؤمنون بذلك كله ، وقوله« ما أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ »يعني من الكتب والصحف والشرائع المنزلة ، ولا يلزم من الإيمان بالشيء العمل به ، إلا حتى يكون فيما أنزل العمل بما أنزل أو ببعض ما أنزل ، فالتصديق يعم.

قال تعالى(آمَنَ الرَّسُولُ بِما أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ ، كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ)فآمنا بما أنزل من قبلنا من حيث ما أنزل على نبينا ، لا من حيث ما نقل إلينا ، وقد يدخل في هذه الآية من أسلم من أهل الكتب ، وهو قوله(يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا)بما أخبركم به محمد صلّى اللّه عليه وسلم ،

ص 60

سورة البقرة (2) : آية 5

"أُولئِكَ عَلى هُدىً مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ "(5(

عَلى هُدىً مِنْ رَبِّهِمْ »أي على بيان وتوفيق حيث صدقوا ربهم فيما أخبرهم به مما هو غيب في حقهم« وَأُولئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ »أي الناجون من عذاب اللّه الباقون في رحمة اللّه ، فإن الفلاح هو البقاء ، والآخرة هي دار البقاء.

سورة البقرة (2) : آية 6

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَواءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لا يُؤْمِنُونَ (6(
كما آمنتم به من حيث أخبركم به موسى وعيسى ، قال تعالى« يَجِدُونَهُ مَكْتُوباً عِنْدَهُمْ فِي التَّوْراةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ »فالضمير يعود عليهم بأنه نبي مبعوث إليهم أيضا في كتبهم ، فمن إيمانهم بكتبهم إيمانهم به صلّى اللّه عليه وسلم ، وما من آية إلا ولنزولها سبب ، ولكن ليس المقصود معرفة السبب إلا إذا كان مقصورا على السبب ، فيتعين عند ذلك ذكر السبب ، وكون المنزل مقصورا عليه ، فلذلك لا نتعرض في هذا التفسير لأسباب النزول في أكثره .« وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ »من يقن الماء في الحفرة إذا استقر فيها ، فلما استقر الإيمان بالغيب وبما أنزل إليك وما أنزل من قبلك وبالآخرة ، سماهم موقنين ، فأخبر عنهم بفعل الحال ، وإلى هنا انتهت جملة المبتدأ إذا كان« الَّذِينَ »مبتدأ ، وقوله« بِالْآخِرَةِ »لما قال« وَما أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ »وذكر ما كان قبله ، قال« وَبِالْآخِرَةِ »وهو ما يكون بعد مما لم يكن ، وهو من وقته إلى قيام الساعة ، إلى دخول الجنة والنار ، إلى الخلود فيها ، إلى ما لا يتناهى ولا ينقطع ، مما وردت به الأخبار الإلهية ، قوله (6)« أُولئِكَ عَلى هُدىً مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ »أولاء حرف إشارة يشار به إلى المتقين ، لقوله« فِيهِ هُدىً لِلْمُتَّقِينَ »فهو قوله« أُولئِكَ »يعني المتقين على هدى من ربهم في توقيهم الداعي لهم إلى البحث عن طريق نجاتهم حتى يتبين ، فهم على هدى من ربهم في ذلك(أَ فَمَنْ كانَ عَلى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ) *وهو الهدى ، والرب هنا بمعنى المصلح ، وهو الأوجه من سائر مدلولاته ، والمربي أيضا.
وقوله : « وَأُولئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ »حرف إشارة يشار به أيضا إلى المتقين وإلى الذين يؤمنون ، سواء كان نعتا أو مبتدأ ، وفيه بشرى ونوع تقوية لمن يقول إن المجتهد مأجور وإن أخطأ ، وإن الاجتهاد في الأصول كما هو في الفروع ، والمفلحون : معناه الناجون من عذاب اللّه ، الباقون في دار كرامة اللّه.
قال تعالى : (وَما هُمْ مِنْها بِمُخْرَجِينَ)وفي هذه الآيات من أول السورة إلى هنا تكذيب لقول من قال لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كانَ هُوداً أَوْ نَصارى)فكذبهم في التحجير . قوله (7)« إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا«
ص 61

لأنهم قالوا سواء علينا أوعظت أم لم تكن من الواعظين فكأن اللّه حكى لنبيه صلّى اللّه عليه وسلم وعرفه بأن حالهم ما ذكروه عن نفوسهم ، فهذه ظلمة قد تكون ظلمة جهل ، وقد تكون ظلمة جحد لهوى قام بهم ، وهو أشد الظلم.

سورة البقرة (2) : آية 7

﴿خَتَمَ اللَّهُ عَلى قُلُوبِهِمْ وَعَلى سَمْعِهِمْ وَعَلى أَبْصارِهِمْ غِشاوَةٌ وَلَهُمْ عَذابٌ عَظِيمٌ﴾ (7(»خَتَمَ اللَّهُ عَلى قُلُوبِهِمْ »بخاتم الكفر فلا يدخله الإيمان مع علمهم به ،« وَعَلى سَمْعِهِمْ »أي ختم على سمع فهمهم فهم الجهلاء ، لا يعلمون ما أراد اللّه بما قاله« وَعَلى أَبْصارِهِمْ غِشاوَةٌ »وعلى أبصار عقولهم غشاوة ، حيث نسبوا ما رأوه من الآيات إلى

من كتاب إيجاز البيان في الترجمة عن القرآن:
الآية ، يقول : بكل ما تقدم ذكره ، الكافر هو الساتر للحق ، والساترون الحق على قسمين:
قسم يسترون الحق مع معرفتهم بأنه الحق ، فلا يتمكن أن يستروه عن نفوسهم ، بل يستروه عن الغير بما يوردونه من الشبه المضلة والتشكيكات الصارفة عن ظهوره ، وهو قوله تعالى(يَعْرِفُونَهُ كَما يَعْرِفُونَ أَبْناءَهُمْ) *وقوله(وَجَحَدُوا بِها وَاسْتَيْقَنَتْها أَنْفُسُهُمْ)فهؤلاء جاحدون ، والقسم الآخر هو الذي ستر الحق عن نفسه بما ظهر له من الشبه ، فقامت له سترا بينه وبين الحق ، فيسمى أيضا هذا كافرا لأنه ما وفّى النظر حقه في الأدلة ، فالأول معاند ، والثاني مفرّط ، قال اللّه لنبيه عليه السلام« سَواءٌ عَلَيْهِمْ »ولم يقل عليك« أَ أَنْذَرْتَهُمْ »يقول : خوفتهم وأعلمتهم بأسباب السعادة والشقاء« أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ »يقول : أو سكت عنهم« لا يُؤْمِنُونَ »يقول : لا يصدقون ، إما عنادا وجحدا ، وإما جهالة ، والأظهر هنا إرادة القسم الواحد وهم الجاهلون ، من أجل ما يأتي بعد من ذكر القلوب ، فالمعاند عالم ومصدق في الباطن ، غير مظهر لما هو به مصدق ، فإنه لا يقدر في نفسه أن ينكر علمه بالشيء ، ولا أن يجعله جهلا ، فهؤلاء أيضا هم الذين جعل اللّه جزاءهم عدم المغفرة في قوله تعالى(سَواءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ

لَهُمْ)ولم يقل عليك فإنه ليس عليه صلّى اللّه عليه وسلم سواء ، وهم سواء دعاؤه إياهم أو سكوته عنهم ، ما يتغير عليهم الحال في نفوسهم ، وهذا يؤيد أن المراد بالذين كفروا هنا من جهل لا من عاند مع علمه(لا يُؤْمِنُونَ(

أي لا يصدقون بما أعلمتهم ، والتصديق حالة قلبية . قوله (8)« خَتَمَ اللَّهُ عَلى قُلُوبِهِمْ »الآية ، العالم بالشيء ما ختم على قلبه ، لكن الجاهل بالشيء مختوم على قلبه ، قوله« خَتَمَ اللَّهُ عَلى قُلُوبِهِمْ »وما ذكر الطبع هنا ، بل ذكره في موضع آخر ، قال تعالى(أُولئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلى قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصارِهِمْ)والطبع النقش الذي يكون في الختم ، والختم هو القفل . فقال

ص 62

السحر [طب[

طب إذا استرخت الطبقة الصلبة التي في البصر حصل الضرر ، فالرخاوة غشاوة ،« وَلَهُمْ عَذابٌ عَظِيمٌ »العذاب إنما سماه اللّه بهذا الاسم إيثارا للمؤمن ، فإنه يستعذب ما يقوم بأعداء اللّه من الآلام ، فهو عذاب بالنظر إلى هؤلاء ، ومن وجه آخر سمي عذابا ما يقع به الآلام بشرى من اللّه لعباده ، أن الذي تتألمون به لا بد إذا شملتكم الرحمة أن تستعذبوه وأنتم في النار ، كما يستعذب المقرور حرارة النار والمحرور برودة الزمهرير ، ولهذا جمعت جهنم النار والزمهرير لاختلاف المزاج ، فما يقع به الألم لمزاج مخصوص يقع به النعيم في مزاج آخر يضاده ، فلا تتعطل الحكمة ، ويبقي اللّه على أهل جهنم الزمهرير على المحرورين والنار على المقرورين فينعمون في جهنم ، فهم على مزاج لو دخلوا به الجنة تعذبوا بها لاعتدالها ، فسمى العذاب عذابا لأن المآل إلى استعذابه لمن قام به بعد شمول الرحمة ، كما يستحلي الجرب من يحكه ، فإذا حكه من غير جرب أو حاجة من يبوسة تطرأ على بعض بدنه تألم لحكه .عناية ربي أدركت كل كائن * من الناس في ختم القلوب وفي الطبعومن أجل ذا لم يدخل الكبر قلبهم * على موجد الصنع الذي جل من صنعولولا وجود السمع في الناس ما اهتدوا * وليس سوى علم الشريعة والوضعفكم بين أهل النقل والعقل يا فتى * وهل تبلغ الألباب منزلة السمع

من كتاب إيجاز البيان في الترجمة عن القرآن:
تعالى: (أَمْ عَلى قُلُوبٍ أَقْفالُها) ،وقال هنا« خَتَمَ اللَّهُ عَلى قُلُوبِهِمْ »أي الذين قالوا(قُلُوبُنا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونا إِلَيْهِ)هو منّا ، ثم قال« وَعَلى سَمْعِهِمْ »أي وختم على سمعهم حين قالوا(وَفِي آذانِنا وَقْرٌ)أي هو منّا ، وقال تعالى« وَعَلى أَبْصارِهِمْ غِشاوَةٌ »لقولهم : (وَمِنْ بَيْنِنا وَبَيْنِكَ حِجابٌ)أي هو منّا ثم قالوا: (فَاعْمَلْ إِنَّنا عامِلُونَ)فقال اللّه :« وَلَهُمْ عَذابٌ عَظِيمٌ »وهو العمل الذي قالوه وطلبوه ، والختم الذي على السمع هو بينه وبين القلب ، لا بينه وبين الكلام ، فإنه سمع الكلام من الرسول بلا شك ، ولكن لجهله بما سمع أنه حق في نفس الأمر وعدم تصديقه ، كان عنده كمثل الصوت من الإنسان عند البهائم التي لا تعقل معناه ، وهو قوله تعالى : (كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِما لا يَسْمَعُ إِلَّا دُعاءً وَنِداءً ، صُمٌّ ، بُكْمٌ ، عُمْيٌ ، فَهُمْ لا يَعْقِلُونَ)أن ذلك المصوّت به حق فيما يدعو إليه ، وكذلك قوله« وَعَلى أَبْصارِهِمْ غِشاوَةٌ »وما جعله ختما ، أي حائل بينه وبين القلب أن يعلم القلب أن ذلك المبصر من المعجزات الموقوفة على إدراك البصر أنها حق ، مثل نبع الماء من بين أصابعه ، ورؤية الطعام القليل حين أشبع الكثير ، فإن العلم به لا يحصل إلا من جهة
ص 63

سورة البقرة (2) : آية 8

وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَما هُمْ بِمُؤْمِنِينَ (8(
]حول الناس[
لم سمى اللّه تعالى البشر الناس ؟
–من باب الإشارة –الناس اسم فاعل من النسيان معرّف بالألف واللام لأنه نسي أن الحق سمعه وبصره وجميع قواه في حال كونه كله نورا ، فلما لم يتذكر الناسي هذه الحال وهو في نفسه عليها غافل عنها ، خاطبه الحق مذكرا له بهذا القرآن الذي تعبده بتلاوته ليدبروا آياته وليتذكر أولو الألباب ما كانوا قد نسوه.

من كتاب إيجاز البيان في الترجمة عن القرآن:

البصر فعاين ، فلو كان الغشاء بينه وبين المبصر ما صدق هذا القول ، فكان الغشاء بلا شك على البصر من جهة القلب ، فلا يبصر البصر القلب الذي يقبل ما جاء به ، بل جعله القلب من قبيل السحر والخيال ، فتعظيم العذاب هو العذاب من وجهين فصاعدا ، فلهم عذاب الجهل وعذاب التكذيب.

قال تعالى(فَإِنَّها لا تَعْمَى الْأَبْصارُ)فإنها أدركت بلا شك (وإنما تعمى القلوب) أعين البصائر وهو النظر في مقدمات الأدلة وترتيبها(الَّتِي فِي الصُّدُورِ)قد يكون من الرجوع عن الحق قال تعالى(يُجادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَ ما تَبَيَّنَ)لهم قوله : (9)« وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَما هُمْ بِمُؤْمِنِينَ »الناس : اسم جنس لا واحد له من لفظه ، كقوم ومعشر ورهط ، وقد قيل في تصغيره نويس ، فلا أصل له في الهمز ، وقد تكلموا في اشتقاقه وقالوا إنه من النوس وهو الصوت ، وهذا كله لا فائدة فيه ، إذ قد علمنا لفظة الناس على من ينطلق ، فأقول:

وإن كان سبب نزولها قوم مخصوصون ، فلا حاجة لذكرهم بما بيّن اللّه من صفتهم ، فكل من قامت به تلك الصفة فهو المراد بالآية إلى يوم القيامة قال تعالى :« وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ »فلم يخبر تعالى أنهم قالوا : لا إله إلا اللّه ، ولا أنهم قالوا : اليوم الآخر حق ، وإنما أخبر عنهم أنهم قالوا« آمَنَّا بِاللَّهِ »فالمفهوم الأول التصديق بوجود اللّه ووجود اليوم الآخر ، فيتصور أن يكون هنا طائفتان ، ثم أخبر تعالى بنفي الإيمان عنهم فيما ادعوه ، قولا واعتقادا ، فقال« وَما هُمْ بِمُؤْمِنِينَ »بوجود اللّه ، فيكون الإخبار عن المعطلة ، وهم على قسمين : معطلة من حيث الأصل ، ومعطلة بعد وجود ، فقوله« وَما هُمْ بِمُؤْمِنِينَ »أي بمصدقين اعتقادا ، ولا ذكر أنهم تلفظوا به ، فتحقق نفي الإيمان عن قلوبهم ، وبقي الاحتمال في هل تلفظوا أم لا ؟ واليوم الآخر ، وأما الطائفة الأخرى ، فقد يكونون مؤمنين باللّه من حيث وجوده وإن كانوا مشركين ، ولا يؤمنون باليوم الآخر ولو كانوا موحدين من حيث الدليل ، فيكون الحق قد نفى بقوله تعالى :« وَما هُمْ بِمُؤْمِنِينَ »يعني بما جئت به من الغيب عنا وباليوم الآخر ، والأظهر أنه أراد المثبتين وجوده

ص 64

سورة البقرة (2) : آية 9

﴿يُخادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَما يَخْدَعُونَ إِلاَّ أَنْفُسَهُمْ وَما يَشْعُرُونَ﴾ (9(

»يُخادِعُونَ اللَّهَ »بجهلهم القائم بهم بأن اللّه لا يعلم« وَالَّذِينَ آمَنُوا وَما يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَما يَشْعُرُونَ »في خداعهم الذين آمنوا ، فإن من خادع المؤمن فما خدع إلا نفسه ، وأما من يخادع اللّه فهو جاهل باللّه حيث تخيل أنه يلبّس على الحق وأن اللّه لا يعلم كثيرا مما يعملون ، فهو من الخاسرين فإن اللّه هو خادعهم بخداعهم ، أي هو خداع اللّه بهم لكونهم اعتقدوا أنهم يخادعون اللّه ، فما يشعرون اليوم بأن اللّه يرد عليهم أعمالهم.

من كتاب إيجاز البيان في الترجمة عن القرآن:

سبحانه سواء وحدوا أو أشركوا بقوله فيهم (10(

»يُخادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا »وهذا وأيضا قوله« وَالَّذِينَ آمَنُوا »يقوي ما ذهبنا إليه في تفسير نفي الإيمان أنه الإيمان بوجود اللّه ، فيكون« يُخادِعُونَ اللَّهَ »على دعواكم أن ثم إلها« وَالَّذِينَ آمَنُوا »يخادعون حقيقة فإنهم موجودون ، ولا يبعد جميع ما ذكرناه ، فإن هؤلاء الأصناف كلهم موجودون ، وقد دخلوا فيمن بعث إليهم رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم ، فإن رسالته عامة ، فينسحب الخطاب عليهم ، والخداع مأخوذ من المخدع ، فدخلوا فيه ليعصموا دماءهم وأموالهم لما رأوا دين اللّه ظاهرا ، فدل بقوله« يُخادِعُونَ اللَّهَ »على جهلهم باللّه ، وصورة الجهل ، إن كان يعلم ما تلفظوا به من كلمتي الشهادة فهو يعلم ما في نفوسهم من عدم التصديق بها ، وإن كان لا يعلم عدم تصديقهم فلا يعلم أيضا أنهم تلفظوا بالشهادة ، والأظهر أن مخادعتهم للّه على زعمكم أن ثم إلها ، فيبقى الخداع على الحقيقة للذين آمنوا ، الذين يخافون منهم أن يقتلوهم ، ولذلك قال« وَما يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ »أي أمثالهم.

مثل قوله(فَلا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ)ومثل قوله(كَخِيفَتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ)يريد أمثالكم ، ويحتمل أن يريد بقوله« إِلَّا أَنْفُسَهُمْ »أن يكون الخداع راجعا عليهم ، قال اللّه تعالى(يُخادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خادِعُهُمْ) ،أي خداعهم هو خداع اللّه بهم ، يؤيد ذلك قوله« وَما يَشْعُرُونَ »أي لا يتفطنون لذلك أنه من خداعنا بهم ، وأما قوله« يُخادِعُونَ اللَّهَ »ببنية المفاعلة لأن

المخادعة فعل فاعلين ، وذلك أن من شرط الخداع أن لا يعلم به المخدوع ، واللّه بكل شيء عليم.
فقال تعالى(وَهُوَ خادِعُهُمْ)اسم فاعل من خدع ولم يقل مخادعهم ، فإنه يخدعهم حقيقة ، وهم لا يقدرون أن يخدعوه ، فلم تختلف القراءة في الأول واختلف في الثاني وهو قوله« وَما يَخْدَعُونَ »و« يُخادِعُونَ »فإن المفاعلة تصح منهم في جنسهم ، لكن العالم قد يصح أن ينخدع ، فهو منخدع ، بمعنى أن يظهر لهم أنه مخدوع ،
ص 65

سورة البقرة (2) : آية 10

﴿فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزادَهُمُ اللَّهُ مَرَضاً وَلَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ بِما كانُوا يَكْذِبُونَ﴾ (10(»فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ »شك مما جاءهم به رسولي ، وهذا المرض هو الشبه المضلة القادحة في الأدلة وفي الإيمان ، تحول بين العقل من العاقل وبين صحة الإيمان« فَزادَهُمُ اللَّهُ مَرَضاً »شكا وحجابا« وَلَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ »يوم القيامة ، وسمي ما يتألم به أهل الشقاء عذابا لأن السعداء يستعذبون آلام أهل الشقاء ، إيثارا لجناب الحق حيث أشركوا ، فلهم في أسباب الآلام نعيم ، فسمى الحق ذلك عذابا إيثارا لهم حين آثروه ، وقوله تعالى« أَلِيمٌ »اعلم أن قيام الألم ووجوده في نفس المتألم ، ما هو السبب المربوط به عادة ، كوجود الضرب بالسوط ، والحرق بالنار ، والجرح بالحديد ، وما أشبه ذلك من الآثار الحسية مما يكون عنها الآلام الحسية ، وكذلك ضياع المال ، والمصيبة في الأهل والولد ، والتوعد بالوعيد ، وجميع الأسباب الخارجة عنه الموجبة للآلام النفسية عادة ، إذا حصلت بهذا الشخص فتسمى هذه الأسباب عذابا ، وليس في الحقيقة عذابا ، وإنما العذاب هو وجود الألم عند هذه الأسباب ، لا عين الأسباب.

من كتاب إيجاز البيان في الترجمة عن القرآن:
بعدم المؤاخذة في الحال ، فيتوهمون لحلمه أنهم خدوعه ، قوله (11)« فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزادَهُمُ اللَّهُ مَرَضاً وَلَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ بِما كانُوا يَكْذِبُونَ »يقول في قلوبهم مرض الجهل

باللّه ، فزادهم اللّه مرضا بإنزاله سور القرآن ، قال تعالى(فَزادَتْهُمْ رِجْساً إِلَى رِجْسِهِمْ)كما قال في المؤمنين(زادَهُمْ هُدىً)و (زادتهم إيمانا وهم يستبشرون) وهؤلاء بذلك يتألمون ، والألم هو المرض عينه ، وهو أيضا قوله تعالى(وَإِذا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ(

وما قال : باللّه ، أي انقبضت لما وجدت من ألم نسبة الوحدة للّه في الألوهية ، ومما يدل على جهلهم بالتوحيد ، قوله(أَ جَعَلَ الْآلِهَةَ إِلهاً واحِداً إِنَّ هذا لَشَيْءٌ عُجابٌ)فبعث الرسل للكفار زادهم مرضا ، لخطاب الوقت ، فزادهم ألما« وَلَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ »أي موجع ، والألم هو العذاب نفسه ، وقد يطلق العذاب على سبب الألم ، كما أن النعيم إنما هو اللذة نفسها ، وقد يطلق على سببها المعهود ، وقوله تعالى« بِما كانُوا يَكْذِبُونَ »هذه باء السبب ، أي بسبب تكذيبهم ما جاء به محمد صلّى اللّه عليه وسلم من الخبر عنا ، فإن التكذيب متعلقه الخبر ، فهذا عذاب مخصوص من أجل صفة مخصوصة ، وما قال : ولهم عذاب أليم بمرضهم الأول والمزاد ، وجاء بلفظة العذاب ولم يكتف به حتى قال« أَلِيمٌ »وذلك ص 66

سورة البقرة (2) : الآيات 11 إلى 12

﴿وَإِذا قِيلَ لَهُمْ لا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قالُوا إِنَّما نَحْنُ مُصْلِحُونَ (11) أَلا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلكِنْ لا يَشْعُرُونَ (12(﴾

الشعور علم إجمالي قطعي أن ثم مشعورا به لكن لا يعلم ما هو ذلك المشعور به.

سورة البقرة (2) : آية 13

﴿وَإِذا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَما آمَنَ النَّاسُ قالُوا أَ نُؤْمِنُ كَما آمَنَ السُّفَهاءُ أَلا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهاءُ وَلكِنْ لا يَعْلَمُونَ﴾ (13(

السفيه : هو الضعيف الرأي ، يقولون إنهم ما آمنوا الا لضعف رأيهم وعقلهم فجاز

من كتاب إيجاز البيان في الترجمة عن القرآن:

لأن العذاب فيه ضرب من اللذة ، ومنه في صفة الماء(عَذْبٌ فُراتٌ) *ولما كان في إيلام الكفار باللّه ورسوله سرور المؤمنين قال(وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ)(وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ)سماه عذابا للعذوبة التي تحصل منه للمؤمن.

ومن قرأ « يكذبون » مخففا من الكذب في قوله(آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ)فهي زيادة مرض آخر ، والمرض الأول اعتقادهم التكذيب بقلوبهم ، فزادهم اللّه مرضا آخر نكرة ، وهو أن نطّقهم بألسنتهم ما ليس في قلوبهم ، ولكل جنس من المرضين عذاب مخصوص ، فلذلك وردت القراءتان معا ، أي أنهم مجازون على التكذيب بالنار التي تطلع على الأفئدة ، وعلى الكذب بالنار التي تتسلط على الجوارح.

قوله (12)« وَإِذا قِيلَ لَهُمْ لا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ »الضمير في لهم يعود على الذين كفروا خاصة« قالُوا إِنَّما نَحْنُ مُصْلِحُونَ »في زعمهم ، قال تعالى(أَ فَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَناً)وقال تعالى وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطانُ أَعْمالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ) *الذي هو قول اللّه« لا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ »فلما كانوا على عمل هو فساد عند اللّه تعالى ، وصلاح في نظرهم ، اعتقدوا أن ما خالف عملهم من الأعمال المقابلة لها وترك أعمالهم هو الفساد ، فاعتقدوا أن المؤمنين على فساد لمخالفتهم ما هم عليه ، فقال تعالى في مقابلة هذا الاعتقاد وإن لم يجر له لفظ : (13)« أَلا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ »دل عليه المعنى« وَلكِنْ »استدراك« لا يَشْعُرُونَ »أي لا يفطنون لذلك ، فلم يكونوا معاندين ولا جاحدين ، بل هم جاهلون ، قوله (14)« وَإِذا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا . . . »الآية ، الضمير أيضا يعود على الذين كفروا

ص 67

ذلك عليهم لقول اللّه« أَلا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهاءُ »أي الذين ضعفت آراؤهم ، فحال ذلك الضعف بينهم وبين الإيمان« وَلكِنْ لا يَعْلَمُونَ. «

سورة البقرة (2) : آية 14

﴿وَإِذا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قالُوا آمَنَّا وَإِذا خَلَوْا إِلى شَياطِينِهِمْ قالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّما نَحْنُ مُسْتَهْزِؤُنَ﴾ 14(

كان المنافقون في زمان رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم يأتون إلى المؤمنين بوجه يظهرون أنهم معهم ، ويأتون إلى المشركين بوجه يظهرون به أنهم معهم ، ويقولون« إِنَّما نَحْنُ مُسْتَهْزِؤُنَ »وما أخذ اللّه المنافقين إلا بما زادوا به على صورة النفاق ، ولو أنهم بقوا على صورة النفاق من غير زيادة لسعدوا يقول تعالى :« وَإِذا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قالُوا آمَنَّا »لو قالوا ذلك حقيقة لسعدوا ،« وَإِذا خَلَوْا إِلى شَياطِينِهِمْ قالُوا إِنَّا مَعَكُمْ »لو قالوا ذلك وسكتوا ما أثر فيهم الذم الواقع ، وإنما زادوا« إِنَّما نَحْنُ مُسْتَهْزِؤُنَ »فشهدوا على أنفسهم أنهم كانوا كاذبين ، فما أخذوا إلا بما أقروا به ، يدلنا على ذلك ما أخبر اللّه به عن نفسه في مؤاخذته إياهم فقال:

من كتاب إيجاز البيان في الترجمة عن القرآن:

خاصة ، فإن الآخرين قالوا(آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ)وإن كانوا كاذبين في مقالتهم تلك« كَما آمَنَ النَّاسُ »يعني المؤمنين« قالُوا أَ نُؤْمِنُ كَما آمَنَ السُّفَهاءُ »السفه عدم الرشد ، والتصرف على ما لا تقتضيه الحكمة ، وضعف الرأي.

قال اللّه لهم مخبرا لنا« أَلا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهاءُ » .يقول:

هم الضعفاء الرأي لا أنتم ، فعاد ما نسبوه للمؤمنين إليهم ، قال عليه السلام (إنما هي أعمالكم ترد عليكم) وجاء في الصحيح (من قال لأخيه : كافر فقد باء به أحدهما) أي بوصف الكفر ، إن كان كما قال فصح الوصف ، وإن لم يكن كما قال جاز ذلك على القائل لأنه من قال إن الإسلام كفر فقد كفر ، والسعيد من استبرأ لدينه ولا يكفر أحدا من أهل القبلة بذنب ، والعلم واسع والوجوه كثيرة ، ثم قال« وَلكِنْ لا يَعْلَمُونَ »أنهم هم السفهاء ، فإن السفه عندهم ترك ما هم عليه ومخالفته.

قوله (15)« وَإِذا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قالُوا آمَنَّا »إلى قوله« يَعْمَهُونَ. «

الضمير في لقوا يعود على الناس الذين قالوا آمنا باللّه وباليوم الآخر وما هم بمؤمنين ، كانوا ويكونون إلى يوم القيامة من هذه صفتهم« إِذا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قالُوا آمَنَّا »أي صدقنا بالذي صدقتم به ليعصموا دماءهم وأموالهم(وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ طَوْعاً وَكَرْهاً) فهؤلاء سجدوا كرها ، وآمنوا

ص 68

سورة البقرة (2) : آية 15

﴿اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ (15(

فأخبر اللّه تعالى أنه يستهزئ بهم بذلك الفعل الذي يفعلونه مع المؤمنين ، وهم لا يشعرون ، فهذا من مكر اللّه بهم ، فما أخذهم بقولهم« إِنَّا مَعَكُمْ »وإنما أخذهم بما زادوا به على النفاق وهو قولهم :« إِنَّما نَحْنُ مُسْتَهْزِؤُنَ »وما عرفك اللّه بالجزاء الذي جازى به المنافق إلا لتعلم من أين أخذ من أخذ ، حتى تكون أنت تجتنب موارد الهلاك« وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيانِهِمْ يَعْمَهُونَ »حيث تمادوا على غيهم بعد ما عرفوا من بيده الاقتدار ، وعدلوا عنه ، وعملوا

من كتاب إيجاز البيان في الترجمة عن القرآن:

كرها ، لظهور أهل الإيمان بالسيف عليهم« وَإِذا خَلَوْا إِلى شَياطِينِهِمْ قالُوا إِنَّا مَعَكُمْ »إلى هنا بمعنى مع ، يقول : وإذا خلوا مع شياطينهم من الإنس الباقين على كفرهم ، أو خلا بعضهم مع بعض يقولون ذلك ، فإنهم كلهم شياطين قال تعالى(شَياطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُوراً)وهو قدحهم في أهل الإيمان من حيث إيمانهم ، وتزيين ما هم عليه من الباطل ، قال تعالى في اليهود والنصارى(بَعْضُهُمْ أَوْلِياءُ بَعْضٍ)أي ينصر بعضهم بعضا« قالُوا إِنَّا مَعَكُمْ »أي على الذي أنتم عليه ، ما غيّرنا ولا بدلنا« إِنَّما نَحْنُ مُسْتَهْزِؤُنَ »بهم وتقيّة لما ينجر في ذلك إلينا من المصالح في أنفسنا وأموالنا وذرارينا ، يقولون : نسخر بهم ، فقال اللّه تعالى (16(

»اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ »أي يسخر بهم ، وذلك على وجهين : الوجه الواحد أن استهزاءهم بالمؤمنين هو عين استهزاء اللّه تعالى بهم من حيث لا يشعرون ، ومنه(وَمَكَرُوا مَكْراً وَمَكَرْنا مَكْراً وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ)أن عين ما اعتقدوه أنه مكرهم هو مكري بهم ، ومن هذا الباب(إِنْ تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَما تَسْخَرُونَ)وقوله تعالى(يُخادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خادِعُهُمْ) ،والوجه الآخر ينقسم إلى وجهين : وجه يقتضيه العدل فيكون جزاء ، ووجه يقتضيه الاستهزاء ، جزاء أيضا في عمل واحد ، وذلك أنه إذا كان يوم القيامة وهو قوله تعالى(كَما

تَسْخَرُونَ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ)فخلصه للاستقبال ، وهو يوم القيامة ، يحشر اللّه هذه الأمة وفيها منافقوها ، فإذا اتبعت كل أمة ما كانت تعبد ، ودخلت الأمم النار ، ونصب الصراط على جسر جهنم ، أتي بهؤلاء المنافقين الذين أظهروا الإيمان بألسنتهم ، وصلوا وصاموا وقاموا بفروع الشريعة في الصورة الظاهرة كما قام المؤمنون ، أتى بهم اللّه تعالى حتى [انفهقت] « * » لهم الجنة بما تحويه من الخير والسرور ، فتنعموا برؤيتها

[. . .] (*)جاءت في الأصل وفي الفتوحات المكية في الباب الأخير ، باب الوصايا ، الوصية رقم 58 (انفقهت) والصواب (انفهقت. (

ص 69

لغيره مما نصبوه بأيديهم وأيدي من هو من جنسهم إلها ، وظهر لهم عجزه مما يزيد في شقاوتهم.

]تنبيه في الذكر[

–نبيه : إذا ذكرت فاعلم بلسان من تذكر ، وإذا تلوت فاعلم بلسان من تتلو ، وما تتلو ، وعمن تترجم.

مثال ذلك قوله تعالى :« ﴿وَإِذا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قالُوا ﴾إلى هنا قول اللّه« ﴿آمَنَّا﴾ »حكاية عن المنافقين﴾« ﴿وَإِذا خَلَوْا إِلى شَياطِينِهِمْ قالُوا »إلى هنا قول اللّه﴾ ﴿إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّما نَحْنُ مُسْتَهْزِؤُنَ﴾ »حكاية فهكذا فلتعرف الأمور إذا وردت ، حتى يعلم قول اللّه من قول ما يحكيه لفظا أو معنى كل إنسان بما هو عليه ، فإن اللّه قد ترجم لنا قول أقوام مثل فرعون وغيره باللسان العربي والمعنى واحد ، فهذه الحكاية على المعنى.

من كتاب إيجاز البيان في الترجمة عن القرآن:

وظنوا أنهم داخلوها ، فكانت تلك النظرة والفرح الذي قام لهم بالطمع بدخلوها جزاء لما

جاءوا به من الأعمال الظاهرة ، ظاهرا بظاهر ، عدلا منه سبحانه ، فإذا طابق الجزاء أعمالهم وأخذوا حقهم ، وهم لا يعلمون أنهم يصرفون عنها.

ضرب اللّه بينهم وبين الجنة سورا باطنه الجنة ، وظاهره من قبله العذاب ، فيؤمر بهم إلى النار ، فهذا هو استهزاء اللّه بهم وسخرية اللّه بهم ، فجمع سبحانه في هذا الفعل الواحد بين العدل والاستهزاء ، كما جمعوا بين الإسلام والكفر ، وليس للمنافقين من النار إلا الدرك الأسفل ، وهي النار التي تطلع على الأفئدة ، قال تعالى(إِنَّ الْمُنافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ)وليس لهم في أعلاها مكان إلا على قدر معاصيهم الظاهرة.

والكافر يتعذب في النار علوا وسفلا ، بخلاف المنافق ، وكلهم في جهنم جميعا ، وهذا من عدل اللّه ، فإنه ليس في الجنة موضع ولا في النار موضع إلا وله عمل يطلبه من فعل وترك ، إلا ما في الجنة من أمكنة الاختصاص ، وليس في النار ذلك ، ولهذا ما ورد في القرآن يختص بنقمته من يشاء ، وورد يختص برحمته من يشاء ، فالنار ينزل فيها بالأعمال ، والجنة ينزل فيها بالأعمال والاختصاص الإلهي.

ولذا قال (سبقت رحمتي غضبي) إلى الاختصاص ، واللّه واسع الرحمة كما قال ، ولم يقل ذلك في النقمة ، فتحقق ما ذكرناه ، ثم قال« وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيانِهِمْ يَعْمَهُونَ »يقول : يملي لهم مما هم فيه.

قال تعالى(إِنَّما نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدادُوا إِثْماً)(وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ)وقوله« فِي طُغْيانِهِمْ »أي في تغاليهم ، أي فيما ارتفعوا فيه من الضلالة في بواطنهم إذا كانوا مع المؤمنين ، وفي ظواهرهم إذا كانوا مع أشكالهم من شياطينهم ، من طغى الماء إذا ارتفع وزاد على حده(إِنَّا لَمَّا طَغَى الْماءُ حَمَلْناكُمْ)أي ارتفع ، وقوله تعالى« يَعْمَهُونَ »أي يحارون ، والعمة الحيرة والضلال ،

ص 70

سورة البقرة (2) : آية 16

﴿أُولئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلالَةَ بِالْهُدى فَما رَبِحَتْ تِجارَتُهُمْ وَما كانُوا مُهْتَدِينَ (16 (﴿أُولئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلالَةَ بِالْهُدى﴾[1] :أي باعوا الهدى بالضلالة ، واشتروا الحيرة بالبيان فخسروا .« فَما رَبِحَتْ تِجارَتُهُمْ وَما كانُوا مُهْتَدِينَ »المؤمن ممدوح في القرآن بالتجارة والبيع فيما يملك بيعه ، قال تعالى : ﴿لا تُلْهِيهِمْ تِجارَةٌ وَلا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ﴾[2])وقال تعالى : ﴿هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلى تِجارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذابٍ أَلِيمٍ تُؤْمِنُونَ بِاللَّه﴾[3] وقال –تعالى– : ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ﴾ وما صرّح اللّه في المؤمن بأنّه يشتري خاصّة، وما وصف الشّراء في القرآن إلّا مَن أشهدهم اللّه عن جناية.

فقال :« ﴿أُولئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلالَةَ بِالْهُدى﴾

والسّبب في أن المؤمن ما وصفه اللّه بالشّراء، فإنّه خلقه اللّه، وملكه جميع ما خلق اللّه في أرضه الذي هو مسكنه ومحلّه: ﴿خَلَقَ لَكُمْ ما فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ فجميع ما في الأرض ملكه فما بقي له ما يشتريه ، وحجّر عليه الضلالة وهي صفة عدمية ، فإنها عين الباطل وهو عدم ، ولم يأمرنا اللّه باتباعه.

فإذا اشترينا الضلالة فقد اخترنا العدم على الوجود ، والباطل على الحق الذي خلقنا له ، فلم يوصف المؤمن بالشّراء ، وشرع له البيع فيما أبيح له بيعه ، ومما ملكه اللّه ما هو مباح له ، وما هو واجب عليه أن لا يخرجه ولا يبيعه ، فكأن المؤمن ملك حلة الإباحة ، وحلة الوجوب ، فخلع عن نفسه حلة الإباحة ، ولبس حلة الوجوب ، وكلاهما له ، فسمّى خلعه لها بيعا ، وما سمى لباسه للوجوب شراء ، فإنها ملكه ورحله ومتاعه والإنسان لا يشتري ما يملكه ، ولما حجر اللّه الضلالة على خلقه ورجح من

من كتاب إيجاز البيان في التّرجمة عن القرآن:

قوله (17) ﴿أُولئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلالَةَ﴾ الآية ، أولاء حرف إشارة ، أشار بها إلى كل من تقدم ذكره من منافق وكافر ، وأما إخبار اللّه تعالى عنهم أنهم ﴿اشْتَرَوُا الضَّلالَةَ بِالْهُدى﴾ دلّ على أنّه كان عندهم هدى باعوه بهذه الضّلالة ، وأنّ الذين اشتروا منهم

1
2
3

الهدى كان عندهم ضلالة ، فالتّرجمة عن ذلك ، كل مولود يولد على الفطرة ، وأبواه هما اللذان يهوّدانه أو ينصّرانه أو يمجسانه ، والفطرة التي فطر الناس عليها هي الإقرار منهم للّه بالربوبية عليهم في قوله –تعالى–: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلى أَنْفُسِهِمْ أَ لَسْتُ بِرَبِّكُمْ قالُوا بَلى﴾ فهذا هو الهدى ،

ص 71

رجح منهم الضّلالة على الهدى اشتروا ﴿الضَّلالَةَ﴾، فإنّهم لم يكونوا يملكونها ﴿بِالْهُدى﴾ الذي ملكهم اللّه إياه ﴿فَما رَبِحَتْ تِجارَتُهُمْ وَما كانُوا مُهْتَدِينَ﴾ في ذلك الشّراء، لأنّ اللّه ما شرّع لعباده الشّراء، فاعتبر الحقّ جانب البيع، ولم يعتبر في حقّ المؤمن جانب الابتياع.

سورة البقرة (2): آية 17

﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ ناراً فَلَمَّا أَضاءَتْ ما حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُماتٍ لا يُبْصِرُونَ﴾ (17(

ذهب اللّه بنوره أي أزاله عن أبصارهم، أي أنّ اللّه أعدم النّور من أبصارهم ، وتركهم

من كتاب إيجاز البيان في الترجمة عن القرآن:

كان بأيديهم ، وما من هدى إلا وفي مقابلته ضلالة ، وهو تركه ، فجاء المؤمنون الذين بقوا على هداهم ، أو رجعوا إلى هداهم بإجابتهم دعوة الحق بلسان الرسول –صلّى اللّه عليه وسلّم– حين دعاهم، وجاء الذين لم يجيبوا داعي اللّه، فأخذ المؤمنون هداهم وعوضهم عن ذلك الضّلال الذي في مقابلة هداهم لو لم يهتدوا ، فضلّ هؤلاء الذين اشتروا الضلالة بما عوّضوا به زيادة على ضلالتهم، قال –تعالى–: ﴿فَزادَتْهُمْ رِجْساً إِلَى رِجْسِهِمْ﴾، يعني: هذه الصّفقة، وهي السورة المنزلة، وازداد المؤمنون هدى إلى هداهم ، قال –تعالى–: ﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا﴾، يعني: بهداهم الذي كان لهم ﴿زادَهُمْ هُدىً﴾، وهو الهدى الذي باعه الكفار منهم ، فكان للمؤمنين نور على نور ، وكان للكافرين ظلمات بعضها فوق بعض ، فهم في ظلمات لا يبصرون، والمؤمنون نورهم يسعى بين أيديهم ، فقال –تعالى– في صفة

الكفار: ﴿فَما رَبِحَتْ تِجارَتُهُمْ وَما كانُوا مُهْتَدِينَ﴾، أي خسروا في متجرهم لكونهم سفهاء، وهو تأكيد لقوله –تعالى–: ﴿أَلا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهاءُ﴾، وأيّ صفة أعظم من سفه تاجر لا يدري كيف يحفظ رأس ماله، الذي هو الدين هنا ، قال –تعالى–: ﴿هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلى تِجارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذابٍ أَلِيمٍ﴾ قيل وما هي ؟

قال: ﴿تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾، فأبوا واختاروا العمى على الهدى ، واشتروا الكفر بالإيمان من المؤمنين ، ليزداد المؤمنون إيمانا مع إيمانهم ، قال –تعالى–: لِيَزْدادُوا إِيماناً مَعَ إِيمانِهِمْ ﴿يَرْجُونَ تِجارَةً لَنْ تَبُورَ﴾، فقوله: ﴿وَما كانُوا مُهْتَدِينَ﴾ هنا ، أي ما رشدوا ولا اتّخذوا سبيل الرّشد سبيلًا.

ثمّ إنّ اللّه –تعالى– ضرب لنا فيهم إذا لقوا المؤمنين مثلًا، وضرب لنا مثلا آخر فيهم وفيما أنزل من القرآن ، فقال –تعالى–: (18) ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ ناراً فَلَمَّا أَضاءَتْ ما حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُماتٍ لا يُبْصِرُونَ﴾.

هذا هو المثل الأوّل ، قوله: ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ »أي صفتهم كصفة ﴿الَّذِي اسْتَوْقَدَ ناراً﴾ ومنه: ﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ﴾، أي صفة

في ظلمات لا يبصرون. فأصحاب الشّهوات في هذه الظلمات تائهون، كما أن أصحاب الحضور التّامّ في الأنوار ينعمون.

سورة البقرة (2) : آية 18

﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لا يَرْجِعُونَ﴾ (18(

وصف الحق هؤلاء النّاس بذلك الوصف فهم صمّ وإن كانوا يسمعون، بكم وإن كانوا يتكلمون ، عمي وإن كانوا يبصرون ، صم عن سماع ما ذكرهم اللّه به، بكم عن الكلام بالحق ، عمي عن النّظر في آيات اللّه ، فهم صم فلم يسمعوا فلم يرجعوا، فإنهم لم يعقلوا ما سمعته آذانهم ، وما سمع من سمع منهم إلّا دعاء ونداء ، وهو قوله : يا فلان وما سمع أكثر من ذلك ﴿فَهُمْ لا يَرْجِعُونَ﴾ لمّا سمعوا، ولا يرجعون في الاعتبار إلى ما أبصروا، ولا

في الكلام إلى الميزان الذي به خوطبوا، فلا يرجعون عندما يبصرّون، ولا يعقلون عندما يسمعون، ولا يصيبون عندما يتكلّمون.

من كتاب إيجاز البيان في الترجمة عن القرآن:
الجنة ، ومنه(وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلى)أي الوصف ، فقال : مثلهم إذا لقوا المؤمنين – قد يمكن أن يكون اللقاء هنا منهم عن قصد – ليؤكدوا عندهم إيمانهم ، فإن المؤمن الحقيقي يدل بإيمانه ، والذي في قلبه خلاف ما تلفظ به يتخيل أنه يطّلع على ما في باطنه ، فتراه أبدا يحرص على إظهار الإيمان ابتداء من غير استدعاء ، ليؤكد عند السامع أنه بتلك الصفة ، وإن كان من لقيك فقد لقيته ، ولكن ما قال : إذا لقيهم المؤمنون ، ويؤكد ما ذهبنا إليه ما ذكره في التشبيه في قوله« كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ ناراً »وما قال : كمثل الذي وجد نارا ، والوقود من الواقد لا يكون إلا بقصد ، فلهذا رجحنا أن اللقاء كان عن قصد لما ذكرناه ، فقال تعالى : مثلهم إذا لقوا المؤمنين كمثل من استوقد نارا ، أي أوقد ، أو طلب وقود نار ، وهو ما يشرعون فيه مع المؤمنين إذا لقوهم من قولهم(آمَنَّا)فما داموا مجتمعين على ذكر الإيمان وفضائله ، هو قوله« أَضاءَتْ ما حَوْلَهُ »في التشبيه وقال : ما حوله ولم يقل فيه ، لأنه ما عنده من الإيمان إلا ذكره ، ليس فيه منه شيء ، ولذلك عصم ظاهره ، فإنه حوله ، ولم يعصم باطنه ، فإنه ليس فيه إيمان ، ثم شبه انصراف المؤمنين عنهم فينصرف نور ذكر الإيمان لانصرافهم بقوله« ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ »ثم شبه رجوعهم إلى أنفسهم وشياطينهم من أمثالهم بقوله« وَتَرَكَهُمْ »يعني المنافقين بانصراف النور عنهم« فِي ظُلُماتٍ لا يُبْصِرُونَ »يقول في طغيانهم لا يهتدون ، لأنه من لا يبصر لا يهتدي ، ولا يعلم ما حدث له في طريقة ، ثم قال (19)« صُمٌّ »عن سماع داعي الحق« بُكْمٌ »لا يتكلمون في حق« عُمْيٌ«
ص 73

سورة البقرة (2) : آية 19
﴿أَوْ كَصَيِّبٍ مِنَ السَّماءِ فِيهِ ظُلُماتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصابِعَهُمْ فِي آذانِهِمْ مِنَ الصَّواعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكافِرِينَ﴾ (19(

الصواعق هواء محترق ، والبروق هواء مشتعل تحدثه الحركة الشديدة ، والرعود هو هبوب الهواء تصدع أسفل السحاب إذا تراكم« وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكافِرِينَ »وهي إحاطة عامة ، فهي الأخذ الكلي من غير تقييد بجهة خاصة ، لكن هو أخذ بتقييد صفة وهو الكفر.

من كتاب إيجاز البيان في الترجمة عن القرآن:

لا ينظرون في الأشياء نظر اعتبار ، كما قال: ﴿وَتَراهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لا يُبْصِرُون﴾،)وقال –تعالى–: ﴿إِنَّما يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ﴾، ثم قال: ﴿فَهُمْ لا يَرْجِعُونَ﴾ إلى طريق الهدى، لأنّ اللّه ختم على قلوبهم وسمعهم وعلى أبصارهم، قوله (20) ﴿أَوْ كَصَيِّبٍ مِنَ السَّماءِ فِيهِ ظُلُماتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصابِعَهُمْ فِي آذانِهِمْ مِنَ الصَّواعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكافِرِينَ﴾ أتى بأو للتشكيك اتساعا ، فعدلوا بها عن الشك ، والأولى أن لا يعلل كلام العرب مثل هذا ، بل يقال:

ترد في اللسان للشك ، وترد للتخيير ، وكلاهما لغة ، تقول جالس فلانا أو فلانا ، فمعناه انظر في هذا المثل إن شئت ، أو في هذا المثل إن شئت ، أو فيهما ، فالمشبّه الكتاب المذكور في أول السورة الذي أنزل إليه صلّى اللّه عليه وسلم ، والمشبّه به الصيّب ، الذي هو المطر المنحدر من السماء ، وهو السحاب هنا ، نزل به الروح الأمين على قلب محمد ، وشبّه القرآن في حياة القلوب به للمؤمنين بالمطر الذي به حياة الأرض ، ثم قال« فِيهِ »يعود الضمير على السماء وهو السحاب« ظُلُماتٍ »شبه بها ما يحوي عليه القرآن من الأخبار التي أخبر الحق بها عن الكفار من قولهم(إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ)و(نَحْنُ أَبْناءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ)و(إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ) *و(يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ)فهذه الأقوال ظلمات القرآن« وَرَعْدٌ »ما فيه من الآيات الزواجر« وَبَرْقٌ »ما فيه من الآيات الدالة على التوحيد والتنزيه ، والذي وقع التشبيه بها هنا واللّه أعلم في البرق إنما هي آيات مكارم الأخلاق وصنائع المعروف التي هي محبوبة لكل نفس ، ولذا قال تعالى(كُلَّما أَضاءَ لَهُمْ مَشَوْا فِيهِ)والكافر لا تضيء له آية التوحيد حتى يمشي فيها ، وإنما ذلك آيات الوعد والرغبة ومكارم الأخلاق ، وقوله« يَجْعَلُونَ أَصابِعَهُمْ فِي آذانِهِمْ مِنَ الصَّواعِقِ »من أجل سماع الآيات الزواجر ، جمع صاعقة أي سماع هذه الآيات يجعلهم يصعقون ويخافون الصعق

لئلا يكون فيه موتهم ، أي تنصدع قلوبهم بما سمعوه ، كما اتفق لبعض زعماء المشركين وذلك أنه لما سمع النبي صلّى اللّه عليه وسلم يتلو (فإن أعرضوا فقد أنذرتكم
ص 74

سورة البقرة (2) : آية 20
﴿يَكادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصارَهُمْ كُلَّما أَضاءَ لَهُمْ مَشَوْا فِيهِ وَإِذا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قامُوا وَلَوْ شاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصارِهِمْ إِنَّ اللَّهَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (20(

﴿وَلَوْ شاءَ اللَّهُ﴾ من نسبة الأفعال إلى اللّه لا يجب عليه فعلها ولا تركها ، ولهذا جعل المشيئة في ذلك وعلقها بلو فامتنع عن نفوذ الاقتدار ، وهذا موضع إبهام لا يفتح أبدا ، فوصف الحق نفسه بما يقوم الدليل العقلي على تنزيهه عن ذلك ، فما يقبله إلا بطريق الإيمان والتسليم ، فإنه سبحانه قيد مشيئته وإرادته بلو ، وهو حرف امتناع فيه سر خفي لأهل العلم باللّه ، فإذا علمت هذا أقمت عذر العالم عند اللّه ، فالكل بيده وإليه يرجع الأمر كله ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ بالإيجاد .[سورة البقرة (2) : آية 21[
﴿يا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (21)صاعِقَةً مِثْلَ صاعِقَةِ عادٍ وَثَمُودَ﴾ ضرط وتخبّط في عقله ، وقال : إن هذا كلام جبار ، ثم قال: ﴿وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكافِرِينَ﴾ بالأخذ ، من أحاط بهم العدو ، فلا يجدون مفلتا ولا منقذا ، قال –تعالى–: ﴿وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ﴾، ﴿وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ﴾، فالمثل الأوّل في المنافقين ، وهذا المثل الآخر في الجميع ، وفي نزول القرآن وما يحويه ، ثمّ قال (21) ﴿يَكادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصارَهُمْ كُلَّما أَضاءَ لَهُمْ مَشَوْا فِيهِ﴾ يقول : يكاد ما يسمعونه من آيات الوعد والتّحضيض على مكارم الأخلاق ﴿يَخْطَفُ أَبْصارَهُمْ﴾ عن العمى ، ويردهم إلى الحق ممّا يفرحون بسماعه ، ثم قال: ﴿وَإِذا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قامُوا﴾ يقول:
وإذا سمعوا الآيات التي حكاها الحق عنهم رجعوا إليها وقاموا على دينهم وكفرهم ، أي ثبتوا ﴿وَلَوْ شاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصارِهِمْ﴾ عن الباطل ، وعن رؤية الظّلمات إلى الحق وإلى النّور، كأنّه يقول: ولو شاء اللّه لهداهم، ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِير﴾، أي على كل مقدور، أن يوجده إن كان معدوما ، أو يعدمه إن كان موجودا ، قال –تعالى–:

﴿إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ﴾ *إعدام الموجود ﴿وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ *إيجاد المعدوم ﴿وَما ذلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ﴾ *بممتنع، قوله: (22) ﴿يا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا

ص 78

"يا أَيُّهَا" إذا أيه اللّه بأحد في كتابه فكن أنت ذلك المؤيه به ، فإن أخبر فافهم واعتبر ، فإنه ما أيه بك إلا لما سمعت ، وإن أمرك أو نهاك فامتثل ، وما ثم قسم رابع ، إنما هو خبر أو أمر أو نهي ، وأنزله تعالى في خطابه إياك منزلة الأم في الشفقة ، فتلقّى منه بالقبول ما يورده عليك ، فإنه ما خاطبك إلا لينفعك ، وكن أنت المخاطب في خطاب الحق بسمعك لا بسمع الحق ، فإنه لا يأمر نفسه ولا ينهاها« يا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ »أي الأسباب التي وجدتم عندها« لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ »ثم قال لمن يرى أنا وجدنا بالأسباب لا عندها.

من كتاب إيجاز البيان في الترجمة عن القرآن:
رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ »نادى الشاردين من عباده الذين تمادوا في إعراضهم عن توحيد خالقهم ، فإن لفظة « يا » في النداء وضعت للبعد ، وكذلك (أيا) و (هيا) كما أن الهمزة وأي للقرب ، وأي حرف مبهم ، والهاء للتنبيه ، ولا بد من مفسّر يأتي بعد « يا أيها » فكان الناس هنا ، فقال« يا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ »أي تذللوا وأطيعوا مصلحكم ومربيكم ، تعريفا بالنعم« الَّذِي خَلَقَكُمْ »أوجدكم« وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ »وخلق من قبلكم ، فذكر الخلق تنبيها لاعتكافهم على عبادة آلهة لا يخلقون شيئا وهم يخلقون ، قال تعالى(أَ فَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لا يَخْلُقُ أَ فَلا تَذَكَّرُونَ) ،فلما تمدح بالخلق دل من مضمون الكلام أن لا خالق للأشياء كلها إلا هو ، من أفعال العباد وغيرها ، ولو كانت أفعال العباد خلقا لهم ، لم يكن ذكره للخلق تمدحا خاصا لوقوع الاشتراك ، فتحقق مذهب أهل الحق في أن لا موجد ولا فاعل إلا هو ، وقوله« وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ »أي أنها مخلوقة له أيضا تأكيد لما ذكرناه ، ومن قبلنا كل من تقدمنا في الخلق من مخلوقات اللّه ، من عقول ونفوس وأجسام وجسمانيات ، فإن كثيرا من الناس يضيفون

الأفعال بطريق الإيجاد إلى نفوس الأفلاك والعقول ، فبيّن اللّه أن الكل من خلقه ، ثم قال« لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ »لعل كلمة ترج وتوقع ، وكذلك عسى ، وهي من الكرماء واجبة ، واللّه أكرم الأكرمين ، والعامل في هذا الترجي عند الجماعة(اعْبُدُوا رَبَّكُمُ)وما بعده ، وفيه بعد لغموضه وما يحتاج إليه من التقدير فيه ، والأظهر عندي أن ضرب الأمثال المتقدمة تطلبه بقرائن الأحوال ، ومدلول المعاني وسياق الكلام ، أي ضربنا لكم هذه الأمثال لعلكم تتقون ، أي تحذرون وتخافون، فيردكم حذركم إلى الحقّ، فيطابق معنى التقوى، ولا يظهر مثل هذا في قوله: ﴿اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ﴾، ولا سيما ويأتي بعد تتقون ما يناسب الأول، وهو قوله: الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِراشا﴾ إلى

سورة البقرة (2) : آية 22

﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِراشاً وَالسَّماءَ بِناءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّماءِ ماءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَراتِ رِزْقاً لَكُمْ فَلا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْداداً وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ (22)

﴿وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أنّه أوجد الأسباب، وأوجدكم عندها لا بها، فإنّ اللّه وضع الأسباب وجعلها له كالحجّاب ، فهي توصل إليه تعالى كل من علمها حجّابا ، وهي تصدّ عنه كلّ

من كتاب إيجاز البيان في الترجمة عن القرآن:

قوله(رِزْقاً لَكُمْ)كلها من باب تقرير النعم التي أنعم بها على عباده ، فكأن« لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ »صار مقحما ، وإن لم يسم مثل هذا مقحما ، ولكنه في المعنى كذلك ، وربما لا يعرف إنزال هذه اللفظة في هذا الموضع وفصلها بين المناسبين إلا من يعرف إعجاز القرآن ، وأما حرف الترجي في هذه التقوى مع علمه بما يكون منهم ، فمثل قوله(وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ)وهو عالم بما يكون منهم ، وغلّب المخاطب على الغائب في« لَعَلَّكُمْ »لأنه المقصود بالخطاب ، وهو الأوجه من طريق المعنى ، لأن اللّه هو المخاطب ولا يغيب شيء عن اللّه ، فينسحب هذا الخطاب على جميع المخلوقات من مضى ، ومن هو الآن ، ومن يكون ، وبلا شك أن من يكون مخاطب بهذه الآية وهو الآن لم يكن ، ولكن ما جاء

فيه بضمير الغائب ، وكذلك من قبلنا ، والكلام قديم ، والسامع محدث ، والمتكلم به كذلك ، قال تعالى(ما يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنْ رَبِّهِمْ مُحْدَثٍ)والذي جاءهم إنما هو المتكلم به.

ثم قال (23)« الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِراشاً »خص ذكر الفراش على المهاد والقرار والبساط للتوالد الذي يذكره فيما بعد ، من إخراج الثمرات بإنزال الماء من السماء في الأرض ، وذكر السماء بلفظة البناء للابتناء ، فجعله شبيها بالنكاح فقال« الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِراشاً وَالسَّماءَ بِناءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّماءِ ماءً »فعلى السماء على الأرض وهي مفترشة قابلة ، فأنزل فيها الماء فاهتزت وتحركت وربت ، حملت شبه حمل المرأة« فَأَخْرَجَ بِهِ »أي بسبب هذا النكاح« مِنَ الثَّمَراتِ »الألف واللام لاستغراق الجنس« رِزْقاً لَكُمْ »ما تغتذون به« فَلا تَجْعَلُوا لِلَّهِ »الذي خلق هذه الأشياء كلها« أَنْداداً »آلهة تعبدونها ، مخلوقة تنحتونها بأيديكم ، أو تتخذون الكواكب وغيرها آلهة مع اللّه« وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ »أنهم لا يخلقون شيئا وأن اللّه هو خالقهم وخالق كل شيء ، والند المثل المخالف المناوي ، وهذا لا يتصور إلا فيمن يدّعي الألوهية ، كفرعون وغيره من الجبابرة ، لا في كل من يدّعى فيه الألوهية ، وهو واللّه أعلم من ندّ أي شرد ، فإنه شرد من موطن العبودة التي هي حقيقته إلى الربوبية التي ليس له منها وصف ، ولا له فيها قدم ، فلهذا سمي ندا ، فكأنه يقول لهم : من ندّ وادعى لكم أنه إله ، فلا تجعلوه لي ندا ، أي مثلا ، قال عليه

ص 80

من اتخذها أربابا ، فذكرت الأسباب في إنبائها ، أن اللّه من ورائها ، وأنها غير متصلة بخالقها ، فإن الصنعة لا تعلم صانعها ، ولا منفصلة عن رازقها ، فإنّها تأخذ عنه مضارها ومنافعها ، فالعلاقة بين الأسباب والمسببات لا تنقطع ، فإنها الحافظة لكون هذا سببا ، وهذا مسببا عنه ، فسببية السماء فيما يظهر على الأرض من النبات من توجهها عليها بما تلقيه من الغيث فيها ، وتلقيها ، كذلك كل حركة فلكية ونظر كوكب في العالم العلوي وإمداد الطبيعة ، كل ذلك أسباب لوجود زهرة تظهر على وجه الأرض ، والسبب الحادث قد يعلم أن أثره وحكمه في المسبّب عن أمر إلهي فله فيه إرادة ، فهو سبب عرضي ، وقد

لا يعلم أن أثره وحكمه في المسبب عن أمر إلهي فهو سبب ذاتي ، ومن جهة أخرى نقول : إن الغنى باللّه لا يصح عن اللّه ، ولا عن المخلوقين من حيث العموم ، لكنه يصح من حيث تعيين مخلوق ما ، يمكن أن يستغنى عنه بغيره ، فإن اللّه ما وضع الأسباب سدى ، فمنها أسباب ذاتية لا يمكن رفعها هنا ، ومنها أسباب عرضية يمكن رفعها ، فمن المحال رفع التأليف والتركيب عن الجسم ، مع بقاء حكم الجسمية فيه ، فهذا سبب لا يمكن زواله إلا بعدم عين الجسم من الوجود ، وإذا كانت الأسباب الأصلية لا ترتفع فلنقر الأسباب العرضية أدبا مع اللّه ، فإنه ما وضعها إلا وهو يعلم الحكمة في وضعها ، ولا نركن إليها ، ونبقي الخاطر معلقا باللّه ، فلا يرفع الأسباب إلا جاهل بالوضع الإلهي ، ولا يثبت الأسباب إلا عالم كبير أديب في العلم الإلهي ، ومع ذلك يجب أن نعلم أن للّه في كل موجود وجها خاصا وفي كل ما وجد فيه ، وعن ذلك الوجه الخاص وجد ، ولا يعرف السبب قط ذلك الوجه الخاص الذي لمسبّبه المنفعل عنه ، فلا يعلمه إلا اللّه خاصة وهو رقيقة الجود ، وكل خلق أضيف إلى خلق فمجاز وصورة حجابية ، ليعلم العالم من الجاهل ، وفضل الخلق بعضهم على بعض.

] كيفيته كون الأرض فراشا[

إشارة لطيفة –إن فهمت معاني القرآن ، وكيف جعل الأرض فراشا ، وكيف خلق آدم منها ، علمت قول رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم : الولد للفراش يريد المرأة ، أي لصاحب الفراش ، كما كان آدم عليه السلام حيث جعله خليفة فيمن خلق فيها ، ليكون أيضا صاحب فراش لأنه على صورة من أوجده ، فأعطاه قوة الفعل ، كما أعطاه قوة الانفعال ، فإن اللّه ما خلق الألفاظ حين عينها بالذكر سدى ، ولولا هذه الحكمة المطلوبة لا كتفي بالمهاد ولم

من كتاب إيجاز البيان في الترجمة عن القرآن:

السلام : من الكبائر أن تجعل للّه ندا وهو خلقك ، فمن عجز عن الخلق فليس بإله ، فالخلق أخص

ص 81

يذكر الفراش ، فإن ذلك حرف جاء لمعنى وهو ما قلنا ولا يقتصر ، فجعل سبحانه بين السماء والأرض التحاما معنويا ، وتوجها لما يريد سبحانه أن يوجده في هذه الأرض من المولدات ، من معدن ونبات وحيوان ، فجعل الأرض كالأهل ، والسماء كالبعل ، والسماء تلقي إلى الأرض من الأمر الذي أوحى اللّه فيها ، كما يلقي الرجل الماء بالجماع في المرأة ، وتبرز الأرض عند الإلقاء ما خبأه الحق فيها من التكوينات على طبقاتها.

سورة البقرة (2) : آية 23

﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنا عَلى عَبْدِنا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَداءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ﴾ (23(

]إعجاز القرآن[

انظر في إعجاز القرآن تجده حسن النظم ، مع توفير المعنى وحسن مساقه وجمع المعاني بعضها إلى بعض من اللفظ الحسن النظم الوجيز ، مع وجود تكرار القصة الموجب للملل ، ولا تجد هذا في القرآن ، فتجد مع تكرار القصة الواحدة ، مثل قصص الأمم كآدم وموسى ونوح وغيرهم ، مما تكرر بزيادة لفظ أو نقصه ، ما تجد إخلالا في المعنى جملة واحدة ، وسبب ذلك أنه قول حق ، ما فيه تزوير.

من كتاب إيجاز البيان في الترجمة عن القرآن:

أوصاف الإله الذي تميز به عن عباده ، فليس لمخلوق خلق فعل أصلا ، ثم قال (24)« وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنا عَلى عَبْدِنا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَداءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ »هذا خطاب لفصحاء العرب خاصة ، الذين يعرفون نظم الكلام العربي وإعجازه ، يقول : إن كنتم في شك من القرآن أنه منزل على محمد عبدنا من عندنا ،

عارضوه في سورة مثله ، حتى تعرفوا أنه ليس في مقدور البشر أن يأتوا بمثل هذا القرآن ، ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا ، أي معينا من الجن والإنس ، والظاهر في هذه المعجزة أنه ليس من مقدور البشر ، لا أنهم صدوا مع القدرة قبل طلب المعارضة ، وهو الوجه الآخر من الإعجاز ، فترجح الوجه الواحد بقوله« نَزَّلْنا »يؤيد ذلك(فَإِذا قَرَأْناهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ)فهكذا أنزل عليه بهذه الألفاظ المخصوصة ، فإن لم تقدروا ، كما أنه خارج عن مقدور عبدنا ،« وَادْعُوا شُهَداءَكُمْ »الذين اتخذتموهم آلهة« مِنْ دُونِ اللَّهِ »يأتونكم بمثل ما نزلنا على عبدنا« إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ »أنهم آلهة إذ الإله هو الذي لا يعتاص عليه شيء ، بل

ص 82

سورة البقرة (2) : آية 24

﴿فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكافِرِينَ﴾ 24(

ثبت أنّه ما من أحد إلا سيكلمه اللّه ليس بينه وبينه ترجمان ، فينظر أيمن منه فلا يرى إلا ما قدّم ، وينظر أشأم منه فلا يرى إلا ما قدّم ، وينظر بين يديه فلا يرى إلّا النّار ، فاتقوا النار ولو بشق تمرة ، والنّار تتقى لما يكون من الألم عند تعلقها بنا ، فقوله تعالى-:

﴿فَاتَّقُوا النَّارَ﴾، أي اجعلوا بينكم وبينها وقاية حتى لا يصل إليكم أذاها يوم القيامة« الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ »المشركون ومنهم من ادعى الألوهية ، فدعاكم إلى عبادة نفسه ، أو عبدتموه وكان في وسعه أن ينهاكم عن ذلك فما نهاكم ، فمثل هؤلاء يكون من حصب جهنم« وَالْحِجارَةُ »المعبودة التي كانوا يصورونها في الكنائس وغيرها ، فالمشركون والحجارة المعبودة جمر جهنم.

سورة البقرة (2) : آية 25

﴿وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ كُلَّما رُزِقُوا مِنْها مِنْ ثَمَرَةٍ رِزْقاً قالُوا هذَا الَّذِي رُزِقْنا مِنْ قَبْلُ وَأُتُوا بِهِ مُتَشابِهاً وَلَهُمْ فِيها أَزْواجٌ مُطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيها خالِدُونَ﴾ (25(

هو على كلّ شيء قدير ، قوله: (25) ﴿فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكافِرِينَ﴾ يقول فإن لم تأتوا بسورة من مثله وعجزتم عن المعارضة ، ولن تفعلوا ولن تأتوا بمثله ، فنفى بلن الإتيان في المستقبل كما انتفى في الحال ، فجاء شبه المقحم ، وفيه فائدة الإخبار بعدم المعارضة في المستقبل ، وتأييد أنه خارج عن مقدور البشر ، فتبيّن صدق الرسول عندكم بعدم المعارضة ، فصح عنادكم إن لم تؤمنوا وترجعوا عن ضلالتكم ، فإن لم تفعلوا« فَاتَّقُوا النَّارَ »أي اتخذوا الإيمان بما جاء به محمد صلّى اللّه عليه وسلم وقاية من النار« الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ »الذين كفروا بما أنزل عليه« وَالْحِجارَةُ »الآلهة التي عبدوها من دون اللّه ، نكاية لهم حيث زعموا أنها تشهد لهم أنهم على الحق عند اللّه تعالى.

قالوا: ﴿ما نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونا إِلَى اللَّهِ زُلْفى﴾، فاتخذوهم شهداء ، ولذا قال: ﴿وَادْعُوا شُهَداءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾، فدخولها معهم زيادة في عذابهم ، وقوله: ﴿أُعِدَّتْ لِلْكافِرِينَ﴾، يعني: النّار ، وقد يحتمل أن يقول : أعدت الحجارة هنا ، أي هي معدة لعذابهم في النّار ، ثم قال (26) ﴿وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ﴾ الآية ، يقول: وقل للمؤمنين

ص 83

﴿وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ﴾ الأعمال الصالحة رأسها الإيمان فهي تابعة له ، فالشرط المصحح لقبول جميع الفرائض فرض الإيمان.

فإن الإيمان والإسلام واجب على كل إنسان ، والأحكام كلها الواجبة واجبة على كل إنسان ، ولكن يتوقف قبول فعلها أو فعلها من الإنسان على وجود الإسلام منه ، فلا يقبل تلبسه بشيء منها إلا بشرط وجود الإسلام عنده ، فإن لم يؤمن أخذ بالوجهين جميعا يوم القيامة ﴿أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ﴾ الجنّة، وهي دار السّعادة ثماني جنّات ، وهي : جنة عدن ، وجنة الفردوس ، وجنّة النّعيم ، وجنة المأوى ، وجنّة الخلد ، وجنّة السّلام ، وجنة المقامة ، والوسيلة ، وهي أعلى جنة في الجنات ، فإنّها في كلّ جنّة من جنة عدن إلى آخر جنة ، فلها في كلّ جنّة صورة.

وهي مخصوصة برسول اللّه –صلّى اللّه عليه وسلّم– وحده ، نالها بدعاء أمته ، حكمة من اللّه حيث نال الناس السعادة ببركة بعثته ودعائه إياهم إلى اللّه ، وتبيينه ما نزل اللّه إلى

الناس من أحكامه ، جزاء وفاقا ، وأرض هذه الجنات سطح الفلك المكوكب ، الذي هو سقف النار ، وجعل اللّه في كل جنة مائة درجة ، بعدد الأسماء الحسنى والاسم الأعظم المسكوت عنه لوترية الأسماء ، وهو الاسم الذي يتميز به الحق عن العالم ، هو الناظر إلى درجة الوسيلة خاصّة . ومنازل الجنة على عدد آي القرآن ما بلغ إلينا منه نلنا تلك المنزلة بالقراءة ، وما لم يبلغ إلينا نلناه بالاختصاص في جنات الاختصاص ، كما نلنا بالميراث جنات أهل النار الذين هم أهلها ، وأبواب الجنة ثمانية على عدد أعضاء التكليف فلكل عضو باب ، والأعضاء الثمانية : العين والأذن واللسان واليد

من كتاب إيجاز البيان في الترجمة عن القرآن:

الذين عملوا الصالحات قولا يظهر منه السرور على بشرتهم ، وهو« أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ »يعني الأنهار المعروفة ، فأتى بحرف العهد والتعريف ، قال تعالى(فِيها أَنْهارٌ مِنْ ماءٍ غَيْرِ آسِنٍ ، وَأَنْهارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ ، وَأَنْهارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ ، وَأَنْهارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى)وسيأتي الكلام عليها في السورة التي تذكر فيها ، ولم يعرّف الجنات لأن الأعمال التي تقتضيها لم تفصل ، فتتعرف جنة كل عمل ، وهذه مسئلة عظيمة جليلة الخطب ، عظيمة الفائدة ، لنا فيها باع متسع ، وقد أهملها الناس لعدم استقصائهم على مراتب الآخرة في دار السّعادة والشقاء ، ثم قال« كُلَّما رُزِقُوا مِنْها مِنْ ثَمَرَةٍ رِزْقاً »أي كل وقت ، وما هنا ظرفية« قالُوا هذَا الَّذِي رُزِقْنا مِنْ قَبْلُ »لشبهه في الصورة ، فإن المثل يشبه المثل ، ولا سيما في الأسماء ، فيقولون : هذا تفاح ورمان وغير ذلك ، فإذا طعموه تبيّن لهم الفرق بين المثلين ، كالصلاة تشبه الصلاة الأخرى في

ص 84

والبطن والفرج والرجل والقلب ، فقد يقوم الإنسان في زمن واحد بأعمال هذه الأعضاء كلها ، فيدخل من أبواب الجنة الثمانية في حال دخوله من كل باب منها ، فإن نشأة الآخرة تشبه البرزخ وباطن الإنسان ، وأما خوخات الجنات فهي تسعة وسبعون خوخة وهي شعب الإيمان ، فلكل شعبة من الإيمان طريق إلى الجنة ، ولأهل الجنات الرؤية متى شاءوا

، والذي تولى بناء الجنات كلها هم الاثنا عشر ملكا ، ملائكة البروج ، إلا جنة عدن فإن اللّه خلقها بيده ، وجعل بأيديهم غراس الجنات ، إلا شجرة طوبى فإن الحق تعالى غرسها بيده في جنة عدن ، وأطالها حتى علت فروعها سور الجنة جنة عدن ، وتدلت مطلة على سائر الجنات كلها ، وليس في أكمامها ثمر إلا الحلي والحلل ، لباس أهل الجنة وزينتهم ،زائدا في الحسن والبهاء على ما تحمل أكمام شجر الجنات من ذلك.

لأن لشجرة طوبى اختصاص فضل بكون اللّه خلقها بيده ، فإن لباس أهل الجنة ما هو نسج ينسج ، وإنما تشقق عن لباسهم ثمر الجنّة كما تشقق الأكمام هنا عن الورد ، وعن شقائق النعمان وما شاكلهما من الأزهار كلها ، هكذا ورد في الحديث الحسن نقلا عن رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم . وأدار بجنة عدن سائر الجنات ، وبين كل جنة وجنة سور يميزها عن صاحبتها ، وسمى كل جنة باسم معناه سار في كل جنة ، وإن اختصت هي بذلك الاسم ، فإن ذلك الاسم الذي اختصت أمكن ما هي عليه من معناه وأفضله« كُلَّما رُزِقُوا مِنْها مِنْ ثَمَرَةٍ رِزْقاً قالُوا هذَا الَّذِي رُزِقْنا مِنْ قَبْلُ وَأُتُوا بِهِ مُتَشابِهاً »أي يشبه بعضه بعضا ، فيتخيل أن الثاني عين الأول وليس كذلك بل هو مثله ، والفارق بين المثلين في أشياء يعسر إدراكه بالمشاهدة.

من كتاب إيجاز البيان في الترجمة عن القرآن:

إقامة نشأتها ، ولكن الذي يجده المصلي في كل صلاة مختلف باختلاف الأحوال ، فكما كانت الأعمال هنا متشابهة الصور ، كذلك ثمراتها متشابهة الصور ، وكل ذائق يعرف الفرق في الآخرة كما عرفه في العمل في الدّنيا ﴿وَلَهُمْ فِيها أَزْواجٌ مُطَهَّرَةٌ﴾، ولم يقل: "مطهرات"، لأنّ تطهير كل زوجة ما هو تطهير الزّوجة الأخرى ، كالجنات سواء وما فيها ، فيقول : كل زوجة مطهرة ، ولو لم يكن كذلك لكان الذّوق له من كل واحدة على نسبة واحدة ، ولا تكرار فيها أصلًا ، بل ولا في العالم للاتساع الإلهي ، بل نعيم مجدد مع تجدد الأنفاس ، وليس اجتماعه بها الأول شبه الثّاني ﴿وَهُمْ فِيها﴾، يعني: في الجنة ﴿خالِدُونَ﴾، أي لا يخرجون منها، قال –تعالى–: ﴿وَما هُمْ مِنْها

ص 85

الفقرة الثّانية

سورة البقرة (2) : آية 26

﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلاً ما بَعُوضَةً فَما فَوْقَها فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ ما ذا أَرادَ اللَّهُ بِهذا مَثَلاً يُضِلُّ بِهِ كَثِيراً وَيَهْدِي بِهِ كَثِيراً وَما يُضِلُّ بِهِ إِلاَّ الْفاسِقِينَ﴾ (26(

الحياء : معناه الترك ، ورد في الخبر : أن اللّه حيي ، لكن للحياء موطن خاص ، فإن اللّه قد قال في الموطن الذي لا حكم للحياء فيه :« إِنَّ اللَّهَ لا يَسْتَحْيِي »أي إن اللّه لا يترك« أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا ما بَعُوضَةً »فالوجود كله عظيم فلا يترك منه شيء ، لأن الحياء ترك ، فما ثمّ تافه ولا حقير ، فإن الكل شعائر اللّه ، وذلك لقول من ضلّ بهذا المثل من المشركين الذين تكلموا فيه ، فلو وجد الحق عند السامع ما هو أخفى من البعوضة لجاء بها ، كما جاء بذلك مجملا في قوله« فَما فَوْقَها »يعني في الصغر ، يعني أنه لا يترك ضرب المثل بالأدنى والأحقر عند الجاهل ، فإنه ما هو حقير عند اللّه ، وكيف يكون حقيرا من هو عين الدلالة على اللّه ، فيعظم الدليل بعظمة المدلول.

لذلك قال تعالى :« فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ ما ذا أَرادَ اللَّهُ بِهذا مَثَلًا »فالقرآن له وجه نفع في المؤمن فإنه يزيده إيمانا ، وفيه وجه ضرر للكافر لأنه يزيده ، رجسا إلى رجسه ، ولذلك قال تعالى :« يُضِلُّ بِهِ كَثِيراً »أي بهذا المثل المضروب به في القرآن أي بسببه وهو من القرآن ،

من كتاب إيجاز البيان في الترجمة عن القرآن:

بِمُخْرَجِينَ")(27) إِنَّ اللَّهَ لا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا »الآية ، الأوجه في قوله« لا يَسْتَحْيِي »نفي الحياء عن اللّه ، فمن قال بالمفهوم من الخطاب ، أو احتج في أن اللّه ذو حياء بحديث (إن اللّه يستحي من ذي الشيبة) فالأوجه في التأويل في هذه الآية ، أن يكون قول اللّه جوابا بحكم المطابقة لكلام تقدم من الكفار ، وهو : أما يستحي رب

محمد أن يضرب مثلا بالمحقرات ، كبيت العنكبوت والذباب ؟
وهم طائفة من الكفار لا حرمة للحق عندهم ، أو يقولون : اللّه أعلى وأجل وأعظم حياء أن يضرب مثلا بما يعاب عليه من ذكره هذه المحقرات ، فقال اللّه« إِنَّ اللَّهَ لا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا ما »فيكون جوابا بحكم التطابق لكلامهم ، وهل يتصف بالحياء أم لا ؟
مسئلة أخرى ، فإن ورد بذلك نص عنه أجريناه مجرى ما نسب إليه من اليد والعين وغير ذلك ، على

ص 86

ومعلوم أن القرآن مهداة كله ، ولكن بالتأويل في المثل المضروب ضل من ضل ، وبه اهتدى من اهتدى ، فهو من كونه مثلا لم تتغير حقيقته ، وإنما العيب وقع في عين الفهم ، فاحذر من القرآن إلّا أن تقرأه فرقانا فإنّ اللّه ﴿يُضِلُّ بِهِ كَثِيراً﴾، أي يحيرهم، ﴿وَيَهْدِي بِهِ كَثِيراً﴾، أي يرزقهم الفهم فيه بما هو عليه من البيان ، فعلّمك في هذه الآية أن لا تترك شيئا إلا وتنسبه إلى اللّه ولا يمنعك حقارة ذلك الشيء ولا ما تعلق به من الذم عرفا وشرعا في عقدك ، ثم تقف عند الإطلاق ، فلا تطلق ما في العقد على كل شيء ولا في كل حال وقف عندما قاله لك الشّارع ، قف عنده فإن ذلك هو الأدب الإلهي الذي جاء به الشرع.
﴿وَما يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفاسِقِينَ﴾، فإنّهم حاروا فيه ، والضلالة الحيرة ، ورأوا عزة اللّه وجلاله وكبرياءه وحقارة البعوضة في المخلوقات ، فاستعظموا جلال اللّه أن ينزل في ضرب المثل لعباده هذا النّزول ، وذلك لجهلهم بالأمور فإنه لا فرق بين أعظم المخلوقات وهو العرش المحيط ، وبين

من كتاب إيجاز البيان في الترجمة عن القرآن:
الوجهين ، على ما تتأوله الأشاعرة ، أو على ما ذهب إليه السلف من الوقوف عند ذلك من غير تأويل ، قال تعالى« إِنَّ اللَّهَ لا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا ما »فأبهمه بقوله « ما » أي بكل ما يجوز أن يضرب به المثل ، لأن القصد من المثل إيصال المعنى إلى المخاطب

السامع ، حتى يفهم المراد منه إذا كان لا يصل إلى معرفة المعاني بغامضات الأدلة لبعدها ، فينزل لهم المتكلم في العبارات بضرب الأمثال لذلك ، ولا يتصور أن ينكر ضرب الأمثال بالمحقرات أهل الكتاب ، لأنه في كتبهم من ذلك كثير ، وهم مؤمنون به إلا أن يباهتوا ، وأما ما عدا أهل الكتاب فقد يسوغ منهم ذلك على الطريقين اللذين ذكرناهما ، من التعظيم للّه ، وعدم التعظيم أو التعليل ، ثم قال« بَعُوضَةً فَما فَوْقَها »في الصغر كالذرة.

ثم قال: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا﴾، يريد أصحاب الكتب ، ونحن وكلّ من أنزل عليه كتاب وآمنوا بكتبهم ﴿فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ﴾ المثل« الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ »أي حق مطابق للممثل به ، وأن اللّه قاله« وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ ما ذا أَرادَ اللَّهُ بِهذا »الذي ذكره« مَثَلًا »أي لأي شيء ضرب المثل ، وقد يتصور هذا القول من العالم أنه من الحق ومن غيره.

فيقوله معنى : إنه على زعمكم أنه قاله سبحانه ، فقال تعالى« يُضِلُّ بِهِ كَثِيراً »يعني بالمثل يقول ليضل به« وَيَهْدِي بِهِ كَثِيراً »ولم يذكر المؤمنين وذكر الفاسقين« وَما يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفاسِقِينَ »الذين خرجوا عما دخل فيه المؤمنون من الإيمان باللّه مطلقا ، وبرسوله في حق البراهمة ، وبمحمد في حق من كفر به من أهل الكتب ، على الخصوص ، وما جاء به ، والفسوق الخروج عن الشيء ، وفي الشرع الخروج عن

ص 87

الذرة في الخلق ، والبعوضة وإخراجها من العدم إلى الوجود ، فما هي حقيرة إلا في صغر جسمها إذا أضفته إلى ذي الجسم الكبير ، بل الحكمة في البعوضة أتم ، والقدرة أنفذ ، فإن البعوضة على صغرها خلقها اللّه على صورة الفيل على عظمه ، فخلق البعوضة أعظم في الدلالة على قدرة خالقها من الفيل لأهل النظر والاعتبار ، ولهذا لم يصف نفسه بالحياء في ذلك لما فيها من الدلالة على تعظيم الحق ، ثم إن من رحمته تعالى بخلقه أن قال« وَما يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفاسِقِينَ »الخارجين عن حكم إما العقل السليم أو الشرع المعصوم ، وهم الذين خرجوا عن حدوده ورسومه ، فأعطانا العلامة ، فمن وجد في نفسه تلك العلامة علم أنه من أهل الضلال.

سورة البقرة (2) : الآيات 27 إلى 28

﴿الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثاقِهِ وَيَقْطَعُونَ ما أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولئِكَ هُمُ الْخاسِرُونَ (27) كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْواتاً فَأَحْياكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ (28(

الوجه الأوّل: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْواتاً﴾، وهو الموت الأصلي لا عن حياة متقدمة في الموصوف بالموت ، وهو العدم الذي للممكن إذ كان معلوم العين للّه ولا وجود

من كتاب إيجاز البيان في الترجمة عن القرآن:

أوامر اللّه ، ثم وصفهم فقال تعالى (28)« الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثاقِهِ »مطلقا ، يريد ميثاق أخذ الذرية بالإقرار ، وأخذ العهد على أهل الكتاب ، وقوله« وَيَقْطَعُونَ ما أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ »من وصل الإيمان بالرسل مع الإيمان باللّه في حق البراهمة ومن قال بقولهم ، وفي حق أهل الكتاب الذين جحدوا نبوة محمد عليه السلام ولم يصلوا إيمانهم به بإيمانهم باللّه ورسلهم« وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ »أن يفعلوا فيها بخلاف أمر اللّه مطلقا« أُولئِكَ هُمُ الْخاسِرُونَ »يقول:

هم الذين ما ربحت تجارتهم ، بل خسروا رأس مالهم ، وبعد أن ذكرنا أصول هذه الآية من الإيمان ، فالمقصود أيضا منها فروع الأحكام ، فكل عهد مشروع بيننا بعضنا في بعض ، وبين الكفار وبيننا مما ألزمنا الحق الوفاء به ، يدخل تحت هذا النقض ، وأنه عهد اللّه الذي شرعه لنا ، وكذلك ما أمرنا اللّه به أن نوصله من الأرحام وأهل ودّ آبائنا ، فيلزمنا إيصاله ، وتلحقنا المذمة من هذه الآية بقطع ذلك ﴿أُولئِكَ هُمُ الْخاسِرُونَ﴾، حيث اشتروا الضلالة بالهدى ، والعذاب بالمغفرة ، والكفر

ص 88

له في نفسه ،« فَأَحْياكُمْ »فأخرجكم إلى الوجود« ثُمَّ يُمِيتُكُمْ »وهو الموت العارض ، الذي يطرأ على الحي فيزيل حياته ، فإن حياة الجسم الظاهرة من آثار حياة الروح كنور الشمس

الذي في الأرض من الشمس ، فإذا مضت الشمس تبعها نورها وبقيت الأرض مظلمة ، كذلك الروح إذا رحل عن الجسم إلى عالمه الذي جاء منه تبعته الحياة المنتشرة منه في الجسم الحي ، وبقي الجسم في صورة الجماد في رأي العين ، فيقال مات فلان وتقول الحقيقة رجع إلى أصله(مِنْها خَلَقْناكُمْ وَفِيها نُعِيدُكُمْ وَمِنْها نُخْرِجُكُمْ تارَةً أُخْرى(كما رجع أيضا الروح إلى أصله ، حتى البعث والنشور يكون من الروح تجل للجسم بطريق العشق ، فتلتئم أجزاؤه ويتركب أعضاؤه بحياة لطيفة جدا تحرك الأعضاء للتأليف ، فإذا استوت البنية وقامت النشأة الترابية تجلى له الرّوح بالرّقيقة الإسرافيليّة في الصور المحيط ، فتسري الحياة في أعضائه ، فيقوم شخصا سويا كما كان أوّل مرّة ، وهو قوله –تعالى–: ﴿ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾ ﴿ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ فإمّا شقيّ وإما سعيد – الوجه الثاني – لما كان الموت سببا لتفريق المجموع ، وفصل الاتصالات وشتات الشمل سمي التفريق الذي هو بهذه المثابة موتا ، فقال –تعالى–: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْواتاً فَأَحْياكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُم﴾، أي كنتم متفرقين في كل جزء من عالم الطبيعة ، فجمعكم وأحياكم ثم يميتكم أي يردكم متفرقين ، أرواحكم مفارقة لصور أجسامكم التي أخذ عليها الميثاق ﴿ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾ الحياة الدّنيا ﴿ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ بعد مفارقة الدنيا–

]صلاة الجنازة على الطفل[

صلاة الجنازة على الطفل – أطلق اللّه علينا اسم الموت قبل نفخ الروح ، ولذلك يصلى على صورة الجنين ولو كان أصغر من البعوضة بحيث تكون أعضاؤه مصورة حتى يعلم أنه إنسان ، وإن

من كتاب إيجاز البيان في الترجمة عن القرآن:

بالإيمان ، والفساد بالصلاح ، والقطيعة بالوصل ، ونقض العهد بالوفاء ، ثم أخذ سبحانه يقرر نعمته عليهم ، فقال (29)« كَيْفَ »حرف استفهام مثل الهمزة بضرب من التوبيخ والتقرير والإنكار عليهم ، بما قررهم عليه من النعم التي يذكرها ، فقال كيف« تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْواتاً »بلا حياة« فَأَحْياكُمْ »فخلق فيكم الحياة بخلق الروح الذي هو المقصود من

الإنسان« ثُمَّ يُمِيتُكُمْ »أي يقبض أرواحكم اللّه ، لتلقوه فتشرفون بلقائه« ثُمَّ يُحْيِيكُمْ »ثم يرد أرواحكم إلى أجسادها ، ليكون العبد عند ربه بكليته روحا وجسما ، كما كان بالموت روحا دون جسم ، فكان نعمة على نعمة ، فركب أرواحكم في أجسادكم لترجعوا إليه سبحانه ، فقال« ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ »وجعله رجوعا لأنه خرج من عنده روحا عبدا ، فرده إلى تدبير جسده ، فرجع إليه واليا مليكا ،

ص 89

كان قبل نفخ الروح فيه ، فإنه ينطلق بالشرع على تلك الصورة أنها ميتة ، فإذا خرج الجنين بالطرح ، وشاهدناه صورة وإن لم ينفخ فيه روح للصورة الظاهرة ، وتحقق اسم الموت ، فلا مانع للصلاة عليه بوجه من الوجوه ، ولم يقل رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم إنه لا يصلى على ميت إلا بعد أن تتقدمه حياة ، ما تعرض لذلك ، وإن كان لم يقع الأمر إلا فيمن تقدمت له حياة ، وما يدل عدم النقل على رفع الحكم ، بل المفهوم من الشرع الصلاة على الميت من غير تخصيص ، إلا ما خصصه الشارع من النهي عن الصلاة على الكافر وغير ذلك ، ممن نص ترك الصلاة عليه ، وليس للطفل فيه مدخل . بل قد ذكر الترمذي عن جابر بن عبد اللّه عن رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم أن الطفل يصلى عليه ، ولا يرث ولا يورث حتى يستهل صارخا ، فقد حكم بالصلاة عليه وما حكم بالميراث مثل ما حكم على من مات عن حياة ، فهذا الخبر يقوي ما ذهبنا إليه ، من وجود صورة الإنسان وإن لم يعلم أنّ موته عن حياة ولا عن غير حياة ، وحديث المغيرة عن النبي – صلّى اللّه عليه وسلّم– أنّ الطّفل يصلّى عليه.

سورة البقرة (2) : آية 29

﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ ما فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً ثُمَّ اسْتَوى إِلَى السَّماءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَماواتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ (29(

إن الرزق على نوعين في الميزان الموضوع في العالم لإقامة العدل، وهو الشّرع: النّوع الواحد يسمّى حراما ، والنوع الآخر يسمى حلالا ، وهو بقية اللّه التي جاء نصها في القرآن . قال –تعالى–: ﴿بَقِيَّتُ اللَّهِ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾. فهذه هي التي بقيت للمؤمنين

من كتاب إيجاز البيان في الترجمة عن القرآن:
بما ولاه اللّه عليه من تدبير جسده ، ومن ملكه الذي يصل إليه في جواره في دار الكرامة ، فإن كنتم مؤمنين كنتم بهذه المثابة من الكرامة ، وإن كفرتم كنتم على النقيض من هذه الصفة ، وكان خلق الحياة والموت في حقكم ابتلاء ، فقال تعالى(خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَياةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا)فأحسن المؤمنون فربحوا ، ولم يحسن الكفار فخسروا ، حيث لم يقوموا بشكر هذه النّعم ، ثم أردف هذه النعم بنعم أخر فقال (30) ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ ما فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً﴾ ردًّا على القائلين بنسبة الخلق المولد في الأرض للطبيعة ، فأضافه إليه –سبحانه–، وخلق هنا خاصة بمعنى قدّر ، وهو

ص 90

من قوله: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ ما فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً﴾ وقد ورد في الخبر أن ما سكت عن الحكم فيه بمنطوق فهو عافية ، أي دارس لا أثر له ولا مؤاخذة فيه ، فإن اللّه قد بيّن للناس ما نزّل إليهم من الأحكام في كتابه ، وعلى لسان رسوله صلّى اللّه عليه وسلم ، والساكت لا ينسب إليه أمر حتى يتكلم ولا مذهب ، ولهذا لا يدخل في الإجماع بسكوته . وهذه مسألة خلاف ، والصحيح ما قلناه ، كما أن ترك النكير ليس بحجة إلا في بقاء ذلك الأمر على الأصل المنطوق به في قوله تعالى« خَلَقَ لَكُمْ ما فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً »وكلام بني آدم مما خلق في الأرض وجميع أفعالهم ، فإذا رأينا أمرا قد قيل ، أو فعل بمحضر رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم ولم ينكره ، فلا نقول إن حكمه الإباحة ، فإنه لم يحكم فيه بشيء ، إذ يحتمل أنه لم ينزل فيه شيء عليه ، وهو لا يحكم إلا بما أوحى اللّه فيه إليه ، فيبقى ذلك على الأصل وهو التصرف الطبيعي الذي تطلبه هذه النشأة من غير

تعيين حكم عليه بأحد الأحكام الخمسة وهو الأصل الأول ، أو نرده إلى الأصل الثاني وهو قوله تعالى« خَلَقَ لَكُمْ ما فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً »وليس بنص في الإباحة ، وإنما هو ظاهر لأن حكم المحظور خلق أي حكم به من أجلنا ، أي نزل حكمه من أجلنا ابتلاء من اللّه هل نمتنع منه أم لا ، كما نزل الوجوب والندب والكراهة والإباحة ، فالأصل أن لا حكم ، وهو الأصل الأول الذي يقتضيه النظر الصحيح« ثُمَّ اسْتَوى إِلَى السَّماءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَماواتٍ »فالسّماوات من العناصر ، فهي أجسام عنصريات وإن كانت فوق الأركان بالمكان ، فالأركان فوقهن بالمكانة . – بحث في الاستواء – من الآيات المتشابهة آيات الاستواء ، والأحاديث الواردة فيه ، ومرجعها فيه عند المحققين إلى الآيات المحكمات ،

]في الاستواء[

وأول ما ينبغي تقديمه معنى الاستواء لغة ، وأصله افتعال من السواء والسواء في اللغة العدل والوسط ، وله وجوه في الاستعمال ترجع إلى ذلك ، منها استوى يعني أقبل ، نقله الهروي عن الفراء ، فإن العرب يقولون استوى إلي يخاصمني أي أقبل إلي – الثاني: بمعنى قصد ، قاله الهروي – الثالث : بمعنى استولى – الرابع : بمعنى استقام – الخامس:

من كتاب إيجاز البيان في الترجمة عن القرآن:

قوله تعالى(وَقَدَّرَ فِيها أَقْواتَها)وسيأتي في (فصلت) وإنما قلنا خلق هنا بمعنى قدر ، لأنه قال بعد هذا« ثُمَّ اسْتَوى إِلَى السَّماءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَماواتٍ »فجاء بثم ، يؤذن بالبعدية ، فخلق الأرض وقدر فيها أقواتها علما ، ثم استوى إلى السماء وكانت واحدة ففتقها وسواها سبع سماوات طباقا

ص 91

بمعنى اعتدل – السادس : بمعنى علا – قال الشاعر :ولما علونا واستوينا عليهم *
تركناهم صرعى لنسر وكاسرقال الحسن بن سهل : إذا علم أصل الوضع وتصاريف الاستعمال فنزل على ذلك الاستواء المنسوب إلى ربه سبحانه وتعالى ، وقد فسره الهروي بالقصد ، وفسره ابن عرفة بالإقبال كما نقل عن الفراء ، وفسره بعضهم بالاستيلاء ، وأنكره ابن الأعرابي وقال : العرب لا تقول استولى إلا لمن له تضادد ، وفيما قاله نظر لأن الاستيلاء من الولي وهو القرب أو من الولاية وكلاهما لا يفتقر إطلاقه بالمضادد ، ونقل الحسن بن سهل عن ابن عبّاس –رضي اللّه عنهما– أنّه فسر قوله تعالى–: ﴿ثُمَّ اسْتَوى إِلَى السَّماءِ﴾ قال : علا أمره ، وهذه التفاسير كلها ومنه قوله –تعالى–: ﴿وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ﴾

وقوله –تعالى–: ﴿لِتَسْتَوُوا عَلى ظُهُورِهِ﴾ الآية فلا يليق نسبة مثله إلى استواء ربنا تعالى على العرش ، مع أنا نقول قد علمت أصل اشتقاق الاستواء ولا مدخل فيه لمعنى الاستقرار ، وإنما الحق أن معنى استوى على الدابة جاء على الأصل ، ويكون معناه اعتدل ، أو علا عليها ، والاستقرار لازم ذلك بحسب خصوصية المحل ، لا أن للاستقرار مدخلا في معنى اللفظ مطلقا ، وحينئذ فلا يصح نسبة مثله إليه تعالى لاستحالته في حقه ، وعدم وضع اللفظ له ، وقد ثبت عن الإمام مالك رضي اللّه عنه أنه سئل كيف استوى ؟

فقال : كيف غير معقول ، والاستواء غير مجهول ، والإيمان به واجب ، والسؤال عنه بدعة ، فقوله كيف غير معقول ، أي : كيف من صفات الحوادث وكلما كان من صفات الحوادث فإثباته في صفات اللّه –تعالى– ينافي ما يقتضيه العقل ، فيجزم على نفيه عن اللّه تعالى ، وقوله : والاستواء غير مجهول ، أي أنه معلوم المعنى عند أهل اللّغة ، : والإيمان به على الوجه الأليق به تعالى واجب ، لأنه من الإيمان باللّه تعالى وبكتبه ، : والسؤال عنه بدعة : أي حادث لأن الصحابة رضي اللّه عنهم كانوا عالمين بمعناه الأليق بحسب اللغة ، فلم يحتاجوا للسؤال عنه ، فلما جاء من لم يحط بأوضاع لغتهم ، ولا له نور كنورهم ، يهديه لصفات ربهم ، شرع يسأل عن ذلك ، فكان سؤاله سببا لاشتباهه

من كتاب إيجاز البيان في الترجمة عن القرآن:

فدارت بكواكبها ، ففتق الأرض بما أخرج فيها ومنها من معدن ونبات وحيوان ، فكان إيجادا عند دوران الأفلاك بعد تقدير ، وجعل سبحانه هذا الخلق كله من أجلنا ، فأية نعمة أو أية عناية أعظم

ص 92

على الناس وزيغهم عن المراد، وتعين على العلماء حينئذ أن لا يهملوا البيان، قال اللّه –تعالى–: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلا تَكْتُمُونَهُ﴾ ولا بدّ في إيضاح البيان الزيادة فنقول : قد قررنا أن الاستواء مشتق من السواء وأصله العدل ، وحينئذ الاستواء المنسوب إلى ربنا –تعالى– في كتابه بمعنى اعتدل أي قام بالعدل ، وأصله من قوله –تعالى–: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لا إِلهَ إِلَّا هُوَ)إلى قوله(قائِماً بِالْقِسْطِ﴾، فقيامه بالقسط والعدل هو استواؤه ، ويرجع معناه إلى أنه أعطى بعدله كل شيء خلقه ، موزونا بحكمته البالغة في التعرف لخلقه بوحدانيته ، ولذلك قرنه بقوله: ﴿لا إِلهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ والاستواء المذكور في كتابه استواءان:

استواء سماوي

واستواء عرشي

فالأول تعدى بإلى قال تعالى :« هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ ما فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً ثُمَّ اسْتَوى إِلَى السَّماءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَماواتٍ »وقال« ثُمَّ اسْتَوى إِلَى السَّماءِ وَهِيَ دُخانٌ »ومعناه – واللّه أعلم – اعتدل أي : قام بقسطه وتسويته إلى السماء فسواهن سبع سماوات ، ونبّه على أن استواءه هذا هو قيامه بميزان الحكمة ، وتسويته بقوله أولا عن الأرض(وَقَدَّرَ فِيها أَقْواتَها فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَواءً لِلسَّائِلِينَ)وبقوله آخرا(ذلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ. (

وأما الاستواء العرشي :فهو أنه تعالى قام بالقسط ، متعرفا بوحدانيته في عالمين:

عالم الخلق ، وعالم الأمر وهو عالم التدبير ،(أَلا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ)فكان استواؤه على العرش للتدبير بعد انتهاء عالم الخلق لقوله –تعالى– : (الذي خلق السماوات والأرض وما

بينهما في ستة أيام ثم استوى على العرش يدبر الأمر ما من شفيع إلا من بعد إذنه) وبهذا يفهم سر تعدية الاستواء العرشي بعلى ، لأن التدبير للأمر لا بد فيه من استعلاء واستيلاء« وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ »وعلمه تعالى ذاته ، فإنه يستحيل عليه أن يقوم بذاته أمر زائد ، أو عين زائدة ما هي ذاته ، تعطيها حكما لا يصح لها ذلك الحكم دونها مما يكون كمالا لها في ألوهيتها ، بل لا تصح الألوهة إلا بها وهو كونه عالما بكل شيء ، ذكر ذلك عن نفسه بطريق المدحة لذاته ، ودل عليه دليل العقل– .

]القصد من خلق الثقلين[

رقيقة – لما خلق اللّه الثقلين في المقام الذي قصده بخلقهم وهو أجلية الحق ، من قوله –تعالى–: ﴿وَما خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾، فرغهم لذلك

من كتاب إيجاز البيان في الترجمة عن القرآن:

من هذه العناية ، التي لأجلها خلق هذا الخلق العظيم الكبير ، ومصداق كونه من أجلنا أنه إذا انتقلنا إلى الدار الآخرة مارت السماء وانشقت ، وزالت الأرض وسارت الجبال بزوالنا من الدنيا

ص 93

حتى لا يقوم لهم حجة بالاشتغال بما به قوامهم ، فخلق الأشياء التي بها قوامهم خاصة من أجلهم ليتفرغوا لما قصد بهم ، فقامت عليهم حجة اللّه إذا لم يقوموا بما خلقوا له ، جاء في الأثر أن الحق يقول لابن آدم : خلقت الأشياء من أجلك ، وخلقتك من أجلي ، فلا تهتك ما خلقت من أجلي ، فيما خلقت من أجلك.

]العالم لا يرمي بشيء من الوجود[

تحقيق العالم لا يرمي بشيء من الوجود ، وإنما يبرز إليه ما يناسبه منه ، ولا يغلب عليه حال من الأحوال ، بل هو مع كل حال بما يناسبه ، فإن أكثر الناس لا يعلمون ذلك ، بل هم بهذا القدر جاهلون ، وهذا هو الذي أداهم إلى ذم الدنيا وما فيها ، والزهد في الآخرة ، وفي كل ما سوى اللّه ، وانتقدوا على من شغل نفسه بمسمى هذه كلها ، وجعلهم في ذلك ما حكي عن الأكابر في هذا النوع ، وحملوا ألفاظهم على غير وجه ما تعطيه الحقيقة ، ورأوا أن كل ما سوى اللّه حجاب عن اللّه ، فأرادوا هتك هذا الحجاب فلم يقدروا عليه إلا بالزهد فيه.

والحقّ كلّ يوم في شأن الخلق ، والجنة وهي دار القربة ومحل الرؤية ، هي دار الشهوات وعموم اللذات ، ولو كانت حجابا لكان الزهد والحجاب فيها ، وكذلك الدار الدنيا ، فاللّه خلق أجناس الخلق وأنواعه ، وما أبرز من أشخاصه لننظر فيه نظرا يوصلنا إلى العلم بخالقه ، فما خلقه لنزهد فيه ، فوجب علينا الانكباب عليه ، والمثابرة والمحبة فيه ، لأنه طريق النظر الموصل إلى الحق ، فمن زهد في الدليل فقد زهد في المدلول ، وخسر الدنيا والآخرة ، ذلك هو الخسران المبين.

وجهل حكمة اللّه في العالم وجهل الحق وكان من الخاسرين ، فالرجل كل الرجل من ظهر بصورة الحق في عبودة محضة ، فأعطى كل ذي حق حقه ، ويبدأ بحق نفسه فإنها أقرب إليه من كل من توجه له عليه حق من المخلوقين ، وحق اللّه أحق بالقضاء ، وحق اللّه عليه إيصال كل حق إلى من يستحقه ، فيطلبه أصحاب الحقوق بحقوقهم نطقا وحالا ظاهرا وباطنا ، فيطلبه السمع بحقه ، والبصر واللسان واليدان والبطن والفرج والقدمان والقلب والعقل والفكر والنفس النباتية ، والحيوانية والغضبية والشهوانية والحرص ، والأمل والخوف والرجاء والإسلام والإيمان والإحسان ، وأمثال هؤلاء من عالمه المتصل به ، وأمره الحق أن لا يغفل

من كتاب إيجاز البيان في الترجمة عن القرآن:

وكان أيضا هذا ابتلاء مدرجا في نعمة ، أو نعمة مدرجة في ابتلاء ، مثل خلق الحياة والموت ، فقال –تعالى–: ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكانَ عَرْشُهُ عَلَى الْماءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ﴾

ص 94

عن أحد من هؤلاء أوّلا ، ويصرفهم في المواطن التي عين له الحق ، وجعل هذه القوى كلها متوجهة على هذه النفس الناطقة بطلب حقوقها ، وجعلها كلها ناطقة بتسبيح اللّه تعالى جعلا ذاتيا لا تنفك عنه ، وجعل هذه الحقوق التي توجهت لها على النفس الناطقة الحاكمة على الجماعة ثابتة الحق جزاء لما هي عليه من تسبيح اللّه بحمده دنيا وآخرة ، فالعارف المكمّل المعرفة يعلم أن فيه من يطلب مشاهدة ربه ومعرفته الفكرية والشهودية ، فتعين عليه أن يؤدي إليهم حقهم من ذلك ، وعلم أن فيه من يطلب المأكل الشهي الذي يلائم مزاجه ، والمشرب والمنكح والمركب والملبس والسماع والنعيم الحسي المحسوس ، فتعين عليه أيضا أن يؤدي إليهم حقوقهم من ذلك الذي عين لهم الحق ، ومن كان هذا حاله كيف يصح له أن يزهد في شيء من الموجودات ؟ وما خلقها اللّه إلا له . إلا أنه مفتقر إلى علم ما هو له وما هو لغيره لئلا يقول كل شيء هو له ، فلا ينظر من الوجوه الحسان إلا ما يعلم أنه له ، وما يعلم أنه لغيره يكف بصره ويغضه عنه ، فإنه محجور عليه ما هو لغيره ، فهذا حظه من الورع والاجتناب ، والزهد إنما متعلقة الأولوية بخلاف الورع وكل ترك ، فأما الأولوية فينظر في الموطن يعمل بمقتضاه ، ومقتضاه قد عينه له الحق بما أعلمه به بلسان الشرع ، فسموا من طريق الأخذ بالأولوية زهادا ، حيث أخذوا بها ، فإن لهم تناول ذلك في الحياة الدنيا فما فعلوا ، لأن اللّه خيرهم فما أوجبه عليهم ولا ندبهم إليه ولا حجر عليهم ولا كرهه فاعلم ذلك ، ثم إنه ينظر في هذا المخير فيه فلا يخلو حاله في تناوله أن يحول بينه هذا التناول وبين المقام الأعلى الذي رجحه له أو لا يحول ، فإن حال بينه وبينه تعين عليه بحكم العقل الصحيح السليم تركه والزهد فيه ، وإن كان على بينة من ربه أن ذلك لا يقدح ، ولا يحول بينه وبين الرتبة العليا من ذلك فلا فائدة لتركه ، كما قال لنبيه سليمان عليه السلام :« هذا عَطاؤُنا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسابٍ »ولا تكون

ممن تلتبس عليه الأمور فيتخيل أنه بزهده فيما هو حق لشخص ما من رعيته ، ينال حظ ما يطلبه به منه شخص آخر من رعيته ، فإن

من كتاب إيجاز البيان في الترجمة عن القرآن:

أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ *وقال: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ﴾، فقال –تعالى–: ﴿وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾، أي بما خلق ، وبما لأجله خلق ، وبما يكون ممن خلق ، وقال –تعالى–: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمْ ما فِي السَّماواتِ وَما فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً مِنْهُ﴾، فهو قوله: ﴿خَلَقَ لَكُمْ﴾، *أي من أجلكم ، وجعل ذلك آيات لقوم يتفكرون ليعلموا ما مراد

ص 95

سورة البقرة (2) : آية 30

﴿وَإِذْ قالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي جاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قالُوا أَ تَجْعَلُ فِيها مَنْ يُفْسِدُ فِيها وَيَسْفِكُ الدِّماءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قالَ إِنِّي أَعْلَمُ ما لا تَعْلَمُونَ (30(خلق الخليفة من العناصر﴾

]خلق الخليفة من العناصر[

لما خلق اللّه الأفلاك والسماوات ، وأوحى في كل سماء أمرها ، ورتب فيها أنوارها وسرجها ، وعمرها بملائكته وحركها فتحركت ، وخلق الجان من النار ، والطير والدواب البرية والبحرية والحشرات ، وقدر في الأرض أقواتها من أجل المولدات ، فجعلها خزانة لأقواتهم ، واستوت المملكة وتهيأت ، ما عرف أحد من هؤلاء المخلوقات كلها من أي جنس يكون هذا الخليفة ؟ الذي مهد اللّه هذه المملكة لوجوده ، بترتيب اللّه الخلق بالإيجاد ، إلى أن انتهت النوبة والترتيب الإلهي إلى ظهور هذه النشأة الإنسانية الآدمية ، فلما وصل الوقت المعين في علمه لإيجاد هذا الخليفة ، أمر بعض ملائكته بأن يأتيه بقبضة من كل أجناس

تربة الأرض ، فأتاه بها – في خبر طويل معلوم عند الناس – فأخذها سبحانه وخمرها بيديه في قوله « لما خلقت بيدي » فلما خمر الحق تعالى بيديه طينة آدم حتى تغير ريحها وهو المسنون ، وذلك الجزء الهوائي الذي في النشأة ، وكان الجزء الناري الذي أنشأه اللّه منه في قوله تعالى :« مِنْ صَلْصالٍ كَالْفَخَّارِ »والجزء المائي هو الذي عجن به التراب فصار طينا ، فلما سوى نشأته جعل ظهره محلا للأشقياء والسعداء من ذريته ، فأودع فيه ما كان في قبضتيه ، فإنه سبحانه أخبر أن في قبضة يمينه السعداء ، وفي قبضة اليد الأخرى الأشقياء ، وكلتا يدي ربي يمين مباركة ، فقال : هؤلاء للجنة ،

من كتاب إيجاز البيان في الترجمة عن القرآن:
اللّه من ذلك ، فمن وجوهه عندنا الابتلاء الذي نبهنا عليه ، ثم أردف هذه الآية بنعمة الاستخلاف وتعليم الأسماء والسجود لهذه النشأة الإنسانية ، فقال تعالى (31)« وَإِذْ قالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ.«

ص 93

وبعمل أهل الجنة يعملون ، وهؤلاء إلى النار ، وبعمل أهل النار يعملون ، وأنشأ الحق هذه النشأة الإنسانية في أحسن تقويم ، ثم نفخ فيها من روحه المضاف إليه ، فحدث عند هذا النفخ فيه بسريانه في أجزائه الحياة وما يتبعها من كونه حيوانا ، وبذلك جمع اللّه في الإنسان الكامل بين الصورتين الطبيعيتين في نشأته ، فخلقه بجسم مظلم كثيف ، وبجسم لطيف محمول في هذا الجسم الكثيف سماه روحا له ، به كان حيوانا وهو البخار الخارج من تجويف القلب المنتشر في أجزاء البدن المعطي فيه النمو والإحساس ، ثم خصه بما يتميز به عن الحيوان بالقوة المصورة والعاقلة ، ثم أنشأه خلقا آخر وهو الإنسانية فجعله درّاكا بهذه القوى ، حيا عالما قادرا مريدا متكلما سميعا بصيرا على حد معلوم معتاد في اكتسابه ، وخصه دون العالم كله بالقوة المفكرة التي بها يدبر الأمور ويفصلها ، وليس لغيره من العالم ذلك فإنه على الصورة الإلهية ، ومن صورتها يدبر الأمر يفصل الآيات فتبارك اللّه أحسن الخالقين

–البحث الثّاني:

]ما هو الإنسان ؟[

ما هو الإنسان ؟

اعلم أن الناس اختلفوا في مسمى الإنسان ما هو ؟

فقالت طائفة : هو اللطيفة

وطائفة قالت : هو الجسم ، وطائفة قالت : هو المجموع وهو الأولى.

وقد وردت لفظة الإنسان على ما ذهبت إليه كل طائفة ، ثم اختلفنا في شرفه هل هو ذاتي ؟

أو هو بمرتبته نالها بعد ظهوره في عينه وتسويته كاملا في إنسانيته إما بالعلم وإما بالخلافة والإمامة ؟

فمن قال : إنه شريف لذاته ، نظر إلى خلق اللّه إياه بيديه ، ولم يجمع ذلك لغيره من المخلوقين ، وقال : إنه خلقه على صورته ، فهذه حجة من قال شرفه شرف ذاتي ، ومن خالف هذا القول قال : لو أنه شريف لذاته لكنا إذا رأينا ذاته علمنا شرفه ،

من كتاب إيجاز البيان في الترجمة عن القرآن:

لما اقتضى عند اللّه خلقنا صلاحا في نفس الأمر ، قرن التعريف لمحمد صلّى اللّه عليه وسلم بالاسم الرب الذي هو المصلح ، وأضافه إلى محمد صلّى اللّه عليه وسلم اعتناء به أنه المقصود من هذه النشأة ، إذ كان سيد الناس يوم القيامة ، وأخفى في الدنيا ما يجب من تعظيمه لعلو منزلته ، كما أخفى ما يستحقه جل جلاله من تعظيم عباده إياه ، وأطلق الألسنة عليه بأن له صاحبة وولدا ، وما وقع به التعريف مما لا يليق به ، كذلك قيل فيه صلّى اللّه عليه وسلم إنه ساحر مجنون كذاب ، وغير ذلك ، فإذا كان يوم القيامة وظهر الحق سبحانه في عزته وكبريائه ، فذلّ كل موجود تحت عزته على الكشف ، وذهبت الدعاوى وتبرأ الذين اتّبعوا من الذين اتّبعوا ، ظهر أيضا في ذلك اليوم مقام محمد صلّى اللّه عليه وسلم وسيادته على الناس ، وافتقار

ص 94

والأمر ليس كذلك ، ولم يكن يتميز الإنسان الكبير الشريف بما يكون عليه من العلم والخلق على غيره من الأناسي ويجمعهما الحد الذاتي ، فدل أن شرف الإنسان بأمر عارض يسمى المنزلة أو المرتبة ، فالمنزلة هي الشريفة ، والشخص الموصوف بها نال الشرف بحكم التبعية ، كمرتبة الرسالة والنبوة والخلافة والسلطنة ، فما علم شرف الإنسان إلا بما أعطاه اللّه من العلم والخلافة ، فليس لمخلوق شرف من ذاته على غيره إلا بتشريف اللّه إياه . وأرفع المنازل عند اللّه أن يحفظ اللّه على عبده مشاهدة عبوديته دائما ، سواء خلع عليه من الخلع الربانية شيئا أو لم يخلع ، فهذه أشرف منزلة تعطى لعبد.

وهو قوله تعالى : (وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي)وقوله سبحانه : (سُبْحانَ الَّذِي أَسْرى بِعَبْدِهِ)فقرن معه تنزيهه ، فليس لصنعة شرف أعلى من إضافتها إلى صانعها ، ولهذا لم يكن لمخلوق شرف إلا بالوجه الخاص الذي له من الحق ، لا من جهة سببه المخلوق مثله ، وفي هذا الشرف يستوي أول موجود – وهو القلم أو العقل أو ما سميته – وأدنى الموجودات مرتبة ، فإن النسبة واحدة في الإيجاد ، والحقيقة واحدة في الجميع من الإمكان ، فآخر صورة ظهر فيها الإنسان الصورة الآدمية ، وليس وراءها صورة أنزل منها ، وبها يكون في النار من شقي لأنها نشأة تركيب تقبل الآلام والعلل ، وأما أهل السعادة فينشئون نشأة وتركيبا لا يقبل ألما ولا مرضا ولا خبثا ، ولهذا لا يهرم أهل الجنة ولا يتمخطون ولا يبولون ولا يتغوطون ولا يسقمون ولا يجوعون ولا يعطشون ، وأهل النار على النقيض منهم ، وهي نشأة الدنيا وتركيبها فهي أدنى صورة قبلها الإنسان وقد أتت عليه أزمنة ودهور قبل أن يظهر في هذه الصورة الآدمية ، وهو في الصورة التي له في كل مقام وحضرة من فلك وسماء وغير ذلك مما تمر عليه الأزمان والدهور ، ولم يكن قط في صورة من تلك الصور مذكورا بهذه الصورة الآدمية العنصرية ، ولهذا ما

من كتاب إيجاز البيان في الترجمة عن القرآن:

الخلق إليه من سائر الأمم في فتح باب الشفاعة ، وبان فضله على سائر الأنبياء والرسل ، فعلم هنالك عظم منزلته عند ربّه ، كما تظهر عزة كل مقرب عند سلطان عند ظهور سلطانه ودولته ، فأخبر سبحانه نبيه محمدا –صلّى اللّه عليه وسلّم– بما كان بينه جل علاه وبين ملائكته في حق آدم صلّى اللّه عليه وسلم ، فمن جعل لفظة الملائكة بمعنى الرسل كان صفة ، فدخل فيهم إبليس ، ومن جعله اسما لهم من حيث نشأتهم وإن كانوا سموا به لاستتارهم ، لم يدخل إبليس في هذا الخطاب ، وقد يكون الخطاب عاما لهم ولغيرهم من المخلوقين في ذلك الوقت ، وخصوا الملائكة بالذكر اعتناء بهم وتهمما وتشريفا ، فيدخل إبليس

ص 95

ابتلاه قط في صورة من صوره في جميع العالم إلا في هذه الصورة الآدمية ، ولا عصى الإنسان قط خالقه إلا فيها ، ولا ادعى رتبة خالقه إلا فيها ولا مات إلا فيها ، ولهذا يقبل الموت أهل الكبائر في النار ، ثم يخرجون فيغمسون في نهر الحياة فيتركبون تركيبا لا يقبل الآلام ولا الأسقام ، فيدخلون بتلك الصورة الجنّة

–البحث الثّالث–

]خلق الانسان الكامل[

خلق آدم عليه السلام الإنسان الكامل الأول ، والخليفة الأول ، باليدين وعلى الصورة الإلهية : لما أراد اللّه بالإنسان الخلافة والإمامة بدأ بإيجاد العالم ، وهيأه وسواه وعدله ورتبه مملكة قائمة ، فلما استعد لقبول أن يكون مأموما أنشأ اللّه جسم الإنسان الطبيعي ونفخ فيه من الروح الإلهي ، فخلقه على صورته لأجل الاستخلاف ، فظهر بجسمه فكان المسمى آدم فجعله في الأرض خليفة ، وكان من أمره وحاله مع الملائكة ما ذكر اللّه في كتابه لنا ، وجعل الإمامة في بنيه إلى يوم القيامة ، فالإنسان الكامل هو المقصود الذي به عمرت الدنيا وقامت ، وإذا رحل عنها زالت الدنيا ، ومارت السماء ، وانتثرت النجوم ، وكورت الشمس ، وسيرت الجبال ، وعطلت العشار ، وسجرت البحار ، وذهبت الدار الدنيا بآخرها ، وانتقلت العمارة إلى الدار الآخرة ، بانتقال الإنسان ، فعمرت الجنة والنار ، وما بعد الدنيا من دار : إلّا الجنّة والنّار.

واعلم أن اللّه جمع لنشأة جسد آدم بين يديه فقال « لما خلقت بيدي » فإنه لما أراد اللّه كمال هذه النشأة الإنسانية جمع لها بين يديه ، وأعطاها جميع حقائق العالم ، وتجلى لها في الأسماء كلها ، فحازت الصورة الإلهية ، والصورة الكونية ، وجعلها روحا للعالم وجعل أصناف العالم له كالأعضاء من الجسم للروح المدبرة له ، فلو فارق العالم هذا الإنسان مات العالم ، فالدار الدنيا جارحة من جوارح جسد العالم الذي الإنسان روحه ، فلمّا قابل الإنسان الحضرتين بذاته (الحضرة الإلهيّة والحضرة الكونيّة) صحّت له الخلافة ، وتدبير العالم

من كتاب إيجاز البيان في الترجمة عن القرآن:
في التعريف وإن لم يجر له ذكر ، وأما قوله تعالى« إِنِّي جاعِلٌ »أي خالق وناصب« فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً »فإن أراد في ذلك من يخلف من مضى في الأرض من الأمم قبلنا أو الملائكة ، وهو الأظهر ، فيدخل تحت هذه اللّفظة آدم وذريته الكافر والمؤمن ، وإن أراد بالخلافة النيابة عنه في خلقه ، فتختص بذلك الرسل صلوات اللّه عليهم ، والوجهان صالحان لذلك« قالُوا أَ تَجْعَلُ فِيها مَنْ يُفْسِدُ فِيها وَيَسْفِكُ الدِّماءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ »فلهذا تقوى عندنا وظهر أنا خلف من الملائكة في الأرض ، لأنهم لو فهموا من الحق في خطابه أن المراد غيرهم لما أجابوا بهذا الجواب ، هذا جواب
ص 96

وتفصيله ، فإذا لم يحز الإنسان رتبة الكمال فهو حيوان تشبه صورته صورة الإنسان.
فالإنسان الكامل من تممت له الصورة الإلهية ، ولا يكمل إلا بالمرتبة ، ومن نزل عنها فعنده من الصورة بقدر ما عنده ، ألا ترى الحيوان يسمع ويبصر ويدرك الروائح والطعوم والحار والبارد ولا يقال فيه إنسان ! بل هو حمار وفرس وطائر وغير ذلك ، فلو كملت فيه الصورة قيل فيه إنسان ، كذلك الإنسان لا يكمل فيزول عنه الاسم العام إلى الاسم الخاص فلا يسمى خليفة إلا بكمال الصورة الإلهية فيه ، إذ العالم لا ينظرون إلا إليها ، وهو الآخر

بخلقه الطبيعي فإنه آخر المولدات فإن اللّه ما خلق أولا من هذا النوع إلا الكامل ، وهو آدم عليه السلام ، وهو لم يكن مبعوثا لأنه لم يكن مرسلا إلى أحد ، وإنما كان في الأرض لوجود عالم التركيب ، فهو مفتتح وجودنا ، فالإنسان الكامل ظاهره خلق ، وباطنه حق ، وما عدا هذا فهو الإنسان الحيواني ، ورتبة الإنسان الحيواني من الإنسان الكامل رتبة خلق النسناس من الإنسان الحيواني ، ثم أبان الحق عن مرتبة الكمال لهذا النوع ، فمن حازها منه فهو الإنسان الذي أريده ، ومن نزل عن تلك الرتبة فعنده من الإنسانية بحسب ما تبقى له ، وليس في الموجودات من وسع الحق سواه ، وما وسعه إلا بقبول الصورة ، فهو مجلى الحق فيرى الحق صورته في الإنسان الكامل ، ومعنى رؤية الحق صورته فيه هو : إطلاق جميع الأسماء الإلهية عليه . كما جاء في الخبر « فبهم تنصرون » واللّه الناصر « وبهم ترزقون » واللّه الرازق « وبهم ترحمون » واللّه الراحم ، فإنه سبحانه ما سمى نفسه باسم من الأسماء إلا وجعل للإنسان في التخلق بذلك الاسم حظا منه يظهر به في العالم على قدر ما يليق به ، وأنزله خليفة عنه في أرضه ، والخليفة معلوم أنه لا يظهر إلا بصفة من استخلفه ، فلا مخلوق أعظم رحمة من الإنسان الكامل الذي هو مجلى حقائق العالم ، فهو آخر نوع ظهر ، فأوليته حق وآخريته خلق ، فهو

من كتاب إيجاز البيان في الترجمة عن القرآن:

على أنهم أجابوا من حيث ما فهموا ، وقد يكون الأمر في نفسه على ما فهموا وقد لا يكون ، وذلك أن كل كلام يحكيه الحق أو يخبر به أنه قول لأحد من خلقه ، لا يلزم منه أن يكون صحيحا مدلول ذلك القول ، ولا فاسدا ولا إصابة ولا خطأ ، وإنما تتبين صحته وفساده من دليل آخر سمعي أو عقلي ، والأظهر ما ذهبنا إليه في مفهومهم ، ولما أبصرت الملائكة نشأة الإنسان مركبة من طبائع متنافرة ، دلهم ذلك على أنه في جبلة هذا المخلوق المنازعة في جنسه ومع غير جنسه ،

ص 97

الأول من حيث الصورة الإلهية ، والآخر من حيث الصورة الكونية ، والظاهر بالصورتين والباطن عن الصورة الكونية بما عنده من الصورة الإلهية ، وقد ظهر حكم هذا في عدم علم الملائكة بمنزلته مع كون اللّه قد قال لهم : إنّه خليفة ، فكيف بهم لو لم يقل لهم ذلك ؟ فلم يكن ذلك إلا لبطونه عن الملائكة ، وهم من العالم الأعلى العالم بما في الآخرة وبعض الأولى ، فإنهم لو علموا ما يكون في الأولى ما جهلوا رتبة آدم عليه السلام مع التعريف الإلهي لهم بقوله :« إِنِّي جاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً »وما عرفه من العالم إلا اللوح والقلم وهم العالون ، ولا يتمكن لهم إنكاره والقلم قد سطره واللوح قد حواه ، فإن القلم لما سطره سطر رتبته وما يكون منه ، واللوح قد علم علم ذوق ما خطه القلم فيه . أما الملائكة فلم تر من آدم إلا صورته الطبيعية الجسمية المظلمة العنصرية الكثيفة ، لذلك قالت ما قالت ، وكان آدم عند العالم من الملائكة فمن دونهم مجهول الباطن ، فحكموا عليه بالفساد ، أي بالإفساد من ظاهر نشأته لمّا رأوها قامت من طبائع مختلفة متضادة متنافرة ، فعلموا أنه لا بد أن يظهر أثر هذه الأصول على من هو على هذه النشأة ، فلو علموا باطنه وهو حقيقة ما خلقه اللّه عليه من الصورة حيث قال صلّى اللّه عليه وسلم : « إن اللّه خلق آدم على صورته » لعلمت الملائكة ما جهلته من آدم ، فلما أعلمهم اللّه بكمال الصورة فيه وأمرهم بالسجود له سارعوا بالسجود ، ولا سيما وقد ظهر لهم بالفعل في تعليمه الأسماء إياهم ، ولو لم يعلمهم وقال لهم اللّه إني أعطيته الصورة والسورة لأخذوها إيمانا وعاملوه بما عاملوه به لأمر اللّه ، فلولا أن اللّه تعالى جمع لآدم في خلقه بين يديه فحاز الصورتين وإلا كان من جملة الحيوان الذي يمشي على رجليه ، وإنا وإن حزنا بخلقنا الصورة الربانية فنحن بحكم الأصل عبيد عبودية لا حرية فيها ، فما نحن سادة ولا أرباب ، قال صلّى اللّه عليه وسلم : كمل من الرجال كثيرون ولم يكمل من النساء إلا آسية

من كتاب إيجاز البيان في الترجمة عن القرآن:

ويدخل في هذا الجان والإنس ، وإنما لم يذكروا ذلك وإن كانوا من طبائع متنافرة غير أنهم غلب عليهم عنصر النار كما غلب علينا عنصر التراب ، فهم أشد منازعة منا للحركة السريعة التي في لهب النار والسكون الذي في التراب ، فكل منازعة تقع منا فمن غلبة

طبيعة النار في ذلك الوقت ، وهو الغضب والحمية ، وهو المرة الصفراء ، لكن الجان لما لم يقل لهم الحق إنهم يخلفونكم في الأرض لم يقولوا شيئا ، وإنما القول في الجان بالمنازعة أولى لما ذكرناه ف ﴿قالُوا أَ تَجْعَلُ فِيها مَنْ يُفْسِدُ فِيها

ص 98

امرأة فرعون ، ومريم ابنة عمران . فلكون الإنسان الكامل على الصورة الكاملة صحت له الخلافة والنيابة عن اللّه تعالى في العالم ، فبالإنسانية والخلافة صحت له الصورة على الكمال ، وما كل إنسان خليفة ، فإن الإنسان الحيوان ليس بخليفة عندنا ، وليس المخصوص بها أيضا الذكورية فقط ، فكلامنا في صورة الكامل من الرجال والنساء ، فإن الإنسانية تجمع الذكر والأنثى ، والذكورية والأنوثة إنما هما عارضان ليستا من حقائق الإنسانية لمشاركة الحيوانات كلها في ذلك ، وقد شهد رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم بالكمال للنساء كما شهد به للرجال فقال في الصحيح : كمل من الرجال كثيرون ، وكملت من النساء مريم بنت عمران وآسية امرأة فرعون . فالكمل هم الخلائف ، فإن اللّه قد اعتنى بالإنسان دون العالم غاية العناية ما لم يعتن بمخلوق بكونه جعله خليفة ، وأعطاه الكمال بعلم الأسماء ، وخلقه على الصورة الإلهية ، وأكمل من الصورة الإلهية ما يمكن أن يكون في الوجود . فالإنسان الكامل مثل ، ضد ، خلاف ، فهو مثل من حيث الصورة الإلهية ، ضدّ من حيث أنه لا يصح أن يكون في حال كونه عبدا ربا لمن هو له عبد ، خلاف من حيث أن الحق سمعه وبصره وقواه فأثبته وأثبت نفسه ، والإنسان الكامل الظاهر بالصورة الإلهية لم يعطه اللّه هذا الكمال إلا ليكون بدلا من الحق ، ولهذا سماه خليفة ، وما بعده من أمثاله خلفاء له ، فالأول وحده هو خليفة الحق ، وما ظهر عنه من أمثاله في عالم الأجسام فهم خلفاء هذا الخليفة وبدل منه في كل أمر يصح أن يكون له . واعلم أن المراتب كلها إلهية بالأصالة ، وظهرت أحكامها في الكون ، وأعلى رتبة إلهية ظهرت في الإنسان الكامل ، فأعلى الرتب رتبة الغنى عن كل شيء ، وتلك الرتبة لا تنبغي إلا للّه من حيث ذاته ، وأعلى الرتب في العالم الغنى بكل شيء وإن

من كتاب إيجاز البيان في الترجمة عن القرآن:
وَيَسْفِكُ الدِّماءَ﴾ فإن أرادوا بالفساد إزالة ترتيب بعض ما نظم اللّه عليه بعض العالم مما لهم تسلط عليه وقوة ، ويسفك الدماء فيهم وفيما يذبحونه من الحيوانات ويقتلونها ، فغيرة منهم على جناب الحق ، لأن له في كل ترتيب تسبيح مخصوص ، فإذا فسد ذلك النظام ذهب عين تلك الصورة فزال ذلك التسبيح والتقديس بزوال المسبح والمقدس ، فقالوا حقا وغيرة وإيثارا لجناب الحق ، وهو الظن بهم ، وإن أرادوا بالفساد وسفك الدماء غير ما تشرع لهم ، فينتهكون حرمة الحق المشروع ، ويتعدون حدوده ، ويخالفون أمره ، فيريدون المخالفين من بني آدم ، وسبب وجود الذرية وجود الأب الأول الذي هو الأصل ، وإنما لم يتعرضوا له ولكن يتضمنه الكلام ،

ص 99

شئت قلت : الفقر إلى كل شيء ، وتلك رتبة الإنسان الكامل ، فإن كل شيء خلق له ومن أجله وسخر له ، لما علم اللّه من حاجته إليه ، فليس له غنى عنه ، ولذلك استخدم اللّه له العالم كله ، فما من حقيقة صورية في العالم الأعلى والأسفل إلا وهي ناظرة إليه نظر كمال ، أمينة على سر أودعها اللّه إياه لتوصله إليه– .

]حكم الصّورة الإلهيّة[
حكم الصورة الإلهية التي خلق عليها الإنسان : إنّ العالم وإن كان على صورة الحق فما كان العالم على الكمال في صورة الحقّ حتّى وجد الإنسان فيه ، فبه كمل العالم ، فالإنسان الأول بالمرتبة الآخر بالوجود ، والإنسان من حيث رتبته أقدم من حيث جسميّته ، فالعالم بالإنسان على صورة الحق ، والإنسان دون العالم على صورة الحقّ ، والعالم دون الإنسان ليس على الكمال في صورة الحقّ ، ولذلك لما خلق اللّه الإنسان الكامل وخلفاءه من الأناسي على أكمل صورة ، وما ثم كمال إلا صورته تعالى ، أخبر أن آدم خلقه على صورته ليشهد فيعرف من طريق الشهود ، فأبطن في صورته الظاهرة أسماءه سبحانه التي خلع عليه حقائقها ، ووصفه بجميع ما وصف به نفسه ، ونفى عنه المثلية فلا يماثل وهو

قوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ من العالم ، أي ليس مثل مثله شيء من العالم ، ولم يكن مثلا إلا بالصورة ، لهذا كان الخليفة على صورة من استخلفه ، فالنسبة الجامعة بين الحق والخلق ، هي الصورة التي خلق عليها الإنسان ، ولما كان للصورة حكم ، ومن ظهر في صورة كان له حكمها ، من هنا تعرف مرتبة الإنسان الكامل الذي خلقه على صورته ، ولتلك الصور حكم فتتبع الحكم الصورة ، فلم يدّع الألوهية لنفسه أحد من خلق اللّه إلا الإنسان الذي ظهر بأحكام الأسماء والنيابة ، ومن سواه ادعيت فيه وما ادعاها ، قال فرعون: ﴿أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلى﴾ وما في الخلق من يملك سوى الإنسان ، وما سوى الإنسان من ملك وغيره لا يملك شيئا ، يقول اللّه تعالى في إثبات الملك للإنسان ﴿أَوْ ما مَلَكَتْ أَيْمانُكُمْ﴾ وما ثم موجود ما يقرّ له بالعبودية إلا الإنسان فيقال هذا عبد فلان ، ولهذا شرع اللّه له العتق ورغّبه فيه وجعل له ولاء المعتق إذا مات من غير وارث ، كما أن الورث للّه من عباده قال –تعالى–: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْها﴾ وما ثم موجود

من كتاب إيجاز البيان في الترجمة عن القرآن:
وإن كان القصد بإنزال المطر في طلب العباد له سقي زراعاتهم ، فيتخرب بيت العجوز الضعيفة بذلك المطر ، قالت عائشة (يا رسول اللّه أنهلك وفينا الصالحون ؟ قال نعم إذا كثر الخبث بالمدينة ، فيعم الهلاك الصالح والطالح ويمتازون في القيامة)(وَامْتازُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ)ثم قالوا عن
ص 100

يقبل التسمية بجميع الأسماء الإلهية إلا الإنسان ، وقد ندب إلى التخلق بها ولهذا أعطي الخلافة والنيابة وعلم الأسماء كلها ، وكان آخر نشأة في العالم جامعة لحقائق العالم ، مما اختص اللّه بها ملكه كله وصورته ، ولما كان للإنسان الكامل هذا المنصب العالي ، كان العين المقصودة من العالم وحده ، وظهر هذا الكمال في آدم عليه السلام في قوله تعالى : (وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْماءَ كُلَّها(

]الخليفة واحد[

الخليفة واحد :جمع الأنام على إمام واحد * عين الدليل على الإله الواحدقال اللّه عزّ وجل : (وَإِلهُكُمْ إِلهٌ واحِدٌ)وقال تعالى : (لَوْ كانَ فِيهِما آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتا)وقال سبحانه : (إِنِّي جاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً)وقال رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم : إذا بويع لخليفتين فاقتلوا الآخر منهما وقال صلّى اللّه عليه وسلم:

]الخلفاء من قريش[

والتقريش التقبض والاجتماع ،كذلك الإمام إن لم يكن متصفا بأخلاق من استخلفه جامعا لها ممّا يحتاج من استخلف عليهم وإلا فلا تصح خلافته ، فهو الواحد المجموع

]تتابع الخلفاء في الأرض[

تتابع الخلفاء في الأرض : اعلم أن اللّه تعالى لما شاء أن يجعل في أرضه خلفاء على من يعمرها من الإنس والجان وجميع الحيوانات ، وقدمهم ورشحهم للإمامة دون غيرهم من جنسهم جعل بينه وبينهم سفيرا وهو الروح الأمين ، وسخر لهم ما في السماوات من ملك وكوكب سابح في فلك ، وما في الأرض وما بينهما من الخلق جميعا منه ، وأباح لهم جميع ما في الأرض أن يتصرفوا فيه ، وأيد هؤلاء الخلفاء بالآيات البينات ليعلم المرسلون إليهم أن هؤلاء خلفاء اللّه عليهم ، ومكنهم من الحكم في رعيتهم بالأسماء الإلهية على وجه يسمى التعلق ، وشرع لهم في نفوسهم شرائع ، وحد لهم حدودا ، ورسم لهم مراسم ، يقفون عندها يختصون بها ، لا يجوز لأحد من رعاياهم أن يتخذوها لأنفسهم شرائع ، ولا يقتدون بهم فيها ، ثم نصب لهم شرائع يعملون بها هم ورعيتهم وكتب لهم كتبا بذلك نزلت بها السفراء عليهم ، ليسمعوها رعيتهم فيعلموا حدود ما أنزل اللّه الذي استخلف عليهم فيقفوا عندها ، ويعملوا بها سرا وجهرا ، فمنها ما كتبه

من كتاب إيجاز البيان في الترجمة عن القرآن:

نفوسهم تحدثا وثناء على اللّه بما أنعم عليهم ، فقالوا« وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ »أي من أجلك« قالَ »اللّه تعالى« إِنِّي أَعْلَمُ ما لا تَعْلَمُونَ »من قولكم فيكم وفيمن

يخلفكم ، وذلك أن قولهم« نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ »فأضاف وأخر التعريف ، ولم يقولوا بالحمد الذي لك ، فالمفهوم منه تعميم

ص 101

بيده تعالى وهو التوراة ، ومنها ما نزل به الروح الأمين عليهم من الكتاب المكنون الذي نزل من اللّه من عرشه المنقول من الدفتر الأعظم ، وهو الإمام المبين فهو معه على عرشه ، ونقل منه في اللوح المحفوظ قدر ما يقع به التصريف في الدنيا إلى يوم القيامة ، ويتضمن ما في العالم من حركة وسكون ، واجتماع وافتراق ، ورزق وأجل وعمل ، ثمّ أنزل ذلك كلّه في كتاب مكنون إلى السماء الدنيا ، وجعله بأيدي سفرة ، كرام برزة ، مطهرين أرواح قدس ، صحفا مكرمة ، مرفوعة مطهرة فيها توقيعات إلهية بما وعد اللّه المؤمنين باللّه وملائكته وكتبه ورسله وما جاءت به رسله من اليوم الآخر والبعث الآخر وما يكون في ذلك اليوم من حكم اللّه في خلقه ، وتولى اللّه ذلك كله بنفسه على صورة الحق الذي بعث به رسله ، ليصدقهم عند عبيده ، فعلا بحكمه ذلك فيهم ، كما صدقهم في حال احتجابه بما أيدهم به من الآيات ، فآمن من آمن ، وكفر من كفر ، ثم إنه أنزل في الكتب والصحف على ألسنة الخلفاء صلوات اللّه عليهم وسلامة من الوعيد والتهديد ، وأخذ من كفر باللّه ونافق أو آمن ببعض وكفر ببعض مما أنزله اللّه ، وجحد وأشرك ، وكذب وظلم ، واعتدى وأساء ، وخالف وعصى ، وأعرض وفسق ، وتولى وأدبر ، وأخبر في التوقيع أنه من كان بهذه المثابة وقامت به هذه الصفات في الحياة الدنيا أو بعضها ثم تاب إلى اللّه منها ، ومات على توبة من ذلك كله ، فإنه يلقى ربه وهو راض عنه ، فإن فسح له وأنسأ اللّه في أجله بعد توبته فعمل عملا صالحا بدّل اللّه سيئاته حسنات ، وغفر له جميع ما كان وقع منه قبل ذلك ، ولم يؤاخذه بشيء منه ، وما زالت التّوقيعات الإلهية تنزل من اللّه على خلفائه بما يعدهم اللّه به من آمن باللّه ورسله من الخير ، وما توعد به لمن كفر به من الشر ، مدة إقامة ذلك الخليفة المنزل عليه وهو الرسول إلى حين موته ، فمن زمان خلافته إلى انتهاء مدة عمره لا تزال التوقيعات الإلهية تنزل عليه ، فإذا مات واستخلف من شاء بوحي من اللّه له في ذلك ، أو ترك الأمر شورى بين أصحابه ، فيولون من يجمعون عليه ، إلى أن يبعث اللّه من عنده

رسولا ، فيقيم فيهم خليفة آخر ، إلا إذا كان خاتم الخلفاء فإن اللّه يقيم نوابا عنه ، فيكونون خلفاء الخليفة من عند اللّه ، لا أنّهم

من كتاب إيجاز البيان في الترجمة عن القرآن:
الحمد الذي يليق باللّه ، فإنّ التنكير أعم ، أي أبين في العموم من الألف واللام ، وإن كان يقتضي استغراق أجناس الثناء ، فيقتضي أيضا التّعريف والعهد ، فلا يختصّ بأحد الوجهين إلا بدليل ، ومن جملة ما يثنى عليه سبحانه به معرفة أسماء الثناء ، فإن الثناء لا يقع إلا بعد معرفة الأسماء

ص 102

في منزلة الرّسل خلفاء من عند اللّه ، وهم الأقطاب وأمراء المؤمنين إلى يوم القيامة ، فمن هؤلاء النواب من يكشف اللّه عنه الغطاء فيكون من أهل العين والشهود ، فيدعو إلى اللّه على بصيرة ، كما دعا رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم ، ولولا أن الزمان اقتضى أن لا يكون مشرع بعد رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم لكان هؤلاء مشرعين ، وإن لم يأتوا إلا بشرع رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم ، فإنهم كانوا يكونون فيه كما كان رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم في شرع من قبله إذا حكم به في أمته ، فهو بمنزلة الأول الذي كان قبله ، لا خليفة عنه في ذلك وإن قرره ، فلما منع اللّه ذلك في هذه الأمة ، علمنا أنهم خلفاء رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم وإن دعوا إلى اللّه على بصيرة ، كما دعا رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم ، كما ورد في القرآن العزيز عنه في قوله :« أَدْعُوا إِلَى اللَّهِ عَلى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي »فالعبد إذا أقيم في خروجه من حضرة الحق إلى الخلق بطريق التحكم فيهم من حيث لا يشعرون ، وقد يشعرون في حق بعض الأشخاص من هذا النوع كالرسل عليهم السلام ، الذين جعلهم اللّه خلائف في الأرض ، يبلغون إليهم حكم اللّه فيهم ، وأخفى ذلك في الورثة فهم خلفاء من حيث لا يشعر بهم ، ولا يتمكن لهذا الخليفة المشعور به وغير المشعور به أن يقوم في الخلافة إلا بعد أن يحصل معاني حروف أوائل السور سور القرآن المعجمة.

مثل « ألف لام ميم » وغيرها الواردة في أوائل بعض سور القرآن ، فإذا أوقفه اللّه على حقائقها ومعانيها تعينت له الخلافة ، وكان أهلا للنيابة ، هذا في علمه بظاهر هذه الحروف ، وأما علمه بباطنها فعلى تلك المدرجة يرجع إلى الحق فيها ، فيقف على أسرارها ومعانيها من الاسم الباطن إلى أن يصل إلى غايتها ، فيحجب الحق ظهوره بطريق الخدمة في نفس الأمر ، فيرى مع هذا القرب الإلهي خلقا بلاحق ، كما يرى العامة بعضهم بعضا ، ولا يكون في الزمان إلا واحدا يسمى الغوث والقطب ، وهو الذي ينفرد الحق ويخلو به دون خلقه ، فإذا فارق هيكله المنور انفرد بشخص آخر لا ينفرد بشخصين في زمان واحد ، وذلك العبد عين اللّه في كل زمان ، لا ينظر الحق في زمانه إلا إليه.

]لم كان الخليفة في الأرض ؟[

لم كان الخليفة في الأرض ؟

:لما كان الاختصاص الإلهي الكامل في الجمع بين السعادة والصورة ، كان الكمال للمؤمن بالخلافة في المكان الذي من شأنه أن يظهر فيه كمال الصورة ، من نفوذ الاقتدار عند الإغضاب ، وليست الجنة بمحل لهذه الصفة

من كتاب إيجاز البيان في الترجمة عن القرآن:

فإنها تدل على المسميات ، سواء كانوا حاضرين أو غير حاضرين ، فإن كانوا حاضرين فيغني الثناء بالإشارة ، وإن كانوا غير حاضرين ولا علم لهم بأسماء من غاب ويريدون الثناء على اللّه بهم ،

ص 103

فليست بدار خلافة بل هي دار ولاية ، ونشأة الدنيا على مزاج يقبل الغضب ولهذا قال :« إِنِّي جاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً »ولم يقل في العالم – الوجه الثاني في قوله تعالى« إِنِّي جاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً »ورد في الخبر أن النبي صلّى اللّه عليه وسلم قال :

]أنا سيد ولد آدم ولا فخر [وفي صحيح مسلم

]أنا سيد الناس يوم القيامة [فثبتت له السيادة والشرف على أبناء جنسه من البشر ، وقال عليه السلام : « كنت نبيا وآدم بين الماء والطين » يريد على علم بذلك ، فأخبره اللّه تعالى بمرتبته وهو روح قبل إيجاده الأجسام الإنسانية ، كما أخذ الميثاق على بني آدم قبل إيجاد أجسامهم ، فكانت الأنبياء في العالم نوابه صلّى اللّه عليه وسلم ، من آدم إلى آخر الرسل عليهم السلام.

وقد أبان –صلّى اللّه عليه وسلّم– عن هذا المقام بأمور : منها قوله صلّى اللّه عليه وسلم « واللّه لو كان موسى حيا ما وسعه إلا أن يتبعني. «

وقوله في نزول عيسى ابن مريم في آخر الزمان إنّه يؤمنا بسنة نبينا عليه السلام ، ولو كان محمد صلّى اللّه عليه وسلم قد بعث في زمان آدم لكانت الأنبياء وجميع الناس تحت شريعته إلى يوم القيامة حسا ، ولهذا لم يبعث عامة إلا هو خاصة ، فهو الملك والسيد وكل رسول سواه بعث إلى قوم مخصوصين ، فمن زمان آدم عليه السلام إلى زمان بعث محمد صلّى اللّه عليه وسلم إلى يوم القيامة ملكه ، وتقدمه في الآخرة على جميع الرسل وسيادته فمنصوص على ذلك في الصحيح عنه ، فروحانيته صلّى اللّه عليه وسلم موجودة وروحانية كل نبي ورسول ، فكان الإمداد يأتي إليهم من تلك الروح الطاهرة بما يظهرون به من الشرائع والعلوم في زمان وجودهم رسلا ، فنسب كل شرع إلى من بعث به ، وهو في الحقيقة شرع محمد –صلّى اللّه عليه وسلّم– وإن كان مفقود العين من حيث لا يعلم ذلك ، فهو صلّى اللّه عليه وسلم الحاكم غيبا وشهادة ، فبنو آدم سوقة وملك لهذا السيد محمد صلّى اللّه عليه وسلم وهو المقصود فهو ملك وسيّد على جميع بني آدم ، وجميع من تقدمه كان ملكا له وتبعا ، والحاكمون فيه نوّاب عنه.

والملك عبارة عمّا مهّد اللّه من آدم إلى زمان محمّد –صلّى اللّه عليه وسلّم– من الترتيبات في هذه النشأة الإنسانيّة بما ظهر من الأحكام الإلهية فيها ، فكانوا خلفاء الخليفة السيد ، وأول موجود ظهر من الأجسام الإنسانية كان آدم عليه السلام ، فكان آدم –عليه السّلام– أول خليفة ونائب عن رسول اللّه –صلّى اللّه عليه وسلّم– ، فقد ورد في الحديث

من كتاب إيجاز البيان في الترجمة عن القرآن:

لا يتمكن لهم ذلك لعدم معرفتهم بأسمائهم ، فقد نقص من عموم ذلك الحمد ما ادعوه ، فقال: ﴿إِنِّي أَعْلَمُ ما لا تَعْلَمُونَ﴾ والثناء كلام ، والكلام إنما هو بالأسماء والمسمّيات ، وقولهم: ﴿وَنُقَدِّسُ لَكَ

ص 104

المروي أن اللّه يقول : (لولاك يا محمد ما خلقت سماء ولا أرضا ، ولا جنة ولا نارا) فكان آدم أول خليفة عنه ثم ولد واتصل النسل ، وعين في كل زمان خلفاء ، إلى أن وصل زمان نشأة الجسم الطاهر محمد صلّى اللّه عليه وسلم ، فظهر مثل الشمس الباهرة ، فاندرج كل نور في نوره الساطع ، وغاب كل حكم في حكمه ، وانقادت جميع الشرائع إليه ، وظهرت سيادته التي كانت باطنة ، فإن الإنسان آخر موجود من أجناس العالم.
فإنه ما ثم إلا ستة أجناس وكل جنس تحته أنواع وتحت الأنواع أنواع:
فالجنس الأول الملك
والثاني الجان
والثالث المعدن
والرابع النبات
والخامس الحيوان ، وانتهى الملك واستوى
وكان الجنس السادس جنس الإنسان وهو الخليفة .
وإنما وجد آخرا ليكون إماما بالفعل حقيقة ، لا بالصلاحية والقوة ، فعند ما وجد عينه لم يوجد إلا واليا سلطانا ملحوظا ، فجعل الحق للرسول صلّى اللّه عليه وسلم نوابا ، حين تأخرت نشأة جسده ، فكان آدم عليه السلام أول نائب عنه صلّى اللّه عليه وسلم.
فقال تعالى :« وَإِذْ قالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي جاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً »يحتمل أن يكون المراد بالخلافة أن يخلف من كان قبله فيها لما فقد ، فإن اللّه لما نفخ في آدم من روحه ، وأمر الملائكة بالسجود له ، فوقعت ساجدة عن الأمر الإلهي بذلك ، فجعله قبلة للملائكة.
وذلك قوله تعالى : (إِنِّي خالِقٌ بَشَراً مِنْ طِينٍ ، فَإِذا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي ، فَقَعُوا لَهُ ساجِدِينَ)ثم عرفهم بخلافته في الأرض فلم يعرفوا عمن هو خليفة ، فربما ظنوا أنه

خليفة في عمارتها عمن سلف ، ويحتمل أن تكون الخلافة أي النيابة عن الحق في أرضه ، وعليه الكلام وكان المقصود بقوله خليفة أي نائب الحق الظاهر بصورته.
لقول الملائكة :« أَ تَجْعَلُ فِيها مَنْ يُفْسِدُ فِيها وَيَسْفِكُ الدِّماءَ »وهذا لا يقع إلا ممن له حكم ، ولا حكم إلا لمن له مرتبة التقدم وإنفاذ الأمر ، فخلقه على صورته قال صلّى اللّه عليه وسلم : إن اللّه خلق آدم على صورته ، ولما كان عالم الخلق والتركيب يقتضي الشر لذاته ، لهذا قال عالم الأمر – الذي هو الخير الذي لا شر فيه – حين رأى خلق الإنسان وتركيبه من الطبائع المتنافرة ، والتنافر هو عين التنازع ، والنزاع أمر مؤد إلى الفساد قالوا :« أَ تَجْعَلُ فِيها مَنْ يُفْسِدُ فِيها وَيَسْفِكُ الدِّماءَ«

من كتاب إيجاز البيان في الترجمة عن القرآن:
يقولون ونقدس ذواتنا من أجلك ، فلا يقوم بنا جهل بك ، فيقال لهم : هل تعلمون أسماء هؤلاء ؟ فيقولون لا ، فيقال لهم : فلم لم تقدسوا ذواتكم من جهلكم بما ينسب إلينا من هذه

ص 105

فاعترضت الملائكة لنشأة آدم من الطبيعة ، لما تحمله الصورة من الأضداد ، ولا سيما وقد جعل آدم من العناصر ، فلم تشاهد الملائكة الأسماء الإلهية التي هي أحكام هذه الصورة ، وهي كون الحق سمعه وبصره وجميع قواه ، فلو شهدت ذلك ما اعترضت ، ولكنها اعترضت لما رأوا من تقابل طبائعه في نشأته ، فعلموا أن العجلة تسرع إليه ، وأن تقابل ما تركب منه جسده ينتج عنه نزاعا فيؤثر فسادا في الأرض وسفك دماء ، فقالت ما قالت ، من غير تعرض لمواقع الأحكام المشروعة.
وكذلك وقع مثل ما قالوه فإنهم رأوا الحق سبحانه يقول : (وَاللَّهُ لا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ(وقال :« وَاللَّهُ لا يُحِبُّ الْفَسادَ »فكرهوا ما كره اللّه ، وأحبوا ما أحب اللّه ، وجرى حكم اللّه في الخلق بما قدره العزيز العليم ، فما ظهر من عالم التركيب من الشرور فمن طبيعته التي ذكرتها الملائكة ، فإن الغالب على عالم الأرض سلطان الهوى ، وهو يورث الفساد ،

فعلمت الملائكة ما يقع لعلمهم بالحقائق ، لأن المولد من الأضداد المتنافرة لا بد فيه من المنازعة ، ولا سيما المولد من الأركان ، وكذا وقع الأمر ، وإنما وقع الغلط عندهم في استعجالهم بهذا القول ، من قبل أن يعلموا حكمة اللّه في هذا الفعل ما هي ، وحملهم على ذلك الغيرة التي فطروا عليها في جناب اللّه . فما ذكرت الملائكة إلا مساوينا وما تعرضت للحسن من ذلك ، إلا لأن الملأ الأعلى تغلب عليه الغيرة على جناب اللّه أن يهتضم ، وعلمت من هذه النشأة العنصرية أنها لا بد أن تخالف ربها لما هي عليه من حقيقتها ، وذلك عندها بالذوق من ذاتها فإنها مخلوقة من عالم الطبيعة ، وإنما هي في نشأتنا أظهر ، فإن اعتراض الملائكة من حيث طبيعتهم وغيرتهم على الجناب الإلهي ، فبالذي وقع من الإنسان من الفساد وغيره مما يقتضيه عالم الطبع ، به بعينه وقع اعتراض الملائكة ، فرأوه في غيرهم ولم يروه في نفوسهم ، فإن الملائكة غلب عليها الطبع ، ولم ترد الخير إلا لنفسها ، وما وافقت الحق فيما أراد أن يظهره في الكون ، من جعل آدم خليفة في الأرض ، فعرفهم بذلك ، فلم يوافقوه ، لحكم الطبع في الطمع في أعلى المراتب ، وقامت لهم صورة الغيرة على جناب الحق ، والإيثار لعظمته ، وذهلوا عن تعظيمه ، إذ لو وقفوا مع ما ينبغي له من العظمة لوافقوه ؛ وما وافقوه ، وإن كانوا قصدوا الخير ، فقالوا :« وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ

من كتاب إيجاز البيان في الترجمة عن القرآن:

الأسماء ؟

فقالوا(سُبْحانَكَ لا عِلْمَ لَنا إِلَّا ما عَلَّمْتَنا)فرجعوا إلى العجز وطلب العلم ، ولهذا

ص 106

وَنُقَدِّسُ لَكَ »تعني ذواتها وقولها :« لَكَ »أي من أجلك ، وكونهم ذوات مقدسة لذاتها أنها لم تلتفت قط إلى غير الاسم الإلهي الذي عنه تكونت ، فلم يطرأ عليها حجاب يحجبها عن إلهها ، فتتصف لذلك الحجاب بأنها غير مقدسة.

ولذلك قال تعالى في الملائكة : (يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهارَ لا يَفْتُرُونَ)ولا يكون ذلك إلا من ذاته مقدسة بالشهود الدائم ، فقولها يعني نحن أولى من هذا ، فرجحوا نظرهم على علم اللّه في خلقه ، لذلك قال لهم :« إِنِّي أَعْلَمُ ما لا تَعْلَمُونَ »فوصفهم بنفي العلم ، الذي علم الحق من هذا الخليفة مما لم يعلموا ، وأثنوا على أنفسهم ، فمسألتهم جمعت ذلك حيث أثنوا على أنفسهم ، وعدلوها ، وجرحوا غيرهم ، وما ردوا العلم في ذلك إلى اللّه ، وهذا يؤيد أن الملائكة تحت حكم الطبيعة ، وأن لها أثرا فيهم وفي ذلك نقول:

سورة البقرة (2) : آية 32
﴿قالُوا سُبْحانَكَ لا عِلْمَ لَنا إِلاَّ ما عَلَّمْتَنا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾ (32(

»قالُوا »أي قالت الملائكة :« سُبْحانَكَ لا عِلْمَ لَنا إِلَّا ما عَلَّمْتَنا »فمن علمهم باللّه أنهم ما أضافوا التعليم إلا إليه تعالى« إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ »بما لا يعلم« الْحَكِيمُ »بترتيب الأشياء مراتبها ، فأعطيت هذا الخليفة ما لم تعطنا مما غاب عنا . والأسماء الإلهية منها ما كانت الملائكة تعلمه ، وما اختص آدم إلا بالكل ، وما عرض من المسميات إلا ما كانت الملائكة تجهله ، وما صحت الخلافة للعبد الإنسان الكامل إلا بقبوله لجميع الأسماء الإلهية التي بأيدينا ، وبها صحت الخلافة ، وفضل على الملائكة ، فالخليفة إن لم يظهر فيمن هو خليفة عليه بأحكام من استخلفه وصورته في التصرف فيه وإلا فما هو خليفة له ، واستخلاف الرب عبده خلافة مقيدة بحسب ما تعطيه ذاته ونشأته ، بعكس استخلاف العبد ربه لما اتخذه وكيلا ، فهي خلافة مطلقة ووكالة مفوضة.

سورة البقرة (2) : آية 33
﴿قالَ يا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمائِهِمْ قالَ أَ لَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ ما تُبْدُونَ وَما كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ (33(

اعلم أن للأسماء أنوارا تظهر مسمياتها حقا وخلقا ، وهذه الأنوار كانت لآدم عليه السلام

من كتاب إيجاز البيان في الترجمة عن القرآن:
أن المعروض هو المسميات ، بقوله تعالى« أَنْبِئُونِي بِأَسْماءِ هؤُلاءِ" (33) " قالُوا " قالت الملائكة« سُبْحانَكَ »أي أنت المنزه أن تتصف بجهل شيء من المعلومات بمثل ما اتصفنا« لا عِلْمَ لَنا إِلَّا ما عَلَّمْتَنا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ »بكل شيء« الْحَكِيمُ »أي المرتب للأشياء على ما ينبغي لها أن تكون ، ومنها جعلك هذا الإنسان خليفة في الأرض ، ولولا قرائن الأحوال لكان قولهم(أَ تَجْعَلُ فِيها مَنْ يُفْسِدُ فِيها)استعلاما من الحق عن ذلك لا على جهة الإنكار والاعتراض ، ولهذا عدلنا به إلى غلبة الغيرة عليهم ، بما علموه من مخالفتهم لأوامر اللّه ، وقد أرى اللّه الملائكة سفك الدماء في ذات اللّه ، والفساد في مرضاة اللّه ، وأنزلهم يوم بدر مقاتلين فقاتلوا ، فوقع منهم ما ذكروه مما يقع من الإنسان من سفك الدماء ، وفساد الأعيان عن ترتيب ما كانت عليه بطريق مقرب إلى اللّه تعالى ، فصدّقهم اللّه في الواقع لأنهم أهل علم وكشف ، وغيّب عنهم كون ذلك يقع قربة إلى اللّه (34)« قالَ

ص 113

حين علم جميع الأسماء بالوضع الإلهي لا بالاصطلاح ، وفي ذلك تكون الفضيلة والاختصاص ، فإن للّه أسماء أوجد بها الملائكة وجميع العالم ، وللّه أسماء أوجد بها جامع حقائق الحضرة الإلهية وهو الإنسان الكامل ، ظهر ذلك بالنص في آدم ، وخفي في غيره فقال تعالى للملائكة في فضل آدم وفي فضل هذا المقام وقد أحضر الملائكة المسميات أعني أعيانهم :« أَنْبِئُونِي بِأَسْماءِ هؤُلاءِ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ »أي بالأسماء الإلهية التي صدروا عنها.
فلم يعلموا ذلك فقال اللّه :« يا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمائِهِمْ »أي بأسماء هؤلاء الذين عرضناهم عليهم ، وهي الأسماء الإلهية التي أوجدتهم واستندوا إليها في إيجاد أعيانهم ، لا أسماء الاصطلاح الوضعي الكوني فإنه لا فائدة فيه ، فأنبأ آدم الملائكة بأسماء تلك التجليات فكان هؤلاء المسمون المعروضة على الملائكة تجليات إلهية في صورة ما في آدم من الحقائق ، وجعل اللّه تعالى آدم أستاذا للملائكة فعلمهم الأسماء كلها ، فلما علمهم آدم

عليه السلام وهو قوله تعالى :« فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمائِهِمْ »« قالَ »أي قال لهم اللّه« أَ لَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّماواتِ »وهو ما علا من علم الغيوب« وَالْأَرْضِ »وهو ما في الطبيعة من الأسرار« وَأَعْلَمُ ما تُبْدُونَ »أي ما هو من الأمور ظاهر« وَما كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ »أي ما تخفونه على أنه باطن مستور . واعلم أنه مع أنه ليس فوق مرتبة الإنسان مرتبة إلا مرتبة الملك في المخلوقات ، وقد تلمذت الملائكة له حين علمهم الأسماء ، فلا يدل هذا على أنه خير من الملك ، ولكنه يدل على أنه أكمل نشأة من الملك.

سورة البقرة (2) : آية 34

﴿وَإِذْ قُلْنا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلاَّ إِبْلِيسَ أَبى وَاسْتَكْبَرَ وَكانَ مِنَ الْكافِرِينَ﴾ (34)

ثم قال تعالى للملائكة بعد التعليم: ﴿اسْجُدُوا لِآدَمَ﴾ سجود المتعلمين للمعلم من أجل

من كتاب إيجاز البيان في الترجمة عن القرآن:

يا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ » يقول أعلمهم « بِأَسْمائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ »أعلمهم بأسمائهم« قالَ »اللّه للملائكة« أَ لَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ »لكلام قد تقدم له سبحانه مع ملائكته لم يذكره لنا ، ثم قال« وَأَعْلَمُ ما تُبْدُونَ »يقول ما تظهرون« وَما كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ »يقول ما هو

ص 114

ما علمهم ، فلآدم هنا لام العلة والسبب أي من أجل آدم ، فالسجود للّه من أجل آدم سجود شكر لما علمهم اللّه من العلم به ، وبما خلقه في آدم عليه السلام ، فعلموا ما لم يكونوا يعلمون فأمر اللّه سبحانه للملائكة بالسّجود لمعلمهم سجود أمر – كسجود الناس إلى الكعبة – وتشريف ، لا سجود عبادة ، نعوذ باللّه فيكون في هذا العالم الإنساني ثمرة السجود ، لا نفس السجود ، وإنما هو التواضع والخضوع والإقرار بالسبق والفخر والشرف والتقدم له ، كتواضع التلميذ لمعلمه . فنال آدم –عليه السّلام– التقدمة عليهم بكونه علمهم ، فهو أستاذهم في هذه المسألة ، وبعده فما ظهرت هذه الحقيقة في أحد من

البشر إلّا في محمد –صلّى اللّه عليه وسلّم– ، فقال عن نفسه : إنه أوتي جوامع الكلم ، وهو قوله تعالى في حقّ آدم –عليه السّلام–: ﴿الْأَسْماءَ كُلَّها﴾ وكلّها بمنزلة الجوامع ، والكلم بمنزلة الأسماء ، فنال التقدمة بها وبالصورة التي خلقه اللّه عليها ، عند ذلك علمت الملائكة أن آدم –عليه السلام– خليفة اللّه في أرضه ، لا خليفة عن سلف ، ثم ما زال يتلقاها كامل عن كامل حتى انتهت إلى السيّد الأكبر المشهود له بالكمال محمد – صلّى اللّه عليه وسلّم– الذي عرف بنبوته وآدم بين الماء والطين ، وأوتي –صلّى اللّه عليه وسلّم– جوامع الكلم ،كما أوتي آدم جميع الأسماء ، ثمّ علّمه اللّه الأسماء التي علمها آدم ، فعلم علم الأولين والآخرين ، فكان محمد صلّى اللّه عليه وسلم أعظم خليفة وأكبر إمام .« فَسَجَدُوا »ولم يزل حكم السجود فيهم لآدم وللكامل من أبنائه أبدا دائما ، فإن الملأ الأعلى عنده ازدحام لرؤية الإنسان

من كتاب إيجاز البيان في الترجمة عن القرآن:

مكتوم فيكم مما لا تعلمونه أنتم ، وما هو مكتوم عندكم بعضكم من بعض ، وهو قوله(يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفى)فالسر ما بين العبد والحق ، والأخفى ما يعلمه سبحانه من العبد ولا يعلمه العبد من نفسه أنه يكون فيه ، ثم أعلم سبحانه نبيه فقال أيضا (35) ﴿وَإِذْ قُلْنا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ﴾ الآية ، تقدم قبل هذا أن ضمير الجماعة في جانب الحق يعود على الأسماء من جهة ما تطلبه الحقائق في تلك القصّة ، فقد أنعم على آدم بأشياء متعددة ، بإيجاد عينه ، وبما علّمه من العلم ، مع أنه لا يقوى في تصفية نشأته تصفية الملائكة ، فإنهم مخلوقون من نور ، وآدم مخلوق من حمأ مسنون ومن صلصال ، ثمّ نفخ فيه روحا ملكيا في مثل هذه النشأة التّرابيّة ، وخلقها بيديه ، وهذه كلّها أسباب أسماء مختلفة النسب ، فكلّ اسم له نسبة أثر في آدم ، له أن يقول أنا ، فإذا اجتمعت الأسماء صدق القائل أن يقول: ﴿قُلْنا﴾، فقال: ﴿وَإِذْ قُلْنا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ﴾، فأحدث لهم حرمة بالسجود للّه سبحانه من أجل خلق آدم ، وما أنعم به عليه ، حيث أبدى لهم في وجوده من العلم

ص 115

الخليفة ، وأمروا بالسّجود فطأطئوا عن أمر اللّه ، ناظرين إلى مكان هذا الخليفة حتى يكون السجود له ، لأن اللّه أمرهم بالسجود له ، فقال صلّى اللّه عليه وسلم : أطت السماء بعمارها وحق لها أن تئط ، ما فيها موضع شبر إلا وفيه ملك ساجد للّه ، واستصحاب سجود الملائكة للإمام دنيا وآخرة ونقول في الملائكة :قدّسهمو أن يجهلوا حق من * قد سخر اللّه له العالمين كيف لهم وعلمهم أنني * ابن الذي قد خروا له ساجدينواعترفوا بعد اعتراض علي * والدنا بكونهم جاهلين وأبلس الشخص الذي قد أبى * وكان للفضل من الجاحدينقدّسهمو قدّسهمو أنهم * قد عصموا من خطأ المخطئين.

كيف توجه الخطاب على إبليس وهو ليس من صنف الملائكة ؟

والسؤال هنا : كيف توجه الخطاب على إبليس وهو ليس من صنف الملائكة ؟ فقال تعالى :« إِلَّا إِبْلِيسَ أَبى وَاسْتَكْبَرَ » .فنقول إن معنى الملائكة : الرسل وهو من المقلوب ، وأصله مألكة ، والألوكة الرسالة والمألكة الرسالة ، فما تختص بجنس دون جنس ، فالرسالة جنس حكم يعم الأرواح الكرام البررة السفرة ، والجن ، والإنس ، فمن كل صنف من أرسل ، ومنه من لم يرسل ، ولهذا دخل إبليس في الخطاب بالأمر بالسجود لما قال اللّه للملائكة: ﴿اسْجُدُوا﴾، لأنّه ممّن كان يستعمل في الرسالة ، فهو رسول ، فأمره اللّه فأبى واستكبر فكان ذلك سببا لبعده عن القرب الإلهي ، فصح الاستثناء وجعله منصوبا بالاستثناء المنقطع ، فقطعه عن الملائكة كما قطعه عنهم في خلقه من نار ، ولكنه تعالى شرّك بينهم في

من كتاب إيجاز البيان في الترجمة عن القرآن:

بالأسماء ما لم يكونوا يعلمون ، والسجود للّه ، وجرت العادة في الملوك إذا أنعموا على شخص بحضور خاصته ، أن يخدموه بما جرت العادة أن يخدموه به ، ولا سيما إذا عاد عليهم من ذلك الشخص منفعة من جانب الملك لهم بسببه ، فتكون تلك الخدمة من

أجل ذلك الشخص للملك« فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبى وَاسْتَكْبَرَ »وأبى إبليس واستكبر حسدا وظلما وعلوا للجنسية ، فإنه رأى نفسه مخلوقا مثله من الطبائع الأربع ، ورأى أن العنصر الذي غلب عليه أشرف من العنصر الذي غلب على نشأة الإنسان ، فهذا استكباره ، وأمّا إبايته فقد نبهنا أن النارية تقتضي له ذلك ، ويكون الاستثناء متصلا بوجه ، ومنقطعا بوجه ، فمن راعى نشأته وجنسه ، قال : إنه استثناء منقطع ، ومن رأى أنه في الملائكة كالمستهلك فيهم لكثرتهم ، واتصاله بهم في جماعتهم في عباداتهم

ص 116

الرّسالة ، فكأنه تعالى يقول :« إِلَّا إِبْلِيسَ »إلا من أبعده اللّه من المأمورين بالسجود« أَبى وَاسْتَكْبَرَ »وقال :﴿أَنا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ﴾ *ثمّ قال –تعالى–: ﴿وَكانَ مِنَ الْكافِرِينَ﴾، فطمع إبليس في الرّحمة التي وسعت كل شيء ، وطمعه فيها من عين المنة لإطلاقها ، لأنه علم في نفسه أنه موحد ، وسماه اللّه كافرا فقال : ﴿كانَ مِنَ الْكافِرِينَ﴾ ولم يقل من المشركين لأنه يخاف اللّه رب العالمين ويعلم أنّ اللّه واحد ، وقد علم مآل الموحّدين إلى أين يصير ، سواء كان توحيدا عن إيمان أو عن نظر من غير إيمان ، وعلم أن جهنم لا تقبل خلود أهل التوحيد وإنما سماه اللّه كافرا لأنه يستر عن العباد طرق سعادتهم التي جاء بها الشرع في حق كل إنسان.

سورة البقرة (2) : آية 35

﴿وَقُلْنا يا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلا مِنْها رَغَداً حَيْثُ شِئْتُما وَلا تَقْرَبا هذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ (35(

سمّي آدم بآدم لحكم ظاهره عليه فإنه ما عرف منه سوى ظاهره ، فلا يعرف مخلوق من الإنسان سوى ظاهره ، وأمّا باطنه فمجهول . ومن هذه الآيات نعلم أن أول أمر ظهر في العالم الطبيعي هو قول اللّه تعالى لإبليس : اسجد لآدم ، فظهر الأمر فيه ، وأوّل نهي قوله –تعالى– لآدم وحواء: ﴿لا تَقْرَبا هذِهِ الشَّجَرَةَ﴾، فظهر النّهي فيهما ، وقوله –تعالى–: ﴿هذِهِ الشَّجَرَةَ﴾

من كتاب إيجاز البيان في الترجمة عن القرآن:
ومشاركته لهم فيها ، جعله استثناء متصلا ، ودل على أنه كان مأمورا بالسجود قوله تعالى« أَبى »ولا يقع الامتناع إلا بعد توجه تكليف ، وقد يجوز أن يكون السجود سجود تحية ، كسجود أبوي يوسف وإخوته له ، والأول أوجه ، يعضد ما قلناه الحديث الصحيح ، قال عليه السلام:
لو أذن لأحد أن يسجد لأحد ، لأذنت للمرأة أن تسجد لزوجها ، وأما سجود التحية فغير منكور فيمن تقدم ، وهو من فعل الأعاجم ، وهو هذا الانحناء الذي يكون منهم عند التقاء بعضهم بعضا ، وكون السّجود مكروها لغير اللّه أو محرما هو أمر مشروع ليس لذاته بخلاف العبودية فإنه ممتنع بذاته أن يكون عبدًا لغير اللّه حقيقة ﴿وَكانَ مِنَ الْكافِرِينَ﴾ هنا أي من الفاسقين الخارجين عن أمر اللّه بدليل قوله: ﴿كانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ﴾، فسمّاه: كافرا ، ثمّ قال: (36) ﴿وَقُلْنا يا آدَمُ اسْكُنْ﴾ الآية ، قال: يا آدم اسكن ﴿أَنْتَ وَزَوْجُكَ﴾، يعني: حواء، ﴿الْجَنَّةَ﴾، أي اتّخذها مسكنًا
ص 117

بحرف الإشارة تعيين لشجرة معينة ، فتقدم الأمر لآدم –عليه السّلام– بسكنى الجنة والأكل منها حيث شاء ، ثم نهاه عن قرب شجرة مشار إليها أن يقربها ، فوقع التحجير والنهي في قوله حيث شئتما لا في الأكل ، فما حجر عليه الأكل وإنما حجر عليه القرب منها الذي كان أطلقه في حيث شئتما ، فما أكلا منها حتى قربا ، فتناولا منها ، فأخذا بالقرب ، لا بالأكل ، فالتّكليف مقسم بين : أمر ونهي ، وهما محمولان على الوجوب حتى تخرجهما عن مقام الوجوب قرينة حال – وإن كان مذهبنا فيهما التوقيف – فتعين امتثال الأمر والنهي فإن قلت : كيف اقتحم النّهي على المعصية ؟ قلنا : لظهور هذه الحكمة ، وهي الخلافة في الأرض وتمييز القبضتين ، لذلك لم يكن النجم ، وكان الشجر ، لوجود الخلاف الذي ظهر ، فالشجر من التشاجر والخلاف.

من كتاب إيجاز البيان في الترجمة عن القرآن:
ومنزلا ، وعطف زوجك على أنت ، وإنما تعريف الجنة بالألف واللام فيمكن أن يريد جميع الجنات ، ويمكن أن يكون جنة معينة ، وعلى أي وجه كانت فهو يتبوأ منها حيث يشاء ، أي يسكن منها حيث شاء ، ﴿وَكُلا مِنْها رَغَداً حَيْثُ شِئْتُما﴾، وحيث شئتما معمول لاسكن، يقول : اسكن أنت وزوجك الجنّة حيث شئتما منها ، وكلا رغدا أي اتسعا في عيشكما ، لأن الرغد هو الاتساع في العيش.
وهذا أوجه من أن يكون العامل في الظرف ﴿كُلا﴾ ومنها قد يكون متعلقا بكلا ، وقد يكون بقوله اسكن ، وأمّا في الأعراف فقد بيّن هنالك أن قوله فكلا هو العامل في قوله: ﴿مِنْ حَيْثُ شِئْتُما﴾ والجمع بين الآيتين إن كانت القصة واحدة ، أن المعنى اسكن من الجنة حيث شئت ، وكلا من حيث شئتما من ثمرها ، وهو معنى قوله في الزّمر ﴿نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشاءُ﴾، فرفع التحجير ، ثم قال: ﴿وَلا تَقْرَبا هذِهِ الشَّجَرَةَ﴾ عيّنتها الإشارة ، والأظهر تعيين واحدة من الجنس ، ودون هذا تعيين الجنس ، وما ذكر اللّه تعالى أية شجرة هي ، ولا صحّ عن النبي صلّى اللّه عليه وسلم ، ومثل هذا لا يدرك بالاجتهاد ، لكني أشير إلى اللفظ بهذا الاسم ، وذلك أن الشجرة مشتقة من التشاجر ، لتداخل أغصانها بعضها على بعض ، كالمتشاجرين يدخل كلام بعضهم في كلام بعضهم بالمخالفة والمنازعة ، وربما أنه ما في الجنة شجرة على هذه الصفة إلا هذه ، وسائر شجر الجنة لا تدخل أغصانها بعضها على بعض ، ولذلك ما ذكر اللّه تعالى في القرآن إلا ثمرات الجنة ، فإنه جعلها منزل موافقة ، فقد يكون أغصانها تخرج على الاعتدال والاستقامة ، وذكر ذلك في النّار فقال: ﴿إِنَّها شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ﴾، وقال: ﴿وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ﴾ فإنّ جهنّم دار نزاع وتشاجر ، قال –تعالى–: ﴿إِنَّ ذلِكَ لَحَقٌّ تَخاصُمُ أَهْلِ النَّارِ﴾، فوصفهم بالمخاصمة وهي المشاجرة ، ومنها (قالت أولاهم
ص 118

سورة البقرة (2) : آية 36
﴿فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطانُ عَنْها فَأَخْرَجَهُما مِمَّا كانا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتاعٌ إِلى حِينٍ﴾ (36(

أضيف الزّلل إلى الشّيطان ، وقد علم أنه ليس له على ذلك سلطان ، لأن اللّه جعله في الشاهد صفة نقص ، ودليل خسران ، تنزه الجناب العالي أن يضاف إليه ، أو إلى من شهد له بالكمال كالأنبياء صلوات اللّه عليهم . شرك اللّه بين إبليس وآدم وحواء من ضمير واحد ، وهو كان أشد العقوبة على آدم ، فقيل لهم: ﴿اهْبِطُوا﴾ بضمير الجماعة، فكانت العقوبة في حق آدم في جمعه مع إبليس من الضمير ، حيث خاطبهم الحق بالهبوط ، بالكلام الذي يليق بجلاله ، ولكن لا بدّ أن يكون في الكلام الصّفة التي يقتضيها لفظ الضمير ، فإنّ صورة اللفظ يطلب المعنى الخاص ، ولم يكن الهبوط عقوبة لآدم وحواء ، وإنما كان عقوبة لإبليس ، فإن آدم أهبط لصدق الوعد ، بأن يجعل في الأرض خليفة ، بعد ما تاب عليه واجتباه ، وتلقي الكلمات من ربّه تصديقًا لما قاله –تعالى– للملائكة: ﴿إِنِّي جاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾، وأهبطت حواء للنّسل، وأهبط إبليس للإغواء، ليحور عليه جميع ما يغوي به بني آدم.

من كتاب إيجاز البيان في الترجمة عن القرآن:

لأخراهم) (وقالت أخراهم لأولاهم) (وقال الذين استضعفوا للذين استكبروا) (وقال الذين استكبروا للذين استضعفوا) ولم يقل شيء من هذا في أهل الجنة ، فكأنه سبحانه أشار لهما بالشجرة النهي عن مخالفته فيما نهاهما عنه وموافقته ، تنبيها لهما على ذلك ، وأخبرهما أنهما إن خالفا أمره سبحانه كانا من الظالمين ، فقال« فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ »لأنفسهما حيث عرضا بأنفسهما للعقوبة ، وهذا يدلك على أن لنفسك عليك حقا ، وكذا قالا(رَبَّنا ظَلَمْنا أَنْفُسَنا)وكان غرضنا أن نجمع في هذه السورة ذكر قصص آدم كلها في سائر السور ، وهكذا كل قصة تكرر ، ثم أني رأيت من الأدب أن اللّه فرّقها في السور لحكمة علمها ، فينبغي لنا أن نذكر الترجمة عنها في المواضع التي ذكرها الحق من سور القرآن ، حتى لا أحدث شيئا ، والاتباع أولى بأهل السعادة من الابتداع ، فنقول قال تعالى (37)« فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطانُ عَنْها »الآية ، لما كان متعلق النهي القرب لا الأكل ، لذلك عدل إبليس إلى الأكل ، ولم يقل لهما اقربا منها ، فيتذكران نهي اللّه عن القرب ، وعلم أنهما لا يقطعان منها ثمرة حتى يقربا ، وهذا من علمه بمواقع

ص 119

وصية – قال اللّه تعالى لإبراهيم الخليل –عليه السّلام– ،

]معصية الحبيب على الحبيب شديدة[

يا إبراهيم ما هذا الوجل الشديد الذي أراه منك ؟ فقال له إبراهيم : يا رب كيف لا أوجل ولا أكون على على وجل ، وآدم أبي كان محله من القرب منك ، خلقته بيديك ، ونفخت فيه من روحك ، وأمرت الملائكة بالسجود له ، فبمعصية واحدة أخرجته من جوارك ، فأوحى إليه : يا إبراهيم أما علمت أن معصية الحبيب على الحبيب شديدة ؟

من كتاب إيجاز البيان في الترجمة عن القرآن:

الشرور ، وكانت الشجرة المنهي قربها كان ذلك سببا لوسوسة إبليس ، فضمير« عَنْها »يعود على الشجرة ، أي عنها صدرت الوسوسة من إبليس لعنه اللّه ، كما سيأتي (أن حب الخير) لسليمان عن ذكر ربه ، أي صدر ذلك الحب من سليمان عن ذكر ربه ، ولذلك مسح بسوقها وأعناقها فرحا بها ، وسيأتي ذلك في سورة ص ، فقوله تعالى« فَأَزَلَّهُمَا »أي ذهب بهما ، وأزالهما انتزعهما ، والمعنى متقارب« فَأَخْرَجَهُما »يعني حواء وآدم« مِمَّا كانا فِيهِ »من النعيم والكرامة لسعادتهما وشقاوته« وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ »الضمير يعود على آدم وحواء وإبليس ، وجمع بينهم في ضمير واحد لاشتراكهم في المخالفة ، فإن إبليس خالف الأمر ، وآدم وحواء خالفا النهي ، وقد انحصر التكليف الذي يوجب الوعد والوعيد فعله أو تركه بينهما ، واشتركوا في الهبوط ، غير أن آدم هبط إلى الأرض للخلافة كما تقدم لا عقوبة ، فإن المؤاخذة وقعت بظهور السوآت لهما ، وهبطت حواء لأنها محل الولادة للتناسل ، وأهبط إبليس عقوبة ، لأنه لا يعود إليها وأن مصيره إلى دار الشقاء ، وإن اشتركوا في الهبوط ولكن المقاصد مختلفة ، وقوله(جَمِيعاً)تأكيد ، لم يتأخر بعضهم عن بعض ، ولم نستوف تمام القصة هنا لأن اللّه تعالى ما استوفاها هنا ، ويقع الاستيفاء لها بالوقوف على تكرار ذكرها في كل سورة إن شاء اللّه تعالى ، وقوله: ﴿بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾، أي يعدو بعضكم على بعض ، فيعدو الشيطان على بني آدم بتزيين مخالفة أوامر اللّه ونواهيه ، ويعدو بنو آدم على الشيطان بأن يردوا وسوسته في نحره وكلامه في وجهه

ويمتثلون أمر اللّه (ويجتنبون) نواهيه ، فيغيظه ذلك ، فهذه عداوة بني آدم لإبليس ، وأما الذين يسمعون منه فهم أولياؤه وأحباؤه ورفقاؤه في النار ، فالمؤمنون كلهم أعداؤه ، وما عدا المؤمنين كلهم أولياؤه ، فالمخالفات الصادرة من المؤمنين غير مؤثرة في إيمانهم ، لأنهم ليسوا على يقين من مؤاخذة اللّه بها ، فإن اللّه قال: ﴿لا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً﴾.

ولو دخل المؤمن النار في الآخرة فكما يمرض في الدنيا ويتألم حسا ومعنى ، ومقره ومآله السعادة الأبدية في النعيم الدائم ، وليس مقصود إبليس هذه المخالفات الواقعة من المؤمنين ، وإنما مقصوده الإشراك باللّه ، وكل ما يؤديهم

ص120

سورة البقرة (2) : آية 37

﴿فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِماتٍ فَتابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ (37(

وهذه الكلمات هي قوله« رَبَّنا ظَلَمْنا أَنْفُسَنا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنا وَتَرْحَمْنا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخاسِرِينَ »« فَتابَ عَلَيْهِ »بكله وذريته فيه فأسعد اللّه الكل ، فله النّعيم في أي دار كان منهم ما كان، بعد عقوبة وآلام ، تقوم بهم دنيا وآخرة ﴿إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ إذا اتفق أن يؤاخذ التائب فما يأخذه إلّا الحكيم لا غير من الأسماء ، فإذا لم يؤاخذ فإنّما يكون الحكم فيه للرّحيم ، فإن اللّه تواب رحيم بطائفة وتواب حكيم بطائفة، فوصف الحق نفسه بأنّه التوّاب الرّحيم ، أي الذي يرجع على عباده في كل مخالفة بالرحمة له ، فيرزقه الندم عليها ، فيتوب العبد بتوبة اللّه عليه لقوله: ﴿ثُمَّ تابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا﴾.

إشارة –تاب الحقّ على آدم بتلقيه الكلمات العليّة ، لأنّه تلقّاها من حضرة الرّبوبيّة ، حضرة الإصلاح.

من كتاب إيجاز البيان في التّرجمة عن القرآن:

إلى الخلود معه في الشقاء في دار البوار ، فأهل النار الذين هم أهلها هم أولياء الشيطان ، ولهذا سماهم اللّه شياطين الإنس والجن ، وقال(مِنْ شَرِّ الْوَسْواسِ الْخَنَّاسِ الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ)وقوله تعالى« وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ »يقول إقامة وقرار« وَمَتاعٌ »يقول:

استمتاع ، وهو كل ما يستمتع به من أكل وشرب ولباس ونعيم ﴿إِلى حِينٍ﴾ يقول : إلى حلول آجالكم ، يقول : مدّة أعماركم ، فإنّ القبر أوّل منزل من منازل الآخرة ، ثمّ قال (38) ﴿فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِماتٍ﴾ الآية ، قرئ برفع آدم ونصب كلمات وبالعكس ، أي من تلقاك فقد تلقيته ، فإن الملاقاة فعل فاعلين ، والأولى بمنصب آدم أن تكون الكلمات تستقبله لوجهين ، الوجه الواحد التعريف بعناية اللّه به حيث أعطاه ما أداه استعماله إلى إعادة السعادة إليه ، والوجه الثاني التعليم ، لأنه ليس له أن يدعوه بنية التقريب والقربة إلّا بوحي منزل عليه ، فإذا رفعت آدم فمن حيث أنه استقبل الكلمات حين استقبلته من عند اللّه ، ويحتمل عدم ذكر واسطة الملك أنه سبحانه أوحى اللّه بها منه إليه بلا واسطة ، تشريفا له وتعريفا بالحال ، أن الوصلة بيني وبينك ما انقطعت بمخالفتك نهيي ، والأظهر في ماهية الكلمات أنها المذكورة في سورة الأعراف ﴿رَبَّنا ظَلَمْنا أَنْفُسَنا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنا وَتَرْحَمْنا ، لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخاسِرِينَ﴾.

فلمّا قال آدم الكلمات التي تلقاها من ربه أخبره تعالى أنه تاب عليه« فَتابَ عَلَيْهِ »أي رجع عليه بالسعادة بأن مآله بعد موته إلى الجنة في جوار الرحمن ﴿إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ الرجّاع بالرّحمة على عباده ، وهو الذي يكثر منه الرجوع في

سورة البقرة (2) : آية 38

﴿قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْها جَمِيعاً فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدىً فَمَنْ تَبِعَ هُدايَ فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ (38(

قال تعالى : ﴿اهْبِطُوا﴾ فجمع ولم يثن ولا أفرد ، فأهبط آدم وحواء وإبليس ، فنزل آدم من الجنة إلى أصله الذي خلق منه ، فإنه مخلوق من التراب ، فأهبطه اللّه للخلافة ، لقوله

–تعالى–: ﴿إِنِّي جاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ فما أهبط عقوبة لما وقع منه ، وإنما جاء الهبوط عقيب ما وقع منه ، لأنه لما كانت نشأة الإنسان ظهرت في الجنان أولا اتفق هبوطها إلى الأرض من أجل الخلافة لا عقوبة المعصية ، فإنّ العقوبة حصلت بظهور السوآت ، والاجتباء والتوبة قد حصلا بتلقي الكلمات الإلهية ، فلم يبق النزول إلّا للخلافة ، فكان هبوط تشريف وتكريم ، ليرجع إلى الآخرة بالجم الغفير من أولاده السّعداء ، من الرسل والأنبياء ، والأولياء والمؤمنين ، فكان هبوط آدم هبوط ولاية واستخلاف ، لا هبوط طرد ، فهو هبوط مكان ، لا هبوط رتبة ، وأهبط الحق تعالى حواء للتناسل ، وأهبط إبليس عقوبة لا رجوعا إلى أصله ، فإنها ليست داره ولا خلق منها ، فسأل اللّه الإغواء أن يدوم له في ذرية آدم ، لمّا عاقبه اللّه بما يكرهه من إنزاله إلى الأرض ، وكان سبب ذلك في الأصل وجود آدم ، لأنه بوجوده وقع الأمر بالسجود ، وظهر ما ظهر من إبليس ، وكان من الأمر ما كان . ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدىً فَمَنْ تَبِعَ هُدايَ فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ من قامت قيامته في حياته الدّنيا، واستعجل حسابه ، يأتي يوم القيامة آمنا لا خوف عليه ولا يحزن ، لا في الحال

من كتاب إيجاز البيان في الترجمة عن القرآن:

مقابلة كل مخالفة تقع من العبد ، لأنّ كلّ مخالفة خروج ، فإذا عاد بالاستغفار وطلب الرّحمة من اللّه عند كلّ ذنب ، عاد الحق إليه بالرّحمة والمغفرة ، فلذلك جاء ببنية المبالغة في التوّاب ، (39) قوله: ﴿قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْها جَمِيعاً فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدىً﴾ الآية ، كرّر ذكر الهبوط ، لأنّه فصل بين الهبوط المذكور أولا وبين ما أهبط له من إتيان الهدى بالكلام الذي قد تقدم من العداوة والاستقرار والتّمتّع ، فطالت القصّة وبعد الذي أهبط له منه ، فكرر الهبوط ، وليدلّ أيضًا على الفصاحة والإعجاز حيث زاد الكلام تكراره جمالًا وبلاغًا ، تعرف ذلك فصحاء الأعراب لا نحن ، فقال –تعالى–: ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدىً﴾.

هذا شرط ، وجوابه الشّرط الثّاني وجوابه وهو قوله

ص 122

ولا في المستقبل.
ولهذا أتى –سبحانه– بفعل الحال في قوله: ﴿وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ فإنّ هذا الفعل يرفع الحزن في الحال والاستقبال ، بخلاف الفعل الماضي والمخلص للاستقبال بالسّين أو سوف

سورة البقرة (2) : الآيات 39 إلى 40
﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآياتِنا أُولئِكَ أَصْحابُ النَّارِ هُمْ فِيها خالِدُونَ (39) يا بَنِي إِسْرائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ﴾ (40(

»فَمَنْ تَبِعَ هُدايَ »فالفاء جواب الشرط الأول ، وقوله« فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ »فالفاء جواب الشرط الثاني الذي هو من ، فمعنى الكلام اهبطوا فإن جاءكم مني هدى واتبعتموه فلا خوف عليكم ، والفاء في إما جواب الأمر ، وجاء بلفظة الشكّ مع تحقق إتيان الهدى عند اللّه ، لكن في نفس الأمر هو من الممكنات ، فيستوي بالنّظر إليه الطرفان ، وجود الإتيان وعدمه ، وتارة يرد الخطاب بما هو الكائن في علم اللّه ، وتارة يرد الخطاب بما هو الأمر عليه في نفسه ، فيؤذن بأن ذلك الإتيان ليس بواجب على اللّه ، إذ لا يجب عليه شيء ، كما يقوله مخالفو أهل الحقّ ، مع أنّا لا ننكر أن يوجب على نفسه ، فمن جملة الهدى الذي جاء من عند اللّه تلقي الكلمات ، ولذلك الهبوط الثاني هو الهبوط الأول عينه ، ثم قال: ﴿فَمَنْ تَبِعَ هُدايَ﴾، أي من اتبع ما شرعت له على حدّ ما شرعت له ، ارتفع عنه خوف العذاب ولم يحزن ﴿وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ ولم يذكر الجنة ولا الخلود كما ذكر فيمن كفر وكذب بآياته ، لأنّ أهل السعادة على قسمين ، قسم يعملون لما يقتضيه حق الربوبية وهم الأعلون ، وقسم يعملون لأجل الجنة وهم دونهم ، ولهؤلاء خوف الحجاب ، ولهؤلاء خوف فقد النعيم وحزنه فذكر ارتفاع الخوف والحزن لكونه يعم الطائفتين ولم يذكر الجنة ، لئلا ييأس الأعلون من الطائفتين ، فتهمم الحقق بهم إذ كانوا الطبقة العليا ، والهدى هنا ما بينه لهم في التعريف المنزل المشروع لهم ، ثم قال (40) ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا﴾، أي ستروا ، على ما تقدم في أول السورة في قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾، وقوله: ﴿وَكَذَّبُوا﴾ يريد: المعاندين وغير المعاندين، ﴿بِآياتِنا﴾، أي بالعلامات التي جعلناها ونصبناها أدلة على القربة إلينا ومعرفتنا (وفي كل شيء له آية : تدل على أنه واحد) غير أن الآيات على قسمين : معتادة وغير معتادة ، فأرباب الفكر والمستبصرون

ص 123

﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِي﴾ أوفوا بما عاهدتكم عليه في الدنيا في موطن التكليف ﴿أُوفِ بِعَهْدِكُمْ﴾ في الدّارين معًا ، دنيا وآخرة وأدخلكم الجنة ، وهو حق عرضي لا ذاتي ، لأنه حق على اللّه أوجبه على نفسه لمن وفي بعهده ، ومن لم يف فليس له عند اللّه عهد ، إن شاء عذبه وإن شاء أدخله الجنّة ، وأدخلنا تحت العهد إعلاما بأنّا جحدنا عبوديتنا له ، إذ لو كنا عبيدا

من كتاب إيجاز البيان في التّرجمة عن القرآن:

الموفقون هي عندهم سواء ، يتخذونها أدلة ، وما عدا هؤلاء فلا ينظرون إلا في الآيات غير المعتادة ، فيحصل لهم استشعار الخوف ، فيردهم ذلك القدر إلى اللّه ، قال تعالى(وَكَأَيِّنْ مِنْ آيَةٍ فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْها وَهُمْ عَنْها مُعْرِضُونَ)ثم إن الذين يتخذون غير المعتادة آية ، منهم من يخلصها دليلا على اللّه ، ومنهم من يشرك(وَما يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ)لمعرفتهم بالأسباب المولدة لتلك الآيات ، كالزلازل والكسوفات وما يحدث من الآثار العلوية ، واللّه ينور أبصارنا ويرزقنا التوفيق ، قال تعالى« أُولئِكَ أَصْحابُ النَّارِ هُمْ فِيها خالِدُونَ »باقون ، وقوله« أَصْحابُ النَّارِ »أي أهلها ، كما ورد في الصحيح (أما أهل النار الذين هم أهلها ، فإنهم لا يموتون فيها ولا يحيون) وقال في الذين يخرجون منها (ولكن ناس أصابتهم النار بذنوبهم ، أو قال بخطاياهم ، فأماتهم اللّه فيها إماتة) ثم ذكر خروجهم من النار – الحديث بكماله – فعمّ سبحانه بقوله« الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا »جميع الأشقياء ، وأما قوله« اهْبِطُوا »فحظي إبليس من هذا الهبوط لما تكبر وعلا عند نفسه ، لأن أصله من لهب النار ، ولهب النار يطلب العلو ، فلهذا تكبر ، ولما كان لهبا كان إذا جاءه الهواء من أعلاه عكس رأس اللهب إلى أسفل قسرا وقهرا ، كذلك إبليس لما جاءه هواه من تكبره على آدم لنشأته ، عكسه إلى الأرض ، فأهبط ، ولم يقف الأمر هنا ، بل أهبط إلى أسفل سافلين في دار الخزي والهوان ، فهواه أهبطه ، ولما كانت

الملائكة نورا عمت جميع الجهات فلا أثر للهواء في النور ، ألا ترى النور الذي في الشمس والسراج وفي كل جسم مستنير نسبته إلى العلو والسفل والجنبات نسبة واحدة ، والملائكة مخلوقون من النور ، فلا أثر للهوى فيهم ، فلا يعصون اللّه ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون ، ولما غلب على آدم في نشأته التراب وله السكون ، بخلاف لهب النار ، ثبت على عبوديته وتواضعه ، فسعد ، وكان هبوطه رجوعا إلى أصله ، وسيأتي الكلام على نشأته في موضعها إن شاء اللّه ، وكونه من حمأ مسنون ، ولهذا يتغير كل ما يحل فيه من الأطعمة والأشربة ويستحيل إلى الروائح القبيحة ، ويندرج في هذا الكلام النشأة الأخراوية ، واستحالة ما يحل فيها من الطعام والشراب إلى الروائح الطيبة ، وتحقيق ذلك في موضعه إن شاء اللّه ، قوله (41)« يا بَنِي إِسْرائِيلَ »الآية ، أضافهم إلى يعقوب ، فهو إسرائيل ، أي صفوة اللّه« اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ »وقد ذكر اللّه ما أنعم اللّه به على بني إسرائيل ، من

لم يكتب علينا عهده ، فإنا بحكم السيد ، فلما أبقنا بخروجنا عن حقيقتنا وادعينا الملك والتصرف ، والأخذ والعطاء ، كتب بيننا وبينه عقودا ، وأخذ علينا العهد والميثاق ، وأدخل نفسه معنا في ذلك ، والعبد لا يكتب عليه شيء ولا يجب له حق ، فإنه ما يتصرف إلا عن إذن سيده ، فإذا وفي العبد حقيقة عبوديته ، لم يؤخذ عليه عهد ولا ميثاق ، فمن أصعب آية تمر على العارفين كل آية فيها« أَوْفُوا بِالْعُقُودِ »أو العهود فإنها آيات أخرجت العبيد من عبوديتهم للّه . فإن قلت : كيف كلف الحق نفسه وقيدها ، مع أنه مطلق ، والمطلق ، لا يقبل التقييد بوجه من الوجوه ؟ قلنا : إن للمطلق أن يقيد نفسه إن شاء ، وأن لا يقيدها إن شاء ، فإن ذلك من صفة كونه مطلقا إطلاق مشيئة ، ومن هنا أوجب الحق على نفسه ، ودخل تحت العهد لعبده فقال في الوجوب :« كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ »أي أوجب فهو الموجب على نفسه ، ما أوجب غيره عليه ذلك فيكون مقيدا بغيره ، فقيد نفسه لعبيده رحمة بهم ولطفا خفيا ، وقال في العهد :« أَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ »فكلفهم ، وكلف نفسه ، لما قام الدليل عندهم بصدقه في قيله ، ذكر لهم ذلك تأنيسا لهم سبحانه وتعالى ، ولكن هذا كله أعني دخوله في التقييد لعباده من كونه إلها ، لا من كونه ذاتا ، فإن الذات غنية عن العالمين ، والملك ما هو غني عن الملك ، إذ لولا الملك ما صح اسم الملك ،

فالمرتبة أعطت التقييد ، لا ذات الحق جل وتعالى – تنبيه – احذر أن تفي ليفي إليك ، أوف أنت بعهدك واتركه يفعل ما يريد ، فإنه من وفي بعهده ليفي له الحق بعهده ، لم يزده على ميزانه شيئا ، حيث ورد في الحديث « كان له عند اللّه عهدا أن يدخله الجنة » لم يقل غير ذلك ، وقد قال تعالى :« وَمَنْ أَوْفى بِما عاهَدَ عَلَيْهُ اللَّهَ »ولم يطلب الموازنة ولا ذكرها هنا أنه ليفي له بعهده ، وإنما قال :« فَسَيُؤْتِيهِ أَجْراً عَظِيماً »وما عظمه الحق فلا أعظم منه ، فاعمل

من كتاب إيجاز البيان في الترجمة عن القرآن:
المنّ والسلوى وتفجير الماء من الحجر ومشيهم على البحر وإنجائهم من عدوهم وتظليل الغمام وغير ذلك ، فإن اللّه يمن على عباده بما يمتن عليهم من المنن الجسام ، ولذا سميت مننا ، وليس للعباد أن يمتنوا ، لأن النعم ليست إلا لمن خلقها ، فلهذا كان المن من اللّه محمودا ، لأنه ينبه عباده بما أنعم عليهم ليرجعوا إليه ، وكان مذموما من العباد لأنه كذب محض ، قال تعالى(يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا ، قُلْ لا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلامَكُمْ ، بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَداكُمْ لِلْإِيمانِ)ثم قال تعالى لهم« وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ »أي أوفوا بما أخذت عليكم من الميثاق ، فأخبرنا بذلك لنسمع
ص 128

على وفائك بعهدك من غير مزيد ، فإن من طلب من الحق الوفاء ، فقد ناط به الجفا ، وليس برب جاف بلا خلاف

إشارة]–الرب رب ، والعبد عبد[

الرب رب ، والعبد عبد ، وإن اشتركا في العهد.
فلا تنظر لما عندي * فإن الأمر من عندك
ولا تطلب وفى عهدي * إذا ما خنت في عهدك
فوعدي صادق مني * إذا صدقت في وعدك

وما أتيت إلا من * فساد كان في عقدك

سورة البقرة (2) : الآيات 41 إلى 42
﴿وَآمِنُوا بِما أَنْزَلْتُ مُصَدِّقاً لِما مَعَكُمْ وَلا تَكُونُوا أَوَّلَ كافِرٍ بِهِ وَلا تَشْتَرُوا بِآياتِي ثَمَناً قَلِيلاً وَإِيَّايَ فَاتَّقُونِ (41) وَلا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْباطِلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ (42)

العلم حاكم ، فإن لم يعمل العامل بعلمه فليس بعالم ، العلم لا يمهل ولا يهمل ، العلم أوجب الحكم ، لما علم الخضر حكم ، ولما لم يعلم صاحبه اعترض عليه ونسي ما كان قد

من كتاب إيجاز البيان في الترجمة عن القرآن:

حتّى نفي بما عاهدنا عليه اللّه ، وهذا من لطفه سبحانه بنا في الخطاب ، فهو مثل القائل (إياك أعني فاسمعي يا جاره) فهذا تكليف بتعريف ، وقوله« أُوفِ بِعَهْدِكُمْ »جزاء بطريق المناسبة ، وفاء بوفاء ، فإنه عهد إلينا إذا آمنا به ووقفنا عند حدوده ، أن يدخلنا دار كرامته في جواره وينجينا من عذابه ، قال عليه السلام (فمن جاء بهن – يعني الصلوات – لم يضع من حقهن شيئا ، كان له عند اللّه عهد أن يدخله الجنة ، ومن لم يأت بهن استخفافا بحقهن ، فليس له عند اللّه عهد ، إن شاء عذبه وإن شاء أدخله الجنة) فجعل لعبده عهدا عنده سبحانه ، وقوله« وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ »من الرهب والرهبانية ، وإن كانتا ترجعان إلى معنى واحد ، وإياي فخافوني وفاعبدوني ، ولهذا رفع عنهم الخوف في قوله (لا خوف عليهم) وهو خصوص وصف في العبودية ، ثم قال (42)« وَآمِنُوا بِما أَنْزَلْتُ »الآية ، الضمير في آمنوا ، يحتمل أن يعود علينا وعلى غيرنا من أهل الكتاب وغيرهم ، لأنه قال« وَآمِنُوا بِما أَنْزَلْتُ مُصَدِّقاً لِما مَعَكُمْ »مصدقا حال لأنزلت ، فلنا من هذا الخطاب الإيمان بما أنزل من قبلنا مصدقا لما معنا ، مما أنزل إلينا وهو القرآن ، ولأهل الكتاب من هذا الخطاب ، وآمنوا بما أنزلت على محمد مصدقا لما معكم مما أنزلته عليكم ، ولغير أهل الكتاب ،

ص 126

التزمه فالتزم ، لما علّم آدم الأسماء علم وتبرز في صدر الخلافة وتقدم ، العلم بالأسماء كان العلامة ، على حصول الإمامة :العلم يحكم والأقدار جارية * وكل شيء له حد ومقدارإلا العلوم التي لا حد يحصرها * لكن لها في قلوب الخلق آثارفحدها ما لها في القلب من أثر * وعينها فيه أنجاد وأغوار.

سورة البقرة (2) : آية 43
﴿وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكاةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾ (43(

إقامة الصّلاة – راجع آية رقم 4 – ﴿وَآتُوا الزَّكاةَ﴾، سُميت الزّكاة زكاة لما فيها من

من كتاب إيجاز البيان في الترجمة عن القرآن:

وآمنوا بما أنزلت من كل كتاب ، مصدقا لما معكم من الأدلة والبراهين على وحدانيتي في ألوهيتي ، وما ينبغي لي من صفات الجلال ، فيكون إيمانكم بما أنزلت مضافا لما معكم من العلوم المستفادة من البراهين ، فهو خطاب يعم الجميع ، وهذا من جوامع الكلم ، وقوله« وَلا تَكُونُوا أَوَّلَ كافِرٍ بِهِ »صفة لمحذوف ، يعني كل مخاطب به في كل زمان ، حتى يبقى العموم في الضمير على أصله ، فيكونون أولا في أهل زمانهم في الكفر به ، أي بما أنزل ، قال تعالى(فَلَمَّا جاءَهُمْ ما عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ)وإن كان له وجود قبل مجيئه إليهم ، وقوله« وَلا تَشْتَرُوا بِآياتِي ثَمَناً قَلِيلًا »لما كانوا هم أهل الكتاب حيث أنزله الحق إليهم ، فصار ملكا لهم ، ولما كان الكتاب حاكما عليهم بالانقياد والسمع والطاعة لمن جاء به وهم الرسل ، وفي المخاطبين رؤساء وأكابر وممن يسمع له ويطاع ، وصعب عليهم أن ينقادوا لما أمرهم به في الكتاب المنزل ، فاستبدلوا به رئاسة الدنيا ، فإن البيع والشراء

استبدال ومعاوضة ، فاختاروا برئاسة الدنيا على رئاسة الآخرة التي أعطتهم اتباع هذا الكتاب ، فأقام الآيات مقام ما تدل عليه من رئاسة الآخرة وغيرها لمن عمل بها ، فكانوا كمن اشترى الحصى بالياقوت ، والتراب بالمسك والعنبر ، وجعله ثمنا قليلا لكونه ينقطع بالموت أو بالعزل ، ورئاسة الآخرة باقية دائمة ، ثم قال« وَإِيَّايَ فَاتَّقُونِ »أي اتخذوني وقاية ، وهو قوله(وَاتَّقُوا اللَّهَ) *قال صلّى اللّه عليه وسلم (أعوذ برضاك من سخطك) فجعل الرضاء وقاية من السخط ، وقال (وبمعافاتك من عقوبتك) فجعل المعافاة وقاية تحول بينه وبين العقوبة ، ولما عزت أسماء الحق تعالى أن تنخرط مع الآثار في سلك واحد قال (وبك منك) وإنما أحدث لنا استعاذة أخرى ، فقال عليه السلام (وأعوذ بك) فجعله وقاية ، وليس له سبحانه ما يقابله ، والاستعاذة تستدعي

ص 127

الربو والزّيادة ، ولذلك تعطي قليلا وتجدها كثيرا ، والزّكاة طهارة للأموال من حيث إضافة المال إلى العبيد ، وطهارة لأربابها من صفة البخل.

سورة البقرة (2) : آية 44

﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتابَ أَ فَلا تَعْقِلُونَ﴾ (44(

العقل قيد وما خاطب تعالى إلّا العقلاء ، وهم الذين تقيدوا بصفاتهم وميزوها عن صفات خالقهم ، ولهذا أدلة العقول تميز بين الحق والعبد ، والخالق والمخلوق ، فقال تعالى :« أَ تَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ »البر هو الإحسان والخير« وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ »ولا يتمكن لعبد التزم

من كتاب إيجاز البيان في الترجمة عن القرآن:

مستعاذا منه ، فقال (منك) فجعله سبحانه في مقابلة نفسه إذ لا مثل له ، وهو قوله تعالى(كَذلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلى كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ)فهو المتكبر سبحانه الجبار ، والعبد

إذا اتصف بما تناقض حقيقته من أوصاف العظمة والكبرياء التي تستحقها الربوبية [يقع في سخط اللّه] « * » فلهذا قال (منك) أي أن أكون متكبرا جبارا ، فهو يستعيذ من كبريائه أن يقوم به بكبريائه سبحانه ، ثم قال تعالى (43)« وَلا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْباطِلِ »الآية ، يقول : لا تخلطوا الحق بالباطل ، وهو قوله سبحانه عنهم(نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ)وهو الحق(وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ)وهو الباطل فخلطوا بينهما« وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ »حال من الضمير وهو الأوجه ، أي لا تلبسوا الحق بالباطل كاتمين للحق ، ويؤيد هذا قوله« وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ »أنه الحق ، قال تعالى(الَّذِينَ آتَيْناهُمُ الْكِتابَ يَعْرِفُونَهُ كَما يَعْرِفُونَ أَبْناءَهُمْ ، وَإِنَّ فَرِيقاً مِنْهُمْ)وهم هؤلاء(لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ)يقول : إن الحق أبلج ، لا لبس فيه لقوة الدلالة عليه ، ولذلك قال(ذلِكَ الْكِتابُ لا رَيْبَ فِيهِ)أي لا شك ولا لبس ، فهم يتخيلون أن الحق يختلط بالباطل وليس كذلك ، ولذلك كثيرا ما يصف سبحانه الآيات أنها بينات ومبينات ، اسم فاعل واسم مفعول ، وهو قوله« وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ »أنه الحق وأنه لا يلتبس ، فهما معلومان لهم ، ثم قال (44)« وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ »الآية ، تقدم الكلام في إقامة الصلاة في أول السورة« وَآتُوا الزَّكاةَ »المفروضة عليكم ، التي يؤدي إعطاؤها إلى نمو أموالكم وزيادتها ، وإلى تطهيركم مما يلزمكم من إمساكها ، وقوله« وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ »أي صلوا في الجماعة ، ففي ذلك الحث على حضور الجماعة في الصلاة ، وإن كان الضمير يعود على أهل الكتاب ، فإن صلاتهم على ما قيل لا ركوع فيها ، فيقال لهم صلوا صلاة المسلمين ، وقد يريد« ارْكَعُوا »أي انقادوا لهذا الدين كانقياد المؤمنين ، إذ الركوع الانقياد والخضوع ، (45)« أَ تَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ »الآية ، خطاب لكل من أمر بالبر ولم يعمل به ، البر الإحسان أجمعه ، وكل من أحسن لمن أمر

[. . .] (*)ساقطة من الأصل.

ص 128

الحياء من اللّه أن يأمر أحدا ببر وينسى نفسه منه ، بل يبتدئ بنفسه ، فقد قال له ربه على لسان رسوله صلّى اللّه عليه وسلم : ابدأ بنفسك ، وشرع له ذلك حتى في الدعاء إذا دعا اللّه لأحد أن يبدأ بنفسه ، فإن جميع الخيرات صدقة على النفوس ، أي خير كان حسا ومعنى ، فينبغي للمؤمن أن يتصرف في ذلك بشرع ربه لا بهواه ، فإنه عبد مأمور تحت أمر سيده ، فإن تعدى شرع ربه في ذلك لم يبق له تصرف إلا هوى نفسه ، فسقط عن تلك الدرجة العلية إلى ما هو دونها عند العامة من المؤمنين ، وأما عند الأكابر العارفين فهو عاص ، فإذا خرج الإنسان بصدقته فأول محتاج يلقاه نفسه ، قبل كل نفس محتاجة ، وهو إنما أخرج الصدقة للمحتاجين ، فإن تعدى أول محتاج فذلك لهواه لا للّه ، فإن اللّه قال : ابدأ بنفسك وهو أول من يلقاه من أهل الحاجة ، وقد شرع له في الإحسان أي يبدأ بالجار الأقرب فالأقرب ، فإن رجح الأبعد في الجيران على الأقرب مع التساوي في الحاجة فقد اتبع هواه ، وما وقف عند حد ربه ، وهذا سار في جميع أفعال البر ، وسبب ذلك الغفلة عن اللّه تعالى ، فأمر العبد بالصفة التي تحضره مع اللّه وهي الصلاة ، فهي مناجاة العبد لربه ، وتشير هذه الآية إلى توبيخ اللّه لمن أمر غيره بإقامة الصلاة ، وإتمام نشأتها ونسي نفسه ، وجعله إياه بمنزلة من لا عقل له . والبر من جملة أحوال الصلاة فإن رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم يقول : أقرت الصلاة بالبر والسكينة« وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتابَ »فإنكم تجدون فيه قوله« كَبُرَ مَقْتاً عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا ما لا تَفْعَلُونَ »وهذه حالة من أمر بالبر غيره ونسي نفسه ، فالغافل القليل الحياء من اللّه يأمر غيره بالطاعات وهو على الفجور ، وينسى نفسه فلا يأمرها بذلك« أَ فَلا تَعْقِلُونَ »يقول:

أما لكم عقول تنظرون بها قبيح ما أنتم عليه ؟ فإذا قلت خيرا ، أو دللت على خير ، فكن أنت أول عامل به ، والمخاطب بذلك الخير ، وانصح نفسك فإنها آكد عليك ، فإن نظر الخلق إلى فعل الشخص أكثر من نظرهم إلى قوله ، والاهتداء بفعله أعظم من الاهتداء بقوله ، فإن اللّه تعالى يقول في نقصان عقل من هذه صفته :« أَ تَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ

من كتاب إيجاز البيان في الترجمة عن القرآن:

بالإحسان إليه فقد أحسن لنفسه ، والأمر بالإحسان من الإحسان ، فقال تعالى منكرا على من يأمر بالإحسان ولا يأتيه« أَ تَأْمُرُونَ النَّاسَ »أي غيركم« بِالْبِرِّ »بالأفعال الحسنة« وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ »أي وتتركون أنفسكم ، يقول : ألا تأمرون أنفسكم بالفعل الحسن« وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتابَ »أي تجدون في الكتاب إذا قرأتموه أنكم مخاطبون بأن تأتوا البر في كل حال ،« أَ فَلا تَعْقِلُونَ«

ص 129

وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتابَ أَ فَلا تَعْقِلُونَ »فإذا تلا الإنسان القرآن ولا يرعوي إلى شيء منه ، فإنه من شرار الناس بشهادة رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم ، فإن الرجل يقرأ القرآن والقرآن يلعنه ، ويلعن نفسه فيه ، يقرأ« أَلا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ »وهو يظلم فيلعن نفسه ، ويقرأ « لعنة اللّه على الكاذبين » وهو يكذب فيلعنه القرآن ، ويلعن نفسه في تلاوته ، ويمر بالآية فيها ذم الصفة وهو موصوف بها فلا ينتهي عنها ، ويمر بالآية فيها حمد الصفة فلا يعمل بها ولا يتصف بها ، فيكون القرآن حجة عليه لا له ، قال صلّى اللّه عليه وسلم في الثابت عنه : « القرآن حجة لك أو عليك ، كل الناس يغدو فبائع نفسه ، فمعتقها أو موبقها. «

سورة البقرة (2) : آية 45
﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلاةِ وَإِنَّها لَكَبِيرَةٌ إِلاَّ عَلَى الْخاشِعِينَ﴾ (45(

فأمر من هذه صفته بأن يستعين بالصبر يعني بالصبر على الصلاة ، فقدّم حبس النفس عليها ، ثم ذكر الصلاة فقال :« وَالصَّلاةِ »فإن المصلي يناجي ربه ، فإذا ما حصل العبد في محل المناجاة مع ربه استلزمه الحياء من اللّه فلا يتمكن له أن يأمر أحدا ببر وينسى نفسه منه ، بل يبتدئ بنفسه . ثم ذكر خشوع الصلاة فقال :« وَإِنَّها لَكَبِيرَةٌ »يعني الصلاة

ثقيلة شاقة« إِلَّا عَلَى الْخاشِعِينَ »وخشوع كل خاشع على قدر علمه بربه ، وقد جعل رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم الخشوع للقلب ولا سيما في الصلاة فقال : لو خشع قلبه لخشعت جوارحه ، والخشوع لا يكون إلا للّه فمن لم يخشع في صلاته فما صلى.

من كتاب إيجاز البيان في الترجمة عن القرآن:
يقول : ليس لكم عقل تفهمون به عن اللّه ما أنزله في كتابه إليكم ، والنسيان الترك عن غفلة ، فكأنه يقول : وتغفلون عن أنفسكم ، وإذا لم يكن عن غفلة فهو التناسي (46)« وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ »الآية ، لما كان من قول العبد فيما شرع له(وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ)بيّن الحق له ما يقع له به المعونة على عدوه إبليس ، فقال لعباده« وَاسْتَعِينُوا »على عدوكم" بِالصَّبْرِ " يقول:
بحبس نفوسكم على طاعتي وامتثال ما أمرتكم به ونهيتكم عنه مطلقا ، فإن ذلك مما يقمع عدوكم« وَالصَّلاةِ »فإنه ما ثم عبادة ذكر فيها أنه فيها مناج ربه غير الصلاة ، فلهذا خصها بالذكر دون جميع الأعمال ، ليثابر العبد عليها ، فيكون ممن قال اللّه(الَّذِينَ هُمْ عَلى صَلاتِهِمْ دائِمُونَ)وفي موضع آخر(عَلى صَلَواتِهِمْ يُحافِظُونَ)فإن الشيطان لا يتمكن له التمكن من قلب العبد في حال مناجاته ، لأن أنوار هيبة الحضرة تحرقه ، ولقد نشاهد هذا فيمن يحادث منا ملكا عظيما ذا جلال وكبرياء ،

ص 130

سورة البقرة (2) : آية 46
﴿الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلاقُوا رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ راجِعُونَ﴾ (46(
فظن خيرا تلقه ، فإن اللّه ما يوجد إلا عند ظن العبد به فليظن به خيرا.

سورة البقرة (2) : الآيات 47 إلى 48

﴿يا بَنِي إِسْرائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعالَمِينَ (47) وَاتَّقُوا يَوْماً لا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئاً وَلا يُقْبَلُ مِنْها شَفاعَةٌ وَلا يُؤْخَذُ مِنْها عَدْلٌ وَلا هُمْ يُنْصَرُونَ﴾ (48(

وهي فروض الأعيان لا تجزى نفس عن نفس شيئا ، فإن الفروض حقوق اللّه ، وحق اللّه أحق بالقضاء.

من كتاب إيجاز البيان في الترجمة عن القرآن:

لا يقدر أحد يقطع عليه كلامه ، ولا يدخل بينه وبين الملك ، لما تقتضيه الحضرة من الهيبة والجلال ، فجناب الحق أولى بهذه الصفة ، ولهذا جاء إبليس لعنه اللّه إلى النبي صلّى اللّه عليه وسلم بقبس من نار فرماه في وجهه وهو في الصلاة ، لما لم يكن له سبيل إلى قلبه لما ذكرناه من حضوره مع الحق ومناجاته ،.
ثم قال« وَإِنَّها لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخاشِعِينَ »يقول : إن المتكبرين يستكبرونها حيث تنزلهم عن كبريائهم ، وأمّا الخاشع فما تطأمن وخضع وذل إلا لتجلي الحق على قلبه في كبريائه وعظمته ، فلا يكبر على الخاشع الوقوف عند أوامر سيده ، ثم وصفهم فقال (47)« الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلاقُوا رَبِّهِمْ »الآية ، العلم القطع على أحد الأمرين ، والشك التردد بين الأمرين من غير ترجيح ، والظن ترجيح أحد الأمرين من غير قطع ، والظن هنا على بابه ، وله وجهان هنا ، الوجه الواحد أن المؤمنين قاطعون بأنهم إلى ربّهم راجعون ، فإنه قال(وَاتَّقُوا يَوْماً تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ) والكافر والمؤمن كلهم يرجعون إلى اللّه ، غير أنه ما كل من يرجع إليه يلقاه ، قال تعالى(كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ)فلذا قيل فيهم« الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلاقُوا رَبِّهِمْ »أي يغلب على ظنهم أن اللّه بكرمه يختم لهم بما هم عليه من أعمال أهل السعادة ، فيكونون ممن يلقى ربه ، والوجه الآخر أنهم يظنون أنهم ملاقوا ربهم من حيث هذا الاسم ، فإن العبد المطيع لسيده يغلب على ظنه أن سيده لا يلقاه بمكروه ، فإن مدلول هذا الاسم خير كله ، فإنه يجوز أن يلقوا يوم القيامة الاسم

المنتقم أو الضار ، فالأدب والمعرفة حكمت عليهم بأن يظنوا« وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ راجِعُونَ »فإن عاد الضمير في « إليه«
ص 131

سورة البقرة (2) : الآيات 49 إلى 52
﴿وَإِذْ نَجَّيْناكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذابِ يُذَبِّحُونَ أَبْناءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِساءَكُمْ وَفِي ذلِكُمْ بَلاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ (49) وَإِذْ فَرَقْنا بِكُمُ الْبَحْرَ فَأَنْجَيْناكُمْ وَأَغْرَقْنا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ (50) وَإِذْ واعَدْنا مُوسى أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظالِمُونَ (51) ثُمَّ عَفَوْنا عَنْكُمْ مِنْ بَعْدِ ذلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ (52(

الشّكر هنا : هو الثناء على اللّه بما يكون منه خاصة ، لصفة هو عليها من حيث ما هو مشكور ، فإن شكر المنعم يجب عقلا وشرعا ، ولا يصح الشكر إلا على النعم.

من كتاب إيجاز البيان في الترجمة عن القرآن:

إِلَيْهِ راجِعُونَ »فتكون واو العطف تشرك في الظن ، وإن كان الضمير يعود عليه من كونه إلها ، فيكون« وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ راجِعُونَ »الواو بمعنى مع ، أي مع علمهم بأنهم إليه راجعون ، وقد تكون الجملة في موضع الحال ، تقدير الكلام : يظنون أنهم ملاقوا ربهم في حال رجوعهم إليه الذي لا بد منه ، ثم قال (48)« يا بَنِي إِسْرائِيلَ اذْكُرُوا »الآية – ذكرهم بهذا النسب نعمته عليهم فيه حيث نسبهم بالبنوة إلى صفوته وهو يعقوب ، وحظنا من التعريف أن نذكر نعمته علينا أيضا ، فلهذا عرفنا فقال« اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ »ولها وجهان ، الأول اذكروا أي تذكروا ولا تغفلوا ولا تنسوا ذلك ، والوجه الآخر اذكروا ، من الذكر ، أن تحدّثوا بما أنعمت عليكم ، قال تعالى(وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ)والنعم التي أنعم بها على بني إسرائيل مذكورة في القرآن ، فلا أحتاج إلى ذكرها ، وقوله« وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعالَمِينَ »فيه إنباه لنا أن نذكر ذلك في قوله(كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ)وأما قوله لبني

إسرائيل أنه فضلهم على العالمين ، أي زادهم أمورا ظهرت عامة ، لم يعط عمومها لسائر الملل ، وإن لخواص هذه الأمة ما أعطى سائر الأمم ، من الكشف وطي الأرض والمشي على الماء وفي الهواء وتظليل الغمام والطير وتسخير الرياح وتفجير المياه ، وقد رأينا كثيرا من هذا على المنقطعين من عباد اللّه في حال سياحاتي وطلبي الاجتماع بهم ، وكان ذلك في بني إسرائيل يظهر للعام والخاص ، فالفضيلة في هذا ، ثم قال (49)« وَاتَّقُوا يَوْماً لا تَجْزِي »الآية ، الخطاب عام لجميع العباد ، فالضمير عام ، وقوله« يَوْماً »يريد يوم القيامة ، وفي الحقيقة الأيام كلها بهذه المثابة ، وأنه ما أراد اللّه إمضاءه في خلقه لا تقتضيه نفس عن نفس شيئا ، وقوله« لا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئاً »هو قوله(إِنَّهُمْ لَنْ يُغْنُوا عَنْكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً)بل كل نفس بما

ص 132

سورة البقرة (2) : الآيات 53 إلى 55

﴿وَإِذْ آتَيْنا مُوسَى الْكِتابَ وَالْفُرْقانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (53) وَإِذْ قالَ مُوسى لِقَوْمِهِ يا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ بِاتِّخاذِكُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُوا إِلى بارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ذلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ عِنْدَ بارِئِكُمْ فَتابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (54) وَإِذْ قُلْتُمْ يا مُوسى لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ﴾ (55(

الصّواعق أهوية محترقة لا شعلة فيها فما تمر بشيء إلا أثرت فيه.

من كتاب إيجاز البيان في الترجمة عن القرآن:

كسبت رهينة ،(وَإِنْ تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلى حِمْلِها لا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كانَ ذا قُرْبى)وقوله(وَما هُمْ بِحامِلِينَ مِنْ خَطاياهُمْ مِنْ شَيْءٍ)فذلك يوم يفر المرء من أخيه وأمه وأبيه وصاحبته وبنيه لكل امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه ، وقوله« وَلا يُقْبَلُ مِنْها شَفاعَةٌ »أي من شفع من أجلها لا تقبل شفاعته فيها ، فإنهم في ذلك اليوم يعرفون – بل عند موتهم – أنهم ليسوا ممن يقبل

كلامهم ، فثبت ما قلناه ، وهو قوله(فَما تَنْفَعُهُمْ شَفاعَةُ الشَّافِعِينَ) ،وقوله« وَلا يُؤْخَذُ مِنْها عَدْلٌ »يقول : فداء ، تعريفا لهم هنا ، وهو قوله(فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِمْ مِلْءُ الْأَرْضِ ذَهَباً وَلَوِ افْتَدى بِهِ)وقوله(فَالْيَوْمَ لا يُؤْخَذُ مِنْكُمْ فِدْيَةٌ وَلا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا) ،وقوله« وَلا هُمْ يُنْصَرُونَ »هو قوله(وَأَنَّ الْكافِرِينَ لا مَوْلى لَهُمْ)أي لا ناصر لهم ، فإن الآخذ هو اللّه ولا مقاوم له سبحانه(إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ)(وَما لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلا نَصِيرٍ) *(50)« وَإِذْ نَجَّيْناكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ »الآية ، ثم رجع إلى ذكر ما أنعم به عليهم ، فقال : واذكروا« إِذْ نَجَّيْناكُمْ »قوله(يا بَنِي إِسْرائِيلَ)وضمير الخطاب ، يحتمل أن يكون من اللّه إخبارا لنا على الحكاية بما خاطبهم به في زمانهم بما أنعم عليهم ، ويمكن أن يكون الضمير يعود على بني إسرائيل الحاضرين في زمان النبي عليه السلام ، يعدد عليهم ما أنعم به على أسلافهم ومن مضى من آبائهم في زمان موسى عليه السلام ، وقد يكون للحاضرين هذا الخطاب حيث أنعم عليهم إذ لم يوجدهم في زمان من أولى أسلافهم سوء العذاب ، وقد يكون ذلك كله مرادا للّه تعالى في الخطاب ، واللّه أعلم ، وقوله تعالى« مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ »ولم يقل من فرعون ، لأن آله كانوا المباشرين لعذابهم ، ولم يكن لفرعون إلا الأمر بذلك ، وكذا جرت العادة في الرؤساء والملوك ولهذا جوزوا ، فقال تعالى(أَدْخِلُوا آلَ

ص 133

سورة البقرة (2) : الآيات 56 إلى 57

﴿ثُمَّ بَعَثْناكُمْ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (56) وَظَلَّلْنا عَلَيْكُمُ الْغَمامَ وَأَنْزَلْنا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوى كُلُوا مِنْ طَيِّباتِ ما رَزَقْناكُمْ وَما ظَلَمُونا وَلكِنْ كانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ (57)

يعني يظلمون أنفسهم بما كانوا عليه في سابق العلم.

من كتاب إيجاز البيان في الترجمة عن القرآن:

فرعون) الذين تولوا عذابهم(أَشَدِّ الْعَذابِ) *في مقابلة سوء ، وقرئ بكسر الخاء ، فقد يمكن أن يقال لبني إسرائيل يوم القيامة ذلك ليولوهم أشد العذاب بأنفسهم ، كما فعلوا هم بهم في الدنيا حين ساموهم سوء العذاب ، وآل الرجل أهله وخوله وأنصاره وأتباعه ، سمعت شيخنا الإمام أوحد زمانه في معرفة كلام العرب ، أبا ذر مصعب بن محمد بن مسعود الخطيب يقول : الآل لا يضاف إلا للأكابر الزعماء ، وأما من دونهم فيقال أهل فلان ، وقوله« يَسُومُونَكُمْ سُوءَ »يقول يولونكم ما يسوؤكم من« الْعَذابِ »فمن ذلكم قتل أولادهم ذبحا ، وجعل إبقاء النساء عذابا لهم ، مع أن إبقاءهم ينبغي أن يكون من فرعون نعمة عليهم ، وذلك أن الرجل في الغالب يسرع إليه ذهاب الحزن منه بخلاف النساء ، فأبقى النساء حتى يتجدد على الآباء العذاب بما يجدونه من الحزن لحزن نسائهم وبكائهم على أولادهم دائما ، وشغلهم بذلك عن مصالح أزواجهم ، فيتجدد العذاب عليهم ، هذا يسوغ في إبقاء الأمهات ، وأما إبقاء الإناث فيزيد بذلك من قتل ولده حسرة إلى حسرته ، وحزنا إلى حزنه ، قال تعالى« يُذَبِّحُونَ أَبْناءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِساءَكُمْ »قال تعالى« وَفِي ذلِكُمْ »خطاب لنا« بَلاءٌ »أي ابتلاء« مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ » ،نشكر أو نكفر ، كما قال سليمان عليه السلام(لِيَبْلُوَنِي أَ أَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ)فكل عذاب في الدنيا يكون بلاء إذ كانت دار اختبار(إِنَّ هذا لَهُوَ الْبَلاءُ الْمُبِينُ)وأما في الدار الآخرة فلا يقال له بلاء وإنما هو عذاب خالص . ولهذا ما أظن واللّه أعلم أن اللّه ذكر عذاب الآخرة بلفظ البلاء ، على أني ما بحثت على ذلك ، لما لم تكن دار تكليف ، وكان سبب قتل الأبناء أنه رأى ورئي له أن مولودا من بني إسرائيل يولد في دولته يكون هلاكه وهلاك أتباعه على يديه ، ثم من نعمة اللّه على بني إسرائيل قوله (51)« وَإِذْ فَرَقْنا بِكُمُ الْبَحْرَ »الآية ، وهذا يؤيد ما ذكرناه أنه سبحانه يحكي ما خاطبهم به في زمانهم من تقرير النعم عليهم ، فمن ذلك« وَإِذْ فَرَقْنا بِكُمُ »أي بسببكم« الْبَحْرَ »لتنجوا من عدوكم ، فزال البحر بعضه عن بعض وافترق ، فظهرت الأرض وسكن البحر عن جريته« فَأَنْجَيْناكُمْ »بما أهلكنا به

ص 134

سورة البقرة (2) : الآيات 58 إلى 60

﴿وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْها حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَداً وَادْخُلُوا الْبابَ سُجَّداً وَقُولُوا حِطَّةٌ نَغْفِرْ لَكُمْ خَطاياكُمْ وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ (58) فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلاً غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَنْزَلْنا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزاً مِنَ السَّماءِ بِما كانُوا يَفْسُقُونَ (59) وَإِذِ اسْتَسْقى مُوسى لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِبْ بِعَصاكَ الْحَجَرَ فَانْفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتا عَشْرَةَ عَيْناً قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُناسٍ مَشْرَبَهُمْ كُلُوا وَاشْرَبُوا مِنْ رِزْقِ اللَّهِ وَلا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ (60(

] في اثنتا عشرة عينا[

إشارة –علم الاثنتي عشرة عينا التي في العلم بها العلم بكل ما سوى اللّه ، وهو علم

من كتاب إيجاز البيان في الترجمة عن القرآن:

عدوكم ، فإن رؤيتهم لذلك الطريق غرهم فاتبعوكم حتى غشيهم من اليم ما غشيهم ، فانطبق البحر عليهم فأهلكهم« وَأَغْرَقْنا آلَ فِرْعَوْنَ ، وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ »وأنتم تشهدون ذلك ، ولنا وجه في« أَنْتُمْ تَنْظُرُونَ »وهو أن خرج من الحكاية إلى خطاب الحاضرين من بني إسرائيل وذلك بأن يكون« تَنْظُرُونَ »بمعنى تنتظرون ، فقال لهم وأنتم تنظرون أي تنتظرون أن يحل بكم إن لم تؤمنوا بمحمد عليه السلام ما حل بآل فرعون لما لم يؤمنوا بموسى عليه السلام ، وأما نسب موسى ، فهو موسى ابن عمران بن يصهر بن فاهث بن لاوى بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم خليل اللّه ، وقيل سمّي موسى لأنه وجد التابوت الذي كان فيه بين الشجر في الماء ، والمو بالقبطية الماء ، والسا الشجر ، فركبوا من ذلك اسم موسى ، وأما فرعون فقالوا اسمه الوليد بن مصعب ، وقالوا مصعب بن الريّان ، ثم ذكر من النعم قوله (52)« وَإِذْ واعَدْنا مُوسى أَرْبَعِينَ لَيْلَةً »الآية ، لما كان من نعم اللّه عليهم ما أنعم به على رسولهم ، إذ لهم الشرف بذلك ، ذكر من جملة النعم مواعدته لموسى في مناجاته ، فقال« وَإِذْ واعَدْنا »فعل فاعلين ، وهو أتم في التشريف حيث قرنه بنفسه في المواعدة ، وكذا أنزلت وتليت ، وقد قرأنا « وعدنا » بغير ألف ، فهو الوعد من جانب الحق تعالى خاصة ، وهذا أنزه ، والأول أشرف في حق موسى ، وقوله« أَرْبَعِينَ لَيْلَةً

»يمسكه عنده فيها مناجيا مقربا ، ويحتمل أنه بعد انقضاء الميقات يكون الكلام ، ليس في هذه الآية دليل على ترجيح أحد الوجهين ، وقوله« ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ »أي من بعد ما فارقكم وجاء لميقاتنا الذي وعدناه

ص 135

الحياة التي يحيا بها كل شيء ، وهو العلم المتولد بين النبات والجماد من المولدات بصفة القهر ، فإنّ العيون الاثنتي عشرة إنما ظهرت بضرب العصا الحجر ، فانفجرت منه بذلك الضرب

من كتاب إيجاز البيان في الترجمة عن القرآن:

"وَأَنْتُمْ ظالِمُونَ " أنفسكم ، أي ظلم بعضكم بعضا ، حيث لم يأخذ بعضكم على بعض ، ولا نهى بعضكم بعضا في اتخاذكم العجل إلها من دون اللّه (53)« . "ثُمَّ عَفَوْنا عَنْكُمْ مِنْ بَعْدِ ذلِكَ«
إشارة إلى الاتخاذ ، أي لم ندخر لكم العقوبة إلى الآخرة ، وجعلنا عقوبتكم في الدنيا ، وفرضنا لكم التوبة ، وهو الرجوع من شرككم إلى توحيد اللّه كما سيأتي ، ثم قال« لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ »على هذه النعمة في قبول التوبة ورفع العقوبة عنكم في الآخرة ، وقد ندخل نحن في قوله« لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ »حيث قصصنا عليكم ما كان منا في حق الأمم من قبلكم ، فتشكرون نعمة اللّه عليكم حيث عافيناكم مما ابتلينا به من كان قبلكم ، وسنأتي على شرح هذه القصة في مكانها من الأعراف وطه.
ثم قال (54)« وَإِذْ آتَيْنا مُوسَى الْكِتابَ »الآية ، ومن النعم أيضا على نبيكم موسى وعليكم ، أن آتيناه ، أي أعطيناه وأنزلنا عليه الكتاب ، يعني التوراة ، يقول : الجامعة لما فيه سعادتكم إن عملتم بها« وَالْفُرْقانَ »فيها ، أي وكتبت الفرقان فيها ، وهو من بعض ما

فيها ، يقول : جعلت لكم ما تفرقون به بين الحق والباطل« لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ »تتبينون ذلك عند تلاوتكم إياها فتعملون عليه ، ثم من نعمه قوله تعالى (55.(

»وَإِذْ قالَ مُوسى لِقَوْمِهِ »الآية ، فنبههم على ذنبهم وعلى ما شرع الحق في ذلك ، فقال« وَإِذْ قالَ »أي يا بني إسرائيل واذكروا أيضا إذ قال« مُوسى لِقَوْمِهِ »الذين عبدوا العجل ، فأضافهم إليه وإن كانوا قد كفروا وخالفوا دينه« يا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ »أي ظلم بعضكم بعضا حيث لم يرده عما شرع فيه من مخالفة أمر اللّه« بِاتِّخاذِكُمُ الْعِجْلَ »إلها من دون اللّه ، فهؤلاء كفار وليسوا مشركين إن كانوا لم يتخذوه شريكا ، ثم قال« فَتُوبُوا إِلى بارِئِكُمْ »فارجعوا إلى الذي خلقكم وبرأكم ، فإن العجل ما يخلق شيئا ، فذكر أخص وصف الإله ، ليدل أن الخلق لا يكون إلا للّه ، خلافا لمخالفي أهل الحق الذين ينسبون الخلق إلى غير اللّه« فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ »أي فتوبتكم أن يقتل بعضكم بعضا عقوبة لكم مناسبة كما لم يرد بعضكم بعضا عن عبادة العجل ، وكما لم يرد بعضكم بعضا في ذلك لظلمة الجهل التي أعمت بصائركم ، كذلك أنزل عليكم ظلمة حتى يقتل بعضكم بعضا فيها ، فأرسل اللّه عليهم ظلمة بحيث لا يبصر بعضهم بعضا ، وتقاتلوا فيها حتى رفع اللّه عنهم ذلك ، وقصتهم في التاريخ مذكورة ، وغرضنا التنبيه والإيجاز وما يدل عليه اللفظ وكيفية الوقائع موقوف على كتب التواريخ ، ولو وصلت إلينا من طريق صحاح ربما ذكرناها ، ومما ظهر لنا أيضا في إرسال الظلمة عليهم في وقت قتالهم لئلا يدرك الرجل رأفة في أبيه أو ابنه أو أخيه أو ذي قربى ، فيؤديه ذلك إلى الفتور في إقامة

ص 136

اثنتا عشرة عينا ، يريد علوم المشاهدة عن مجاهدة ، بسبب الضرب ، وعلوم ذوق ، لأن الماء من الأشياء التي تذاق ، ويختلف طعمها في الذوق ، فيعلم بذلك نسبة الحياة كيف

من كتاب إيجاز البيان في الترجمة عن القرآن:

حدّ اللّه الذي شرع لهم ، كما ورد في شرعنا في جلد الزّاني والزّانية: ﴿وَلا تَأْخُذْكُمْ بِهِما رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾.

وهذا أيضًا من أكبر النعم على بني إسرائيل ، وقال تعالى-: ﴿ذلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ عِنْدَ بارِئِكُمْ﴾، أي التوبة والقتل خير لكم عند بارئكم ، فأضافهم إلى البارئ عقيب القتل ، ليتنبهوا على الإعادة ورجوع الحياة إليهم ، ونبههم أيضا بذلك على أنّهم شهداء ، فهم أحياء عند ربهم يرزقون ﴿فَتابَ عَلَيْكُمْ﴾، أي رجع عليكم برحمته التي كان الكفر قد سلبها عنكم ﴿إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ﴾ الرجّاع ﴿الرَّحِيمُ﴾ بالرّحمة إليكم ، وقد تقدم تفسير التواب في قصة آدم ، ثم أردف أيضا هذه النعم بنعمة أخرى فقال تعالى وجل (56)« وَإِذْ قُلْتُمْ يا مُوسى لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ »الآية ، إلى قوله« تَشْكُرُونَ »قص اللّه علينا هذه الأمور ليري اللّه تعالى نبيه محمدا صلّى اللّه عليه وسلم ما قاسى موسى من أمته فيعزي نفسه بذلك ، قال تعالى(وَكُلًّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْباءِ الرُّسُلِ ما نُثَبِّتُ بِهِ فُؤادَكَ)وقال(وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرى)لنا لنشكر اللّه على ما أولانا من نعمه حيث آمنا واستسلمنا ، ولم نكلف نبينا أن يسأل ربه شيئا ، مثل ما كلفت الأمم رسلها ، فنشكره سبحانه على هذه النعمة ، إذ لو شاء لألقى في قلوبنا ما ألقاه في قلوب الأمم قبلنا ، ولهذا نشرك أنفسنا معهم في الضمير المذكور في قوله(لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ)فقال تعالى إخبارا عن بني إسرائيل ، والعامل في إذ كما في أمثاله« وَإِذْ قُلْتُمْ يا مُوسى لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ »أي لن نصدق بك« حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً »فالعامل في جهرة يحتمل أن يكون قلتم ، ويحتمل أن يكون العامل نرى ، وهذا من أعظم ما اجترءوا به على اللّه تعالى ، وأعظم ما كلفوه لموسى ، فعاقبهم اللّه بأن أرسل عليهم صاعقة ، أمرا من السماء هائلا أصعقهم لم ينقل إلينا من طريق صحيحة ما كان ذلك الأمر« فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ »أي فأخذتهم الصاعقة جهرة ، وهو قوله« وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ »قال (57)« ثُمَّ بَعَثْناكُمْ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ »أي من بعد ما صعقتم ، فقد يكون موت غشي ، وقد يكون موتا حقيقة ، والأقرب أن يكون موت غشي وصعق ، لأن اللّه يقول(لا يَذُوقُونَ فِيهَا)يعني في الجنة(إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولى)فأفردها ، وليس بنص ، ولكن يتقوى به وجه التأويل على هذا المعنى ، وسنومئ في إحياء من مات في ضرب الميت بالبقرة فحيي ، ما كانت تلك الحياة ، وفي كل حي يحيى في الدنيا بعد موته قبل حياة البعث ، فإنه سر لطيف لا يدرك إلا من جهة الكشف ، ثم قال« لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ »خطابا لنا ولهم ، فهذا تعريف يتضمن تكليفا بالشكر ، ومن النعم قوله (58)« وَظَلَّلْنا عَلَيْكُمُ الْغَمامَ »الآية ، لما دعا موسى على قومه

بالتيه حين قالوا ما ذكر في سورة المائدة ، قال أصحابه المؤمنون به : ما يقينا من حر الشمس في

ص 137

اتصف بها المسمى جمادا ، حتى أخبر عنه الصادق أنه يسبح بحمد اللّه ، لأن الحق أضاف ذلك إلى الحجر بقوله « منه » ، ومن لا كشف له ولا إيمان لا يثبت للجماد حياة ، فكيف

من كتاب إيجاز البيان في الترجمة عن القرآن:

هذا التيه ؟

فظلل اللّه عليهم الغمام ، وهو الضباب أو السحاب ، فقالوا : ما نأكل ؟ فأنزل اللّه عليهم المن ، وهو هذا الذي ينزل على الشجر ويجمعه الناس ، جعل اللّه لهم فيه غذاء وهو المعروف عندنا ، وقد قيل فيه إنه شيء شبه الخبز النقي ، وقيل شبه الذرة ، وأما السلوى فهو طائر واحده سلواة ، فقال تعالى« وَظَلَّلْنا عَلَيْكُمُ الْغَمامَ وَأَنْزَلْنا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوى كُلُوا مِنْ طَيِّباتِ ما رَزَقْناكُمْ »من جعل من للتبيين جعل الطيبات الحلال من الرزق ، وأطلق الرزق على الحلال والحرام ، ومن جعل من للتبعيض يريد التقليل من الأكل وهو مشروع ، جعل الرزق هنا الحلال ، فإن اللّه نهى عن أكل الحرام في غير ما موضع من كلامه في كل كتاب ، وقوله« وَما ظَلَمُونا »أي وما تضررنا بمعصيتهم ولا بمخالفتهم ، إذ كان كل مظلوم متضررا« وَلكِنْ كانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ »أي ما يكون من الضرر في ذلك يعود عليهم ، وهذا يدلك أيضًا على أنه لنفسك عليك حق ، وهو أن تسلك بها سبيل النجاة ، فإذا لم تفعل فقد ظلمتها وأورثتها الضّرر والشقاء ، ثم قال تعالى (59) ﴿وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هذِهِ الْقَرْيَةَ﴾ الآية ، ومن نعمه أيضا عليهم بعد أن فرغوا من إقامتهم في التيه أن قال لهم: ﴿ادْخُلُوا هذِهِ الْقَرْيَةَ﴾، يعني بيت المقدس أو أريحا ، ما ثبت عندنا أية قرية هي ، غير أنا

زرنا قبر موسى عليه السلام على قرب من أريحا على قارعة الطريق الكبرى وقرب من الكثيب الأحمر ، بأرض يقال لها البريصا، ظاهر حجارتها بيض وباطنها أسود نفطية ، كنا نوقدها كما يتقد النفط ، ورائحتها كرائحته وفيها دهن ، والقبر على يمين الطريق إذا طلبت أريحا ، ثمّ قال: ﴿فَكُلُوا مِنْها﴾ الضّمير يعود على القرية ﴿حَيْثُ شِئْتُمْ﴾، أي مما فيها ، فأباح لهم الدخول والأكل كيف شاءوا وممّا شاءوا وحيث شاءوا ﴿رَغَداً﴾ في اتّساع عيش من غير تضييق ولا تحجير« وَادْخُلُوا الْبابَ سُجَّداً »كلفهم التواضع عبادة بالسجود عند الدخول« وَقُولُوا حِطَّةٌ »بالرفع ، أي قولوها كما أمرتم حكاية على الرفع ، وحطة مثل قعدة وجلسة ، وقد يكون دعاء ، أي حط عنا ذنوبنا حطة ، وقد يكون المعنى إذا دخلتم سجدا وفرغتم من عبادتكم فحطوا ، أي أنزلوا رحالكم حطة ، ومعناه يتداعوا بها على الرفع بينهم : حطة حطة ، ليحطّوا ، فإذا فعلتم ذلك« نَغْفِرْ لَكُمْ خَطاياكُمْ »جمع خطيئة ، وهو ما كان منكم مما تقدم مما ذكرناه من الذنوب ،« وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ »إحسانا على إحساننا لهم ، لكونهم ما خالفوا أمر اللّه واحترموا جانب الحقّ ، قال –تعالى–: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنى وَزِيادَةٌ﴾، فإن تركهم للمخالفة زيادة عمل مشروع إذا اقترنت به نية التّرك ، وسواء كان الترك لمباح أو ندب أو فرض ، على أنه عندنا إذا أتى المباح من حيث أنه مباح شرعا أجر (60) ﴿فَبَدَّلَ

ص 138

وبضربه بها ظهر ما ظهر ، ومن لا كشف له لا يعلم أن النبات حي ، إلّا من يصرف الحياة إلى النمو ، فعلم الاثنتي عشرة عينا على الكشف والمشاهدة هو علم ما يتعلق بمصالح العالم ﴿قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُناسٍ مَشْرَبَهُمْ﴾ من تلك العيون ، فمن علمها علم حكم الاثني عشر برجا ، وعلم منتهى أسماء الأعداد وهي اثنا عشر ، وعلم الإنسان بما هو ولي للّه –تعالى –.

من كتاب إيجاز البيان في الترجمة عن القرآن:

الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ﴾ الآية ، قيل لهم قولوا : حطة ، فبدلوا ، قيل المعنى فاستهزءوا ، وقيل اللفظ ، فقالوا : حطا سمقا ، بالقبطيّة معناه حنطة حمراء استهزاء ، فعاقبهم اللّه على ذلك ، فقال: ﴿فَأَنْزَلْنا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزاً مِنَ السَّماءِ﴾ بيّن أنّ الرّجز إنّما نزل بالظالمين ، ولم يقل عليهم لئلّا يدخل فيه غير الظّالمين ، لأنّ العذاب قد ينزل فيعم الصالح والطّالح ، ويحشر كل إنسان على عمله ، فلهذا أخبر اللّه أن الرجز الذي هو العذاب اختص بالذين ظلموا ﴿بِما كانُوا يَفْسُقُونَ﴾، أي بخروجهم عن أمرنا فيما بدلوه من قولنا قولوا حطة ، ومن نعمه أيضا قوله (61) ﴿وَإِذِ اسْتَسْقى مُوسى لِقَوْمِهِ﴾ الآية ، لما أعطاهم ما يقيهم من حر الشمس وما يأكلون طلبوا ما يشربون ، فاستسقى اللّه لهم موسى ﴿فَقُلْنَا﴾، فقال له ربّه: ﴿اضْرِبْ بِعَصاكَ الْحَجَرَ﴾ *فإنّ الحجارة في الغالب موضع تفجير الماء ﴿فَانْفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتا عَشْرَةَ عَيْناً﴾، وكانوا اثني عشر سبطا ، لكل سبط عين ، والحجر قد يكون الألف واللام لحجر بعينه ، وكذا ذكر في التاريخ ، وأنّه كان صغيرا يحمله في مخلاة ، فحيثما نزلوا من التيه أخرجه وضربه بعصاه ، فتفجر عيونا اثنتي عشرة ، وقد يحتمل أن يكون للجنس ، وقوله: ﴿قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُناسٍ مَشْرَبَهُمْ﴾ كان لكل سبط عين تخصه ، وكل سبط يرجع إلى ولد من أولاد يعقوب ، وهم الأسباط ، فسبط يرجع إلى روبيل ومعناه بالعربية الأبيض ، وسبط يرجع إلى يهود ومعناه بالعربية شاكر ، وسبط يرجع إلى شمعون وهو بالعربية سمعان ، وسبط يرجع إلى نفنوان ومعناه المنطيق ، وسبط يرجع إلى رنوان ويقال فيه ربالون ولم نر له تفسيرا ، وسبط يرجع إلى آشر ومعناه الطيب ، وسبط يرجع إلى أنساخر ومعناه المتأخر ، وسبط يرجع إلى جاد ومعناه الفياض ، وسبط يرجع إلى دان ومعناه بالعربية الحكم ، وسبط يرجع إلى يوسف ومعناه يزيد ، وسبط يرجع إلى لاوى ومعناه العطاف ، وسبط يرجع إلى بنيامين ومعناه شداد ، وكلهم أولاد يعقوب وهو إسرائيل ومعناه صفوة اللّه ، ثم قال لهم« كُلُوا وَاشْرَبُوا مِنْ رِزْقِ اللَّهِ »تقدم الكلام في الرزق« وَلا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ »اسم فاعل من أفسد يفسد فهو مفسد ، يقال عاث في الأرض إذا أفسد فيها ، وبه سمى العوث وهي الدودة التي تأكل الثياب

سورة البقرة (2) : آية 61

﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يا مُوسى لَنْ نَصْبِرَ عَلى طَعامٍ واحِدٍ فَادْعُ لَنا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ مِنْ بَقْلِها وَقِثَّائِها وَفُومِها وَعَدَسِها وَبَصَلِها قالَ أَ تَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنى بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ اهْبِطُوا مِصْراً فَإِنَّ لَكُمْ ما سَأَلْتُمْ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَباؤُ بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ ذلِكَ بِأَنَّهُمْ كانُوا يَكْفُرُونَ بِآياتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ذلِكَ بِما عَصَوْا وَكانُوا يَعْتَدُونَ﴾ (61)

أَ تَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنى »وهو ما ذكروه« بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ »وهو ما أنزل اللّه عليهم من المنّ والسّلوى ، فأشار إلى دناءة همّتهم

من كتاب إيجاز البيان في الترجمة عن القرآن:

والكتب ، ويقال لها الأرضة ، فقال لهم : لا تفسدوا في الأرض ، فتسموا مفسدين ، ثم قال تعالى (62)« وَإِذْ قُلْتُمْ يا مُوسى لَنْ نَصْبِرَ عَلى طَعامٍ واحِدٍ »الآية ، لما كان في طبع هذه النشأة الدنيوية إذا استصحبها أمر تمله ، خلق اللّه له من الأرزاق أنواعا مختلفة المطاعم والألوان والروائح ، ولما فرض عليهم العبادات جعلها مختلفة بالنوع ، وجعل لها أوقاتا متفرقة من أجل الملل الذي جبلهم اللّه عليه ، ولو كان الرزق من ألذ المطاعم واستصحبه سئمه وطلب غيره أو تباعد عنه الزمان ، حتى تدعو الحاجة إليه وإن كان واحدا ، ولما ألفوا تكاثر الآلهة عندهم لم يلتذوا بالتوحيد التذاذهم بالكثرة ، ومن حكمة اللّه في وحدانيته –سبحانه– أن جعل له أسماء كثيرة ندعوه بها في عموم أحوالنا ، فننتقل من اسم إلى اسم لتتنوع علينا الأدعية والأذكار مع أحدية المدعو والمذكور ، كلّ ذلك للملل الذي في جبلتنا ، فسبحان اللّطيف بعباده ، وهذا من خفايا ألطافه التي لا يعرفها إلا القليل من عباده ، فقالوا لموسى ﴿فَادْعُ لَنا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ﴾ في تيههم ﴿مِنْ بَقْلِها﴾ يقول من أنواع بقولها ، ثمّ خصّوا بالذكر ما كان لهم فيه رغبة ، حتى يكون ذلك

المعيّن من جملة ما يخرج لهم ﴿وَقِثَّائِها﴾ بضمّ القاف وكسره وهو معروف ﴿وَفُومِها﴾ قيل هو الثوم، وهو الأقرب ، وقيل: الحنطة ، وقيل: الخبز ﴿وَعَدَسِها وَبَصَلِها قالَ﴾ اللّه لموسى قل لهم ﴿أَ تَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنى﴾، أي أخس وأوضع وأحقر ﴿بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ﴾ منه ، وهو ما كانوا فيه من اللّحم والحلواء ، ولا شكّ أنّ أمرهم متناسب في الشّكل، فمن اشترى الضلال بالهدى ، والعذاب بالمغفرة ، والكفر

سورة البقرة (2) : آية 62

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هادُوا وَالنَّصارى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صالِحاً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ (62(

يقال : صبا فلان إلى كذا إذا مال إليه.

من كتاب إيجاز البيان في الترجمة عن القرآن:

بالإيمان ، وكله استبدال ، لا ينكر عليه في نفسه القذرة أن يستبدل المن والسلوى بالثوم والبصل ، فقال لهم اللّه« اهْبِطُوا مِصْراً فَإِنَّ لَكُمْ ما سَأَلْتُمْ »لأنهم سألوا دنيّا ، فأهبطوا من عز رفعتهم بعناية اللّه بهم وما اختاره من الطعام الطيب ، وقوله« مِصْراً »منونا ، أي مصرا من الأمصار ، ومن لم ينوّن أراد البلدة المسماة بمصر ، فلما هبطوا وكفروا بآيات اللّه ، وقتلوا النبيين بغير الحق وعصوا واعتدوا« ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ »أي ألصقت بهم ، من ضربت الطين على الحائط إذا ألصقته ، يقول لزمتهم الذلة وهي الصغار ، والمسكنة الخضوع والسكون تحت صولة الإيمان ، فلم يرفع اللّه لهم علما ، ولا قام منهم ملك ، حيث كانوا في جميع الملل لا يزالون أذلاء صاغرين« وَباؤُ بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ »أي استحقوا الغضب من اللّه ، يقال باء فلان بفلان إذا كان حقيقا أن يؤخذ به لمساواته إياه في الكفاءة في ذلك ، وقال عليه السلام : من قال لأخيه كافر فقد باء به أحدهما ، أي استحق ذلك الإطلاق أحد الرجلين ، إما المقول فيه إن كان كافرا ، وإما القائل إن كان المقول فيه

مسلما ، لأنه سمى الإسلام كفرا ، ومن اعتقد بذلك فقد كفر ، ذهب إلى هذا بعض العلماء ، ثم قال« ذلِكَ بِأَنَّهُمْ »هذه باء السبب« كانُوا يَكْفُرُونَ بِآياتِ اللَّهِ »قد تقدم شرح الكافر في أول السورة ، وقوله« بِآياتِ اللَّهِ »يقول بما نصبه الحق من الدلالات على تصديق ما جاءت به رسله من كتاب وغيره« وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ »سبب آخر زائد على الكفر بالآيات ، يقول عنادا ، أي لم يقتلوهم بحق من عندهم فيما يرجع إلى دينهم ، فالألف واللام للحق المعهود عندهم ، لا للحق الذي جاءت به الأنبياء صلوات اللّه عليهم ، فإن ذلك معلوم بلا شكّ ، وإنما فائدة ذكر الحق فيما ترجمنا عنه« ذلِكَ بِما عَصَوْا »في ردهم الآيات« وَكانُوا يَعْتَدُونَ »يتجاوزون الحق الذي اتخذوه دينا ، ما وقفوا عنده ، بل تعدوه وجاوزوه بالمخالفة في قتلهم الأنبياء (63) ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هادُوا﴾ الآية ، يقول : إن الذين آمنوا أي أقروا بألسنتهم ولم تؤمن قلوبهم ، فيكون على هذا من آمن منهم باللّه يعود الضّمير عليهم ، وعلى الذين هادوا والنّصارى والصّابئين مخلصا من قلبه ، وقد يريد: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ خالصًا من قلبه ﴿وَالَّذِينَ هادُوا﴾، يعني: اليهود ، يقال هاد يهود وتهوّد إذا دخل في دين اليهودية ﴿وَالنَّصارى﴾ جمع نصران« وَالصَّابِئِينَ«

ص 141

سورة البقرة (2) : الآيات 63 إلى 65

﴿وَإِذْ أَخَذْنا مِيثاقَكُمْ وَرَفَعْنا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا ما آتَيْناكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا ما فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (63) ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ مِنْ بَعْدِ ذلِكَ فَلَوْ لا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَكُنْتُمْ مِنَ الْخاسِرِينَ (64) وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خاسِئِينَ﴾ (65(

ظهر المسخ في بني إسرائيل بالصّورة فمسخهم اللّه قردة وخنازير.

من كتاب إيجاز البيان في الترجمة عن القرآن:

من صبأ إذا مال من دينه إلى دين آخر ، يقول« مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ »صدق من هؤلاء المذكورين بقلبه « وآمن باللّه » يقول بتوحيده ، أي بوحدانيته« وَالْيَوْمِ الْآخِرِ »يقول بالبعث ، أي بوجود يوم القيامة« وَعَمِلَ صالِحاً »ولم يدخل في عمله خللا من شرك خفي ولا جلي« فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ »جزاء عملهم« عِنْدَ رَبِّهِمْ »أي عند سيدهم الذي استخدمهم وكلفهم بالأعمال ، وهو اللّه تعالى« وَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ »زائد على الجزاء بما حصّلوا من النعيم في مقابلة ما فعلوا من الخير الذي له عين موجودة ، وما وصفوا به من نفي الخوف والحزن عنهم فيما تركوا مما أمروا بتركه ، فسلب لسلب ، وإثبات لإثبات

(64)« وَإِذْ أَخَذْنا مِيثاقَكُمْ »أما قوله« وَإِذْ أَخَذْنا »بنون الجمع لوساطة الرسل في ذلك ، فهم الذين أخذوا المواثيق للّه على أممهم ، فأخذ الميثاق من اللّه ورسوله ، فلهذا كنّى سبحانه بالنون ، وليس لنا ذلك إلا بأمر منه سبحانه.

وقد قال عليه السلام لمن جمع بين اللّه ورسوله في الضمير في خطبته (بئس الخطيب أنت) ، فهذا ضمير المخاطبين يعود على كل من أخذ عليه الميثاق مطلقا ، من أخذ الذرية إلى نبوة محمد عليه السلام ، وهو الإقرار بالوحدانية وبما يجيء من عند اللّه في كتبه أو على ألسنة رسله مما يجب الإيمان به ، ثم خصص في الخطاب بعض من أخذ عليه الميثاق في قوله« وَرَفَعْنا فَوْقَكُمُ الطُّورَ »أراد بني إسرائيل بهذا الخطاب خاصة ، وذلك لما امتنعوا من قبول كتابهم والحفظ له والعمل به لما فيه من التكاليف الشاقة عليهم ، فاقتلع اللّه الجبل ورفعه عليهم كالظلة ، إن لم يقبلوا الكتاب ويوفوا بعهد اللّه وميثاقه وإلا أوقع عليهم الجبل ، وقال لهم والجبل على رؤوسهم« خُذُوا ما آتَيْناكُمْ بِقُوَّةٍ »أي اقبلوا ما أعطيناكم بجد وعزم على حفظه والعمل به ، وقد يكون العامل في الباء من بقوة« آتَيْناكُمْ »أي خذوا ما أعطيناكم تقوية على ما كلفتموه لما يتضمن من الوعد الجميل والثواب الجزيل لمن عمل فيه ، ولما يتضمن من الوعيد

ص 142

سورة البقرة (2) : الآيات 66 إلى 67

﴿فَجَعَلْناها نَكالاً لِما بَيْنَ يَدَيْها وَما خَلْفَها وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ (66) وَإِذْ قالَ مُوسى لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً قالُوا أَ تَتَّخِذُنا هُزُواً قالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجاهِلِينَ﴾ (67)

المناسبة بين البقر والإنسان قوية عظيمة السلطان ، وكما أن البقر برزخ بين الإبل والغنم

من كتاب إيجاز البيان في الترجمة عن القرآن:

والتّهديد لمن ترك العمل بما فيه ، فيكون وقوفكم عليه وقراءتكم له محرضا وتقوية على العمل به ، ويؤيد هذا قوله« وَاذْكُرُوا ما فِيهِ »ثم جاء بلفظة« اذْكُرُوا ما فِيهِ »مما تقدم من أخذ المواثيق في ذلكم عليكم ، ومما يتضمنه من نعم اللّه عليكم ، إذ أوجدكم واصطفاكم بما ذكره فيه زائدا على ما فيه مما شرع لكم« لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ »يقول لهم الرسول بأمر اللّه« لَعَلَّكُمْ »فيكون الترجي من الرسول أن تتقوا أو منهم أن يكونوا من المتقين ، وقد ذكرنا تفسير« لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ »والمتقي من هو في أول السورة ، ثم قال –تعالى– (65) ﴿ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ مِنْ بَعْدِ ذلِكَ﴾، أي أعرضتم لما رفعنا عنكم ما ظننتم أنه واقع بكم ، وهو الجبل. وإليه الإشارة ﴿بذلك﴾، وهو قوله –تعالى–: ﴿فَلَمَّا كَشَفْنا عَنْهُمُ الْعَذابَ إِذا هُمْ يَنْكُثُونَ﴾، ﴿فَلَوْ لا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ﴾ بكم حيث لم يعاقبكم بسقوط الجبل عليكم، فتموتون ناكثين ، فتكونون من الذين لم تربح تجارته وكنتم خاسرين ﴿لَكُنْتُمْ مِنَ الْخاسِرِينَ﴾ قال لهم ذلك ليرجعوا عن توليهم وإعراضهم ونكثهم ، فإن احتجوا بالفاء في قوله: ﴿فَلَوْلا﴾ أنّها للتعقيب ، قلنا : كذا وردت ، فإنّه –سبحانه– لمّا رفع الجبل على رؤوسهم ، لولا فضله ورحمته أسقطه عليهم ، ولم ينتظر بهم أن يأخذوا الكتاب ، لا أنهم بعد التّولّي الثّاني تفضل عليهم بالتّوبة ، ثمّ قال –تعالى–: (66) ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ﴾ خطابًا لبني إسرائيل ﴿الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنْكُمْ﴾ بعّضهم ، أي جاوزوا ما حد لهم أن يفعلوه ويتركوه« فِي »يوم« السَّبْتِ »من ترك الصيد فيه والمثابرة على طاعته ، وهم الذين تولوا ونكثوا ، وما ذكر أنه تاب عليهم ، ثم قال« فَقُلْنا لَهُمْ كُونُوا »هو قوله(إِنَّما قَوْلُنا لِشَيْءٍ إِذا أَرَدْناهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ)وقال عليه السلام وهو في غزوة تبوك وقد أبصر شخصا مقبلا على

بعد وهو في أصحابه : كن أبا ذر ، فكان أبو ذر ، فكان ، والكون حرف وجودي عند الجماعة ، وعندنا حرف ثبوتي ، فإنه يتوجه على الإيجاد والإعدام ، والعدم يثبت للمعدوم ولا يكون له ، وهذه مسئلة عظيمة القدر ، فإنه ليس في قوتهم أن يكوّنوا أنفسهم« قِرَدَةً »وإنما اللّه يكونهم أي يقلب صورهم قردة ، والحقائق لا تتبدل ، فمن المخاطب بأن يرجع قردا ؟ فقد يصح هنا قول من يقول إن الجواهر متماثلة والصور أعراض فيها ، فسلخ اللّه

ص 143

في الحيوان المذكى ، فالإنسان برزخ بين الملك والحيوان ، ثم إن البقرة التي ظهر الإحياء بموتها والضرب بها برزخية أيضا في سنها ولونها ، فهي لا فارض ولا بكر عوان بين ذلك ، فهذا مقام برزخي ، وهي لا بيضاء ولا سوداء بل صفراء ، والصّفرة لون برزخي بين البياض والسّواد ، فقويت المناسبة بين البقر والنفوس الإنسانيّة ﴿قالُوا أَ تَتَّخِذُنا هُزُواً قالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجاهِلِينَ﴾، لأنّ الجهل صفة مذمومة منهي عنها بقوله تعالى : « فلا تك من الجاهلين » مستعاذ باللّه منها.

من كتاب إيجاز البيان في الترجمة عن القرآن:

الصّورة الإنسانيّة من الجوهر وكساه صورة القرد ، فإن الحرارة لا ترجع برودة ، لكن الحار بقبوله للحرارة إذا زالت عنه زال عنه اسم الحار وقبل البرودة ، فصح عليه اسم البارد ، وما ثبت عندنا من طريق صحيحة أن ظواهرهم رجعت في صورة القردة ، والقدرة صالحة ، فقد يحتمل أن يكون مسخ بواطنهم قردة مع بقاء الصورة الإنسانية ، ويحتمل أن يكون مسخ ظواهرهم قردة مع بقاء علمهم بأنهم ذلك ، ليذوقوا العذاب ، فيكون قردا في الظاهر إنسانا في الباطن ، واللّه على كل شيء قدير ، وما يقع التوقف إلا من عدم صحة النقل لا من حيث الإمكان ، وقوله« خاسِئِينَ »أي مبعودين مطرودين من رحمة اللّه ، ، وقوله (67)« فَجَعَلْناها »يعني هذه الكائنة« نَكالًا »قيدا وحدا يوقف عنده إذ كان النكل القيد

يقف عنده الماضي والآتي معتبرا ، وقد يكون قيدا أي ثباتا للممسوخين على هذه الصورة « ل » لأجل « مابَيْنَ يَدَيْها وَما خَلْفَها وَ »جعلناها« مَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ »للذين يخافون مثل هذه الأشياء ، وقد يكون نكالا من النّكول، وهو العدول ، عدل بهم عن رحمة اللّه لما عدلوا عن طاعته والوفاء بعهده وميثاقه ، وجعلناها بمعنى صيّرناها في عينها للحاضرين الذين يشاهدونها ، وفي الذكر بالخبر عنها لمن يأتي بعدهم ، وذلك أن اللّه لما خلق الإنسان خلقه مستقبلا الآخرة ، فهو يطلبها في سيره ، ومدة ذلك عمره ، وأول منزل يلقاه منها القبر ، وأوّل حالة تدركه منها الموت ، والساعة أيضا تستقبله ولذا سميت ساعة أي تسعى إليه ، فعند الموت يكون اللقاء بين الإنسان والقيامة.

قال عليه السلام (من مات فقد قامت قيامته) ولا يزال في منازلها يتقلب ويقطعها إلى يوم البعث ، ثم يقطع منازل ذلك اليوم إلى أن يصل إلى الجنة أو إلى النار ، فلهذا ثبت له الأمام لما يستقبله ، والخلف لما يأتي بعده (68) ﴿وَإِذْ قالَ مُوسى لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً﴾ القصة : كان سبب هذا أن رجلا قتل عمه وجعله في أرض قوم ليأخذ ديته ، ثم استعدى على أهل تلك الأرض ، وتدافعوا معه بالخصومة فارتفعوا إلى موسى عليه السلام وسألوه أن يبين لهم عن الأمر ، فسأل ربه ، فأمره أن يأمرهم أن يذبحوا بقرة ، فيضرب الميت ببعضها ، فيحييه اللّه ، ليريهم كيف يحيي اللّه الموتى ، ولتبرأ ذمة البريء مما نسب إليه من ذلك ،

ص 144

سورة البقرة (2) : الآيات 68 إلى 72

﴿قالُوا ادْعُ لَنا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنا ما هِيَ قالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّها بَقَرَةٌ لا فارِضٌ وَلا بِكْرٌ عَوانٌ بَيْنَ ذلِكَ فَافْعَلُوا ما تُؤْمَرُونَ (68) قالُوا ادْعُ لَنا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنا ما لَوْنُها قالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّها بَقَرَةٌ صَفْراءُ فاقِعٌ لَوْنُها تَسُرُّ النَّاظِرِينَ (69) قالُوا ادْعُ لَنا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنا ما هِيَ إِنَّ الْبَقَرَ تَشابَهَ عَلَيْنا وَإِنَّا إِنْ شاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ (70) قالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّها بَقَرَةٌ لا ذَلُولٌ تُثِيرُ الْأَرْضَ وَلا تَسْقِي الْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لا شِيَةَ فِيها قالُوا الْآنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ فَذَبَحُوها وَما كادُوا يَفْعَلُونَ (71) وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْساً فَادَّارَأْتُمْ فِيها وَاللَّهُ مُخْرِجٌ ما كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ (72(

﴿فَادَّارَأْتُمْ فِيها﴾، أي تدافعتم فيها، ﴿وَاللَّهُ مُخْرِجٌ ما كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ﴾.

من كتاب إيجاز البيان في الترجمة عن القرآن:

ف" قالُوا" لموسى« أَ تَتَّخِذُنا هُزُواً »أي تسخر بنا« قالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجاهِلِينَ »فإن الجاهل هو الذي يسخر بعباد اللّه (69)« قالُوا ادْعُ لَنا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنا ما هِيَ قالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّها بَقَرَةٌ لا فارِضٌ »أي لا هرمة« وَلا بِكْرٌ »وهي التي ولد لها ولد واحد« عَوانٌ بَيْنَ ذلِكَ »والعوان التي ولد ولدها ، قد يفهم من هذا ما يخرج في الصدقة من الماشية ، حتى لا يعتدي فيها من الطرفين ، من رب المال يأخذ الأنفس ، ومن جهة المتصدق عليه من أخذ الأخس« فَافْعَلُوا ما تُؤْمَرُونَ »(70)« قالُوا ادْعُ لَنا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنا ما لَوْنُها قالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّها بَقَرَةٌ صَفْراءُ فاقِعٌ لَوْنُها »أي بالغ في الصفرة حسنا وجمالا ، يقال أصفر فاقع ، وأسود حالك ، وأبيض يقق ، وأحمر ناصع ، وقال« تَسُرُّ النَّاظِرِينَ »أي يستحسنها من نظر إليها (71)« قالُوا ادْعُ لَنا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنا ما هِيَ إِنَّ الْبَقَرَ تَشابَهَ عَلَيْنا »أي هذا الجنس كثير ويشتبه علينا فزدنا بيانا« وَإِنَّا إِنْ شاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ »فلما تأدبوا مع اللّه في الاستثناء رزقهم الهداية إلى ما سألوه من ذلك ، فلم يسألوا بعد ذلك ، (72)« قالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّها بَقَرَةٌ لا ذَلُولٌ »أي صعبة القياد« تُثِيرُ الْأَرْضَ »أي لا تنقاد للحرث ، يقول : ما هي ذلول تثير الأرض ، أي يحرث بها« وَلا تَسْقِي الْحَرْثَ »ولا

ص 145

سورة البقرة (2) : آية 73

﴿فَقُلْنا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِها كَذلِكَ يُحْيِ اللَّهُ الْمَوْتى وَيُرِيكُمْ آياتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ (73(

ولذلك فإن بين البقر والنفس نسبة ، إذ الغنم تناسب الأرواح ، والبدن أي الإبل تناسب الأجسام ، والبقر تناسب الأنفس ، لذلك قال –تعالى–: ﴿اضْرِبُوهُ بِبَعْضِها كَذلِكَ يُحْيِ

اللَّهُ الْمَوْتى »فتحيا بإذن اللّه تلك النفس المقتولة للمناسبة ، فإنه لما كانت المناسبة بين البقر والإنسان قويّة عظيمة السلطان ، لذلك حي بها الميت لما ضرب ببعض البقر ، فجاء بالضرب إشارة إلى الصفة القهرية لما شمخت النفس الإنسانية أن تكون سبب حياته بقرة ، ولا سيما وقد ذبحت وزالت حياتها ، فحيي بحياتها هذا الإنسان المضروب ببعضها ، وكان قد أبى لما عرضت عليه فضرب ببعضها فحيي بصفة قهرية ، للأنفة التي جبل اللّه الإنسان عليها.

وفعل اللّه ذلك ليعرفه أنّ الاشتراك بينه وبين الحيوان في الحيوانية محقّق بالحد والحقيقة. ولهذا هو كلّ حيوان جسم متغذ حساس ، فالإنسان وغيره ، من الحيوان . وانفصل كل نوع من الحيوان عن غيره بفصله المقوم لذاته الذي به سمي هذا إنسانا ، وهذا بقرا ، وهذا غنما ، وغير ذلك من الأنواع ، وما أبى الإنسان إلا من حيث فصله المقوم ، وتخيل أن حيوانيته مثل فصله

من كتاب إيجاز البيان في الترجمة عن القرآن:

يسقى بها الحرث ، أي تدور بالسانية لصعوبتها« مُسَلَّمَةٌ »صحيحة« لا شِيَةَ فِيها »أي لا لون فيها من عير لونها« قالُوا الْآنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ »المطلوب لنا ، أي استوفيت الصفة« فَذَبَحُوها »ومن كثرة تفتيشهم على صفتها كادوا لا يجدونها فلا يفعلون ، فهو قوله« وَما كادُوا يَفْعَلُونَ »(73)« وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْساً فَادَّارَأْتُمْ فِيها ، وَاللَّهُ مُخْرِجٌ ما كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ »(74)« فَقُلْنا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِها ، كَذلِكَ يُحْيِ اللَّهُ الْمَوْتى وَيُرِيكُمْ آياتِهِ ، لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ »« فَقُلْنا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِها »واختلف الناس في ذلك البعض ما هو ؟ فمن جملة ما قالوه فخذها ، ولسانها ، وفيه مناسبة ، فإن اللسان محل الكلام ، والمراد من الميت النطق ليعرفوا الأمر ، وأما الفخذ خاصته فقد ورد أنه لا تقوم الساعة حتى تكلم الرجل فخذه بما فعل أهله بعده ، فخص الفخذ بذلك في الدنيا دون غيره من الأعضاء ، وهذا الإحياء إنما وقع في الدنيا ، وأما في الآخرة فتنطق الجلود والأيدي والأرجل والألسنة قال تعالى« كَذلِكَ يُحْيِ اللَّهُ الْمَوْتى »يعني في قيام الميت حيا من قبره ، أي تظهر يوم القيامة حياته

القائمة بجسمه ، التي نحن اليوم محجوبون عن إدراكها ، السارية في كل موجود من جماد ونبات وحيوان ، التي أدركها النبيون وأهل الكشف ، قال تعالى(وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ

ص 146

المقوم ، فأعلمه اللّه بما وقع أن الحيوانية في الحيوان كله حقيقة واحدة ، فأفاده ما لم يكن عنده ، وكذلك ذلك الميت ما حيي إلا بحياة حيوانية لا بحياة إنسانية من حيث إنه ناطق ، وكان كلام ذلك الميت مثل كلام البقرة في بني إسرائيل.

قال الصحابة تعجّبا : بقرة تكلم ؟

فقال رسول اللّه –صلّى اللّه عليه وسلم–: آمنت بهذا ، وما رأوا أن اللّه قد قال ما هو أعجب من هذا أن الجلود قالت : أنطقنا اللّه الذي أنطق كل شيء ، فهذه الحياة التي تظهر لأعين الخلق عند خرق العوائد في إحياء الموتى هي الحياة الذاتية للأشياء.

إشارة –لا يقوم تركيب إلّا بحل تركيب ، انظر سرّه لما ذبحت البقرة قام الميت بحياتها من قبره ، والبقرة من عالم الوسط كالبرزخ بين الدّنيا والآخرة ، فهي فوق الكبش ودون البدنة في الأجر ، فبذبحها سرّحت في الحضرة البرزخية ، فكان سببا في نقل حياتها إلى حياة البرزخ ، وهو إحياء هذا الميّت ، فإنّ الميّت في عالم البرزخ ، فوقعت المناسبة.

]الحياة بالضّرب[

إشارة –من الحياة بالضّرب قول النّبيّ –صلّى اللّه عليه وسلم–: «فضرب بيده بين كتفي فوجدت بردها بين ثديي، فعلمت علم الأولين والآخرين»، فأضاف العلم إلى الضرب باليد الإلهيّة ، وهي الحياة المعنويّة.

من كتاب إيجاز البيان في الترجمة عن القرآن:

بِحَمْدِهِ وَلكِنْ لا تَفْقَهُونَ﴾ لا تعلمون تسبيحهم ﴿إِنَّهُ كانَ حَلِيماً﴾ فلم يؤاخذكم عاجلا بإنكاركم ذلك (غفورا) بما ستر من إدراك حياتها لأبصاركم ، ولنا حياة منسوبة إلى ارتباط الروح الناطق بهذا الجسم ، وهو الذي يظهر حياته في الجسم ، وافتراقه من الجسم يسمى الموت ، ولنا حياة أخرى نشرك بها جميع الأجسام ، وهي التي أخذ اللّه بأبصارنا عنها ، فقد يمكن أن يكون حياة صاحب البقرة ظهور تلك الحياة ، ثمّ قال: ﴿وَيُرِيكُمْ آياتِهِ﴾، أي دلالاته على أنه على كل شيء قدير﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾، أي تمسكون على ذلك ، مأخوذ من العقال ، وتثبتون عليه من غير شبهة تزلزلكم عنه ، وقوله: ﴿وَاللَّهُ مُخْرِجٌ ما كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ﴾، وهو ما أظهر من كذب وليّ المقتول ، وفيه تنبيه على إظهار ما استتر عن عيوننا من حياة الأجسام ، وهو ما نبّهنا عليه آنفا ، ونسب الكتمان إليهم، لأنّ الأمر مستور فيهم ، وقوله« بَقَرَةً »بلفظ التنكير حتى لو أخذوا أية بقرة كانت ، وقع الغرض ، ذلك محتمل بالنظر إلينا ، وأما في علم اللّه فبقرة مخصوصة بهذا الوصف ، ولو فهموا منه بقرة على الإطلاق لبادروا إليها ، فإن النفوس قد طبعت على طلب التيسير ، وقوله: ﴿فَافْعَلُوا ما تُؤْمَرُونَ﴾ من أول سؤال سألوه يؤذن بالزجر عن السّؤال وكثرته ، قال –عليه السلام–: "إنّما أهلك

ص 147

سورة البقرة (2) : آية 74

﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذلِكَ فَهِيَ كَالْحِجارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَإِنَّ مِنَ الْحِجارَةِ لَما يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهارُ وَإِنَّ مِنْها لَما يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْماءُ وَإِنَّ مِنْها لَما يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ (74(

﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذلِكَ فَهِيَ كَالْحِجارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً﴾. وإنّما كانت أشدّ قسوة من الحجارة، لأنّ من الحجارة ما يتفجر منه الأنهار وإن منها لما يشقق فيخرج منه الماء وإن منها لما يهبط من خشية اللّه ، وأنتم ما عندكم في قلوبكم من هذا شيء ، يذمهم بذلك – تحقيق – اعلم أن الحجارة عبيد محقّقون ، ما خرجوا عن أصولهم في نشأتهم ، فالحجر يهرب من مزاحمة الربوبية في العلو ، فيهبط من خشية اللّه ، ومن خشي فقد علم

من يخشى . ثمّ إنّ اللّه جعل هذه الأحجار محلًّا لإظهار المياه التي هي أصل حياة كل حي في العالم الطبيعي ، وهي معادن الحياة وبالعلم يحيا الإنسان الميت بالجهل ، فجمعت الأحجار بالخشية وتفجر الأنهار ، بين العلم والحياة ، قال –تعالى–: ﴿وإن منها لما يتفجر منه الأنهار﴾، مع اتصافها بالقساوة ، وذلك لقوتها في مقام العبودية ، فلا تتزلزل عن ذاتها ، لأنّها لا تحب مفارقة موطنها ، لما لها فيه من

من كتاب إيجاز البيان في الترجمة عن القرآن:

من كان قبلكم كثرة سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم) ، ولذلك جرى لهؤلاء لما كثر سؤالهم مضى « 1 » فيها من أموالهم كثير على ما حكي ، وأما قوله« وَإِذْ قَتَلْتُمْ »وما قتله إلا واحد ، فهو راجع إلى قول بعضهم لبعض : أنتم قتلتم هذا القتيل ، وتدافعهم في ذلك ، فكأنه يقول : وإذ يقول بعضكم لبعض قتلتم نفسا فادار أتم فيها ، وأما قوله« اضْرِبُوهُ بِبَعْضِها »لما كان الضرب يتضمن صفة القهر لذلك جاء به ، إذ إخراج الشيء من العدم إلى الوجود لا يكون إلا من قاهر ، كما جاء في قوله(اضْرِبْ بِعَصاكَ الْبَحْرَ فَانْفَلَقَ)(اضْرِبْ بِعَصاكَ الْحَجَرَ فَانْفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتا عَشْرَةَ عَيْناً)ومن هذا الباب قوله تعالى(أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ)فقرن الإيجاد بالأمر ، إذ في ضمن مخالفته الوعيد ، وهو من صفة القاهر ، ثم أخبر تعالى أنهم بعد ما عاينوا ذلك قست قلوبهم ، فقال تعالى (75)« ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذلِكَ »أي من بعد ما رأيتم الآيات ، فما وقع ما ترجاه موسى منكم من عقلها والثبات عليها« فَهِيَ »يعني قلوبكم« كَالْحِجارَةِ »في الصلابة والشدة ، أو

---

(1)ضاع

ص 148

العلم والحياة اللتين هما أشرف الصفات.

]في (قست قلوبكم[(

أمّا وصفه تعالى لقلوب من كفر من بني إسرائيل بقوله :﴿أَشَدُّ قَسْوَةً﴾، فإنّ الحجر لا يقدر أن يمتنع عن تأثيرك فيه ، والقلب يمتنع عن أثرك فيه بلا شك ، فإنه لا سلطان لك عليه ، فلهذا كان القلب أشد قسوة أي أعظم امتناعا وأحمى ، وإن أحسنت في ظاهره ، فلا يلزم أن يلين قلبه إليك فذلك إليه ، فالصعب قلوب أشد قساوة من الحجارة ، فإن الحجارة تكسرها وتكلسها النار ولا تلينها . وأما قوله –تعالى–: ﴿وَإِنَّ مِنْها﴾، يعني من الحجارة ﴿لَما يَهْبِطُ﴾ الهبوط سقوط بسرعة عن غير اختيار ﴿مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾، فوصفها بالخشية.

وهذه الآية تدل على أن اللّه أخذ بأكثر أبصار جنس الإنس والجان عن إدراك النفوس المدبرة الناطقة التي تسمى جمادا ونباتا وحيوانا ، وكشف لبعض الناس عن ذلك ، فإن الخشية المنعوت بها الأحجار هي التي أدتها إلى الهبوط ، وهو التواضع من الرفعة التي أعطاها اللّه ، فإنّه لما وصفها بالهبوط علمنا أن الأحجار التي في الجبال يريد ، والجبال والأوتاد التي سكن اللّه بها ميد الأرض.

فلمّا جعلها أوتادا أورثها ذلك فخرا لعلو منصبها ، فنزلت هذه الأحجار هابطة من خشية اللّه لما سمعت اللّه يقول: ﴿تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُها لِلَّذِينَ لا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلا فَساداً وَالْعاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾، والإرادة من صفات القلوب ، فنزلت من علوها ، وإن كان بربها ، هابطة من خشية اللّه حذرا أن لا يكون لها حظ في الدار الآخرة التي تنتقل إليها ، وأعني بالدّار الآخرة هنا دار سعادتها ، فإن في الآخرة منزل شقاوة ومنزل سعادة ﴿وَمَا اللَّهُ بِغافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾، فإنّ اللّه ليس بغافل فإنه معنا في جميع المحافل.

تفسير من باب الإشارة: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذلِكَ فَهِيَ كَالْحِجارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً﴾، والقسوة هو ما ينبغي أن تتطهر منها القلوب من النجاسات كانت ما كانت ، فإن منها المأخوذ بها والمعفو عنها ﴿وَإِنَّ مِنَ الْحِجارَةِ لَما يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهارُ﴾، وهي من القلوب العلوم الغزيرة الواسعة ، وتفجرها خروجها على ألسنة العلماء للتعليم في الفنون المختلفة « وإن من الحجارة لما يشقق فيخرج منه الماء » ، وهي القلوب التي تغلب عليها الأحوال فتخرج في الظاهر على ألسنة أصحابها بقدر ما يشقق منها وبقدر العلم الذي فيها ، فينتفع

بها النّاس ،

من كتاب إيجاز البيان في الترجمة عن القرآن:
أَشَدُّ قَسْوَةً »يقول أقوى في الصلابة من الحجارة ، قال تعالى(لَوْ أَنْزَلْنا هذَا الْقُرْآنَ عَلى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خاشِعاً مُتَصَدِّعاً مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ)وذلك لمعرفته بقدر ما أنزل عليه ، وما زالت بنو إسرائيل

ص 149
وَإِنَّ مِنْها لَما يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ »وهبوط القلوب المشبهة بالحجارة في هبوطها هو نزولها من عزتها إلى عبوديتها ، ونظرها في عجزها وقصورها بالأصالة ، فالخشية من خصائص العلماء باللّه.

سورة البقرة (2) : آية 75
﴿أَفَتَطْمَعُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ ما عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ (75(

هذه الآية تدلّ على أن التوراة ما تغيرت في نفسها ، وإنّما كتابة اليهود إيّاها وتلفظهم بها لحقه التغيير ، فنسب ذلك إلى كلام اللّه، فقال: ﴿ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ ما عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ أنّ كلام اللّه معقول عندهم ، وأبدوا في التّرجمة عنه خلاف ما هو في صدورهم عندهم وفي مصحفهم المنزل عليهم ، فإنّهم ما حرفوا إلا عند نسخهم من الأصل ، وأبقوا

من كتاب إيجاز البيان في الترجمة عن القرآن:

مع كثرة الآيات والنعم تكثر منهم المخالفات وسوء الأدب مع اللّه ، فعقوبة القاتل إخراج مكتومه بإحياء الميت ، وعقوبة قومه على قولهم: ﴿أَ تَتَّخِذُنا هُزُواً﴾ لمثل موسى –عليه السّلام– ما ابتلوا به من السّؤال عن البقرة حتّى رزءوا في أموالهم بما وزنوه من ثمنها.
وأمّا قوله: ﴿وَإِنَّ مِنَ الْحِجارَةِ لَما يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهارُ وَإِنَّ مِنْها لَما يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْماءُ وَإِنَّ مِنْها لَما يَهْبِطُ﴾ وكلّ ما يقع منها ممّا ذكره: ﴿مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾، أي من رجائهم وخوفهم ، لأنّ الخشية تتضمن الرجاء والخوف ، فأما وصفها بتفجير الأنهار فهو كثرة بكائها ، والماء الخارج من التشقق للبكاء الذي لم يبلغ في الكثرة مبلغ الأنهار ، ومنها بكاء فرح وبكاء حزن ، فبكاء الحزن من خوف التفريط فيما كلفته من التّسبيح ، كالمياه الكبريتية الحارة المالحة ، وبكاء الفرح والسّرور بما وفقت له من ذكر اللّه كالمياه الباردة العذبة ، وما بينهما من أصناف المياه كما بينهن من الأحوال في امتزاجاتها ، من خلط الحزن بالسّرور والفرح على حسب ما يغلب عليها ، والمياه شبيه الدموع ، وذكر ما هبط منها في مقابلة ما تكبروا به على أمر اللّه ، ثمّ هددهم وأوعدهم مجملًا، فقال: ﴿وَمَا اللَّهُ بِغافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ بالتّاء والياء على الغيبة والحضور ، فالحضور له –سبحانه– ، والغيبة خطاب لموسى ولمَن عرفهم بذلك ، ثمّ قال لمحمّد –عليه السلام– وأمّته (76) ﴿أَ فَتَطْمَعُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ﴾ الآية ، هذه مسئلة مشكلة وليس لها مخرج إلّا ما رُوي عن عيسى –عليه السّلام– لمّا لقيه إبليس، وكان غرضه أن يطيعه، ولو في الدّلالة على الخير ، فقال له (يا عيسى قل لا إله إلا اللّه) فقال عيسى عليه السلام (أقولها لا لقولك لا إله

ص 150

الأصل على ما هو عليه ليبقى لهم العلم ولعلمائهم ، فما هو عند علمائهم محرف ، وهم يحرفونه لأتباعهم فأضلّهم اللّه على علم ، فالتوراة مع اختصاصها بأنّ اللّه كتبها بيده لم يحفظها من التّبديل والتحريف الذي حرفه اليهود . وحفظ كلام اللّه ، وعصمته إنما يعصم لأنه حكم ، والحكم معصوم ومحله العلماء به ، وتولّى اللّه فينا حفظ ذكره واستحفظ كتابه غير هذه الأمة فحرفوه وهم يعلمون بمخالفتهم (راجع المائدة – 14. (

من كتاب إيجاز البيان في الترجمة عن القرآن:

إلا اللّه) وهؤلاء المنافقون قد قالوا آمنا بألسنتهم، وهم يعلمون أنّه رسول اللّه حقًّا ، لا يشكون فيه كما لا يشكون في أبنائهم ، وهم مصدقون بقلوبهم، لأنّهم لا ينكرون علمهم ، وأقرّوا بألسنتهم للمؤمنين إذا لقوهم ، فلم يبق سلب الإيمان عنهم إلا كونهم لم يقولوا : لا إله إلا اللّه محمد رسول اللّه ، لقوله –صلّى اللّه عليه وسلّم– ، قال –تعالى–: ﴿إِذا جاءَكَ الْمُنافِقُونَ قالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنافِقِينَ لَكاذِبُونَ﴾ لا في قولهم ، فإنّهم قالوا حقًّا ، ولا في بواطنهم ، فإنّهم عالمون أنّه رسول اللّه من كتابهم ، فلم يبق تكذيب اللّه لهم إلّا أنهم أظهروا أنهم قالوها لقوله –صلّى اللّه عليه وسلّم– ، ولم يكن كذلك ، فهذا معنى قوله لنبيّه –عليه السّلام– وأصحابه: ﴿أَ فَتَطْمَعُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ﴾، فيكون سرّهم وعلانيّتهم أن قالوها لقولك سواء ، هذا لا يكون منهم ، بل يجرون على ما كان عليه بعض أسلافهم ، وهو قوله: ﴿وَقَدْ كانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ﴾، فيحتمل إضافة سماع الكلام لهم وجهان ، الواحد أن يكون سماعهم من تلاوة موسى عليهم كتابهم ، مثل قوله –تعالى–: ﴿فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلامَ اللَّهِ﴾؛ ويحتمل أنّهم سمعوا كلام اللّه كما سمعه موسى حين كلمه ربّه على الطور وقد ذكر ذلك ، ووقع الإشكال من قوله: ﴿ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ ما عَقَلُوهُ﴾ ما ضبطوه ، فلو لم يذكر التّحريف كان يتقوى أنهم سمعوا كلام اللّه حين كلم موسى ، وكان يتعين أنهم السبعون الذين اختارهم ، وقوله: ﴿ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ﴾ يغيّرونه إمّا بحذف بعض الكلام ليزول المعنى ، مثل قولهم

]ومن يبتغ الإسلام دينا[

فأزالوا غير ، وإما أن يزيدوا فيه كلاما حتى يتغير المعنى إلى ما يريدونه ، وقوله: ﴿وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ يحتمل أن يكون الضمير يعود على قوم موسى أنّهم عالمون بما حرفوا ، ويحتمل أن يعود على يهود المدينة ﴿وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ أنّك رسول اللّه وأنّك على الحقّ ، كما علم أسلافهم وغيّروا ، كذلك هؤلاء إذا فارقوكم يظهرون لإخوانهم أنّهم بخلاف ما ظهروا لكم به من الإقرار والانقياد ، ثمّ قال –تعالى–: (77) ﴿وَإِذا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ كان

المنافقون إذا لقوا الذين آمنوا ﴿قالُوا آمَنَّا﴾، أي صدقنا ﴿وَإِذا خَلا بَعْضُهُمْ إِلى بَعْض﴾ كان المسلم إذا خلا بأحد من ذوي رحمه من المنافقين يقول له المسلم : إنّ رسول

ص 151

سورة البقرة (2) : الآيات 76 إلى 79
﴿وَإِذا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قالُوا آمَنَّا وَإِذا خَلا بَعْضُهُمْ إِلى بَعْضٍ قالُوا أَ تُحَدِّثُونَهُمْ بِما فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُمْ بِهِ عِنْدَ رَبِّكُمْ أَ فَلا تَعْقِلُونَ (76) أَ وَلا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ ما يُسِرُّونَ وَما يُعْلِنُونَ (77) وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لا يَعْلَمُونَ الْكِتابَ إِلاَّ أَمانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلاَّ يَظُنُّونَ (78) فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هذا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَناً قَلِيلاً فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ﴾ (79 (

﴿ثُمَّ يَقُولُونَ هذا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾، وهو ما توسوس به نفوسهم ، وما تسول لهم شياطينهم ، ﴿لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَناً قَلِيلًا﴾ من الجاه والرّئاسة عليهم ، وما يحصلوه من المال.

من كتاب إيجاز البيان في الترجمة عن القرآن:

اللّه يقول إن اللّه قد ذكر لكم في كتابكم نعته ، فيقول له المنافق : نعم إنه لكما قال وإنه لنبي حق ، فإذا بلغ ذلك إلى رؤسائهم مثل حيي بن أخطب ، وكعب بن الأشرف ، وغيرهم ، يعظم ذلك عليهم ، فإذا خلوا مع هؤلاء الذين تحدثوا مع المسلمين أن اللّه قد أخبر في التوراة بصدقه ، وأنه نبي ، يقولون لهم: ﴿قالُوا أَ تُحَدِّثُونَهُمْ بِما فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ﴾ يعني من العلم به ويروا أن الشّرف في العلم ﴿لِيُحَاجُّوكُمْ بِهِ عِنْدَ رَبِّكُمْ﴾ ليحتجوا بكتابكم عليكم بإقراركم ، أي عند ذكركم أنه في كتاب ربكم ، ويحتمل أن يريدوا بذلك يوم القيامة ، قال –تعالى–: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ عِنْدَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ﴾، وهو الأوجه ، يقول: ﴿أَ فَلا تَعْقِلُونَ﴾ إنكار ، أي ليس لكم عقول تعرفون بها هذا القدر أنه حجّة عليكم ، فأخبر اللّه نبيه بجهلهم باللّه –تعالى– فقال: (78) ﴿أَ وَلا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ ما يُسِرُّونَ﴾

بعضهم لبعض فيخبرك به ﴿وَما يُعْلِنُونَ﴾، وما يظهرون به عندكم ، ممّا يكذبون فيه أنّهم مصدّقون لقولك ، ثمّ قال –تعالى–: (79) ﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ﴾ الأمّي هو الذي لا يكتب ولا يقرأ المكتوب ولا يحسب ﴿لا يَعْلَمُونَ الْكِتابَ﴾، فيعلمهم علماؤهم وأحبارهم بما يشتهون ، ولا يخبرونهم بما أنزل فيها من الحق في نعت محمد –صلّى اللّه عليه وسلّم– ، فيقلدونهم في ذلك ، وقوله: ﴿إِلَّا أَمانِيَّ﴾ إلّا أن لهم قدرة على الاختلاق وتنظيم الكلام لمن لا يفهم حتّى يعتقد أنّه حقّ ، يُقال منّى إذا قدر

ص 152

سورة البقرة (2) : الآيات 80 إلى 81

﴿وَقالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلاَّ أَيَّاماً مَعْدُودَةً قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِنْدَ اللَّهِ عَهْداً فَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ ما لا تَعْلَمُونَ (80) بَلى مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُولئِكَ أَصْحابُ النَّارِ هُمْ فِيها خالِدُونَ﴾ (81(

فهم الذين تمسّهم النّار، فإنّه ما كلّ مَن دخل النّار تمسّه ، فإنّ ملائكة العذاب في النّار، وهي دارهم وما تمسّهم النّار.

من كتاب إيجاز البيان في الترجمة عن القرآن:

"وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ »فذمهم لأنهم متمكنون أن يتعلموا الكتاب حتى يكونوا مثل الذين يعلمون الكتاب، فلا يقلّدونهم ، و﴿إِلَّا أَمانِيَّ﴾ استثناء منقطع ، وقد يكون عندي استثناء متّصل ، وإن كانوا لا يعلمون إلّا أنّهم قادرون على الاختلاق ، ثمّ قال (80) ﴿فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتابَ بِأَيْدِيهِمْ﴾ أخبر أنّ لهم الويل يوم القيامة والنّشور بما كتبت أيديهم من تغيير نعت محمّد –صلّى اللّه عليه وسلّم– وأمّته من التّوراة ، وقولهم لمَن لم يعرف منهم أنّ هذا الذي نزل من عند اللّه ، وهو قوله: ﴿ثُمَّ يَقُولُونَ هذا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ، لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَناً قَلِيلًا﴾ من متاع الدّنيا ، أو يكون الثّمن رياستهم وافتقار النّاس إليهم فيما يشرّعون

لهم ﴿فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ من أجل ذلك ﴿وَوَيْلٌ لَهُمْ﴾ زائد على ذلك ﴿مِمَّا يَكْسِبُونَ﴾، أي ممّا حصل لهم من ذلك من المال والرّئاسة (81) ﴿وَقالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّاماً مَعْدُودَةً﴾ يقولون وإن دخلنا النار على زعمكم ، فإنّ اللّه عادل لا يعذّبنا في النّار إلّا أيّام كفرنا وبعد ذلك نخرج ، وصدقوا فيما قالوه من الأيام المعدودة ، وكذبوا في انقضاء ذلك.

وذلك أنّ اللّه لا يعذبهم إلّا على قدر كفرهم بالّنوع الذي وعد على كل سيئة من العذاب الخاص بتلك السيئة ، فإذا انتهى الزّمان الذي كان قدر ما كفروا فيه رجع عوده على بدئه ، فلا يزال يدور عليهم عودا على بدء إلى غير نهاية ، كما تدور أيام الجمعة وكما تدور فصول السنة وإن كانت محصورة فدورانها ليس بمحصور ، إلا أن يشاء اللّه ذلك كما شاء بانقضاء الدنيا ، ولأنه ما مر عليهم يوم من أيام الجمعة إلا والكفر والنفاق يستصحبهم فيه ، فتتعاقب الأيام السبعة عليهم دائما بما عملوه ، ألا ترى في الخبر الوارد أنّ أبا لهب عم النّبيّ –عليه السّلام– يخفف عنه العذاب ليلة الاثنين لوليدة أعتقها فرحا بمولد النّبيّ – عليه السّلام–، فجوزي بذلك في اليوم الذي أوقع فيه هذا الخير ، فإن أنكر منكر وجود الأيام في الدّار الآخرة فاللّه يقول: ﴿لَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيها بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾ إلى غير ذلك من الأخبار.

ثمّ نرجع ونقول والسبب الموجب لذلك هو ما نذكره ، وذلك أنّ الجنّة والنّار تتضمّن

سورة البقرة (2) : آية 82

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ أُولئِكَ أَصْحابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيها خالِدُونَ﴾ (82(

الجنّة دار بقاء السّعادة والنّظر ، وهي السّاترة لأهلها عن كلّ مكروه يكون في الدّار التي تقابلها ، وما يعطيه سلطان أسماء الانتقام.

من كتاب إيجاز البيان في الترجمة عن القرآن:

ثلاثة أحوال : دخولا ، ونزولا فيها على طبقات مخصوصة ، وخلودا بلا خروج ، فأمّا الدّخول فيها فبرحمة اللّه.

قال –عليه السّلام–

]لا يدخل الجنة أحد بعمل ، قيل له : ولا أنت ؟ قال ولا أنا إلا أن يتغمدني اللّه برحمته [

فإن الدخول حالة متوهّمة ، وذلك كالخط الفاصل بين الظل والشّمس الذي ليس من الظلّ ولا من الشمس وهو متوهم فهو حال الدخول ، فإنّه إن كنت في أوّل الشّمس الملاصق للظل فقد دخلت وأنت في الشمس ، وإن كنت في الظل الذي في الحد المجاور للشمس فما دخلت ، فلما لم يكن لهذا الفاصل المتوهم وجود حسي لم يقترن به عمل يوجبه إلا رحمة اللّه ، فإذا دخل السعيد أو الشقي داره نزل فيها بحسب عمله في الدّرجات والدركات زمانا وحالًا.

وأمّا الخلود فموجبه النيّات ، وهو أنّ كلّ فريق منهم كان في نيته لو بقي في الدنيا أبد الآبدين لا يخرج منها لبقي على اعتقاده ذلك ، كفرا كان أو إيمانا ، فكان الخلود في مقابلة هذا الاستمرار ، فصدقوا في قولهم« أَيَّاماً مَعْدُودَةً »وغاب عنهم أن ذلك يدور عليهم دائما.

وهذا في أهل النّار الذين هم أهلها ، وأمّا الرحمة في دخول النار فهي بالنار وما فيها من الحيوانات المعدة للعذاب ، فرحمها اللّه بما جعل فيها من الإنس والجن ، فتأكل جلودهم وتعذبهم ، فإنّها تتنعم بالانتقام من أعداء اللّه ، مثل التشفي ، وقد صح عندنا هنا أنها اشتكت إلى ربها فقالت : يا رب أكل بعضي بعضا ، فرحمها بأن أذن لها بنفسين ، نفس في الشتاء وهو ما نجده من شدة البرد ، ونفس في الصيف وهو ما نجده من شدة الحر ، وإن شئنا قلنا إنهم يدخلونها بعدل اللّه ، فقال اللّه حين قالوا: ﴿لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّاماً مَعْدُودَةً﴾ ﴿قُلْ﴾ لهم يا محمد ﴿قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِنْدَ اللَّهِ عَهْداً﴾ أنزله عليكم في الكتاب ففعلتم به.

فإن كان هذا، ﴿فَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُ﴾، ففي الكلام حذف ﴿أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ ما لا تَعْلَمُونَ﴾ يقول : أم تفترون على اللّه الكذب ، أمّا حرف ﴿أَمْ﴾ هنا قد يكون بمعنى أي ، وقد يكون منقطعًا ، ثمّ قال: (82) ﴿بَلى مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً﴾ جواب قولهم: ﴿لَنْ تَمَسَّنَا

النَّارُ إِلَّا أَيَّاماً مَعْدُودَةً﴾ ﴿بَلى﴾ تمسّكم دائمًا يفسره قوله: ﴿مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ﴾ على الجمع والإفراد وإذا أحاطت به فلم يكن له عمل صالح شرعًا وعرفًا يخرجه من النار ، فإنه لو تخلل هذا أمر ما صالح ما كان محيطا ، وهؤلاء أهل النار الذين هم أهلها لا يموتون فيها ولا يحيون ، فهم شرّ محض ليس فيهم من الخير المشروع ولا المعروف شيء ، إمّا بأنّهم جوّزوا على ذاك في الدّنيا ،

ص 154

سورة البقرة (2) : آية 83
﴿وَإِذْ أَخَذْنا مِيثاقَ بَنِي إِسْرائِيلَ لا تَعْبُدُونَ إِلاَّ اللَّهَ وَبِالْوالِدَيْنِ إِحْساناً وَذِي الْقُرْبى وَالْيَتامى وَالْمَساكِينِ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْناً وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكاةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلاَّ قَلِيلاً مِنْكُمْ وَأَنْتُمْ مُعْرِضُونَ﴾ (83(

الزّكاة : ربو من زكا يزكو إذا ربا، والزكاة طهارة بعض الأموال.

من كتاب إيجاز البيان في الترجمة عن القرآن:

وإمّا لم يعملوه ، فهذا معنى: ﴿وَأَحاطَتْ بِهِ﴾ ﴿فَأُولئِكَ أَصْحابُ النَّارِ هُمْ فِيها خالِدُونَ﴾، وأصحاب النار هم أهلها الذين خلقوا لها ، وأما الدوام فيها إلى ما لا يتناهى فلا يقبل موحدا ، أخرج مسلم في *الصّحيح* من رواية عثمان ، قال قال رسول اللّه –صلّى اللّه عليه وسلم–: [مَن مات، وهو يعلم أنّه لا إله إلّا اللّه، دخل الجنّة، ولو دخل النّار].
وهذا خبر ، والخبر الإلهي لا يدخله النّسخ ، ويخرج اللّه يوم القيامة مَن لم يعمل خيرا قط ، والتّوحيد ليس بعمل وإنما العمل طلب تحصيله ، فهؤلاء الذين أخرجهم اللّه حصل لهم نور من عنده –سبحانه– من غير عمل ولا تعمل ، ولكن عملوا أعمالا استوجبوا بها العقاب ما شاء اللّه ، ثمّ أخرجهم سبحانه بالعناية التي سبقت لهم.

ثمّ قال في مقابلة هؤلاء في أهل الجنة الذين هم أهلها (83) ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾ باللّه، وما أنزله من الكتب والرّسل ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ﴾ في مقابلة (وأحاطت به خطيئاته) فإن الأعمال الصّالحة هي التي لا يدخلها خلل يزيل عنها اسم الصّلاح ، قال: ﴿أُولئِكَ أَصْحابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيها خالِدُونَ﴾، فخصهم بالذّكر دون من يدخل الجنة بالشّفاعة وبعد العذاب ، تهمّما بهم واعتناء ، وإن كان الخلود في الجنّة يشمل العاصي والطّائع.

ثمّ قال: (84) ﴿وَإِذْ أَخَذْنا مِيثاقَ بَنِي إِسْرائِيلَ﴾ جميع ما يأتي هو شرح الميثاق الذي أخذه عليهم ، فهو إخبار بما عهد إليهم وتعليم لنا ، فقوله: ﴿لا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ﴾، أي لا تقروا بالوحدانيّة في الألوهيّة ولا تتقرّبوا بالعبادات إلا اللّه ، وقرئ بالتاء والياء على الإخبار وعلى حكاية الخطاب الذي قال لهم ، ومن ذلك قوله: ﴿وَبِالْوالِدَيْنِ إِحْساناً﴾، أي برًّا بهما عامًّا ، وهو حجّتنا على من يلزمنا الوقوف عند التأفيف لهما من التّنبيه بالأدنى على الأعلى في تأويلهم ، وأنّ ما عدا التّأفيف يجوز أن نعاملهما به ، فنلتزم لهم ذلك ونجعل حجتنا: ﴿وَبِالْوالِدَيْنِ إِحْساناً﴾ وما عدا التّأفيف من قبيح الأفعال وممّا يؤدي إلى العقوق يدخل في الإحسان اجتنابه ، وقوله: ﴿وَذِي الْقُرْبى﴾ يريد صلة الرحم ، وقوله: ﴿وَالْيَتامى﴾ يخاطب الأوصياء بحفظ أموالهم ، وغير الأوصياء بالشّفقة عليهم وجبر انكسارهم ليتمهم ، وقوله: ﴿وَالْمَساكِينِ﴾، وهم الذين أذلّهم.

ص 155

سورة البقرة (2) : الآيات 84 إلى 85

﴿وَإِذْ أَخَذْنا مِيثاقَكُمْ لا تَسْفِكُونَ دِماءَكُمْ وَلا تُخْرِجُونَ أَنْفُسَكُمْ مِنْ دِيارِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ (84) ثُمَّ أَنْتُمْ هؤُلاءِ تَقْتُلُونَ أَنْفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقاً مِنْكُمْ مِنْ دِيارِهِمْ تَظاهَرُونَ عَلَيْهِمْ بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوانِ وَإِنْ يَأْتُوكُمْ أُسارى تُفادُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْراجُهُمْ أَ فَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَما جَزاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذلِكَ مِنْكُمْ إِلاَّ خِزْيٌ فِي الْحَياةِ الدُّنْيا وَيَوْمَ الْقِيامَةِ يُرَدُّونَ إِلى أَشَدِّ الْعَذابِ وَمَا اللَّهُ بِغافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ (85(

يوم القيامة هو يوم قيام الناس من قبورهم لرب العالمين لفصل القضاء.

من كتاب إيجاز البيان في الترجمة عن القرآن:

الفقر ، فيتصدّق عليهم برؤية المنّة لهم علينا في قبولهم منّا ما نواسيهم به ، وأن نعرّفهم أنا مستخلفون من اللّه فيما بأيدينا ، فهو رزقكم ، ونحن أمناء اللّه عليه ، حتّى يأخذه المسكين بعزة ولا يظهر عليه ذلّة الحاجة لما في أيدينا ، وقوله: ﴿وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْناً﴾، أي ألقوهم بالبشاشة وطلاقة الوجه والقول الحسن ، قال –تعالى–: ﴿لا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِنْ نَجْواهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلاحٍ بَيْنَ النَّاسِ﴾، وقوله أيضا: ﴿وَقُلْ لَهُما قَوْلًا كَرِيماً﴾.

هذا كلّه من القول الحسن المأمور به ، ثمّ قال: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكاةَ﴾ قد تقدّم الكلام على ذلك فيما مضى ﴿ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ﴾ عن كلّ ما أخذنا عليكم الميثاق فيه ﴿إِلَّا قَلِيلًا مِنْكُمْ وَأَنْتُمْ مُعْرِضُونَ﴾ عن ذلك ، لأنّه قد يكون توليهم عند فراغ الخطاب تولّي مفارقة إلى منازلهم ليعملوا بما كلفوا ، فأخبر –تعالى– أنّ تولّيهم كان إعراضًا عن الحقّ ، واستثنى قليلًا منهم ، وهو مَن أسلم وانقاد إلى الحقّ وعمل به ، كعبد اللّه بن سلام وابن أخته قيس بن زيد وغيرهما.

وهذا يرجّح مَن قرأ بالتّاء المنقوطة من فوق من ﴿لا تَعْبُدُونَ﴾.

وقد يحتمل أن يكون ضمير المخاطب في ﴿تَوَلَّيْتُمْ﴾ و﴿أَنْتُمْ﴾ يهود المدينة ، أي توليتم عند إخبارنا إياكم ما أخذناه على أسلافكم أن يكونوا عليه وذريتهم وأعقابهم ، إلى أن جاء زمانكم فتوجّه إليكم الخطاب بما تتضمنه توراتكم من ذلك وغيره ، من الإيمان بمحمد واتباعه من نفس كتابكم ، فتوليتم وأنتم معرضون إلّا قليلًا منكم ، ثمّ قال: (85)﴿وَإِذْ أَخَذْنا مِيثاقَكُمْ﴾ يقول مخاطبا يهود المدينة ، وقد

ص 156

سورة البقرة (2) : آية 86

﴿أُولئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الْحَياةَ الدُّنْيا بِالْآخِرَةِ فَلا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذابُ وَلا هُمْ يُنْصَرُونَ﴾ (86)

لولا نحن ما قيل : دنيا ولا آخرة ، وإنّما كان يقال ممكنات وجدت وتوجد كما هو الأمر ، فلما عمرنا نحن من الممكنات المخلوقة أماكن معيّنة إلى أجل مسمى من حين ظهرت أعياننا ، ونحن صور من صور العالم ، سمّينا ذلك الموطن الدّار الدّنيا ، أي الدّار القريبة التي عمرناها في أوّل وجودنا لأعياننا ، وقد كان العالم ولم نكن نحن ، مع أن اللّه – تعالى– جعل لنا في عمارة

من كتاب إيجاز البيان في الترجمة عن القرآن:

أخذنا ميثاقكم على ما وجدتموه في التّوراة وتقرّونه بينكم ﴿لا تَسْفِكُونَ دِماءَكُمْ﴾، أي لا تقتلوا أنفسكم ، ولا يقتل بعضكم بعضا ، يقول اللّه فيمن قتل نفسه

]بادرني عبدي بنفسه حرمت عليه الجنة[

﴿وَلا تُخْرِجُونَ أَنْفُسَكُمْ مِنْ دِيارِكُمْ »أي لا يخرج بعضكم بعضا من منزله تعديا عليه« ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ﴾ بأن ما ذكرناه حقّ ﴿وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ﴾ أنّه في كتابكم كما أخبركم به محمّد –عليه السّلام– ، وهو أمّي لا يقرأ كتابكم ، فتعلمون أنّه نبي أرسلناه من عندنا ، فكفرتم ببعض ما أنزل إليكم في كتابكم ، وهو قوله: (86) ﴿ثُمَّ أَنْتُمْ هؤُلاءِ تَقْتُلُونَ أَنْفُسَكُمْ﴾ يقول يقتل بعضكم بعضا ﴿وَتُخْرِجُونَ فَرِيقاً مِنْكُمْ مِنْ دِيارِهِمْ تَظاهَرُونَ عَلَيْهِمْ بِالْإِثْمِ﴾، أي تتعاونون عليهم بما تأثمون بفعله ﴿وَالْعُدْوانِ﴾ من التعدي لحدود اللّه ﴿وَإِنْ يَأْتُوكُمْ أُسارى تُفادُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْراجُهُمْ﴾ من ديارهم ، فهذا مما كفرتم به فغيرتم الصفة التي أقررتم ، بما فعلتم من القتل والإخراج ، فغير اللّه بكم بما نذكره في الخزي الذي نالهم في الحياة الدنيا ، قال –تعالى–: ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ ما بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا ما بِأَنْفُسِهِمْ﴾ وكتبنا عليكم في التّوراة أن تفدوا من أسر منكم ، وهو قوله: ﴿وَإِنْ يَأْتُوكُمْ أُسارى تُفادُوهُمْ﴾.

فهذا مما أنتم به من التوراة مؤمنون ، يقول اللّه لهم: ﴿أَ فَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ﴾، وهو قوله أيضًا في سورة النّساء: ﴿وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ ، وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذلِكَ سَبِيلًا﴾، أي يحدثوا طريقا أخرى من عند أنفسهم ، أولئك هم

الكافرون حقًّا ، فقال –تعالى–: ﴿فَما جَزاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذلِكَ مِنْكُمْ﴾، وهو الإيمان ببعض الكتاب والكفر ببعضه، ﴿إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَياةِ الدُّنْيا﴾، وهو ما كان من قتل بني قريظة وإجلاء بني النّضير ، وما ضرب اللّه عليهم من الذلّة والمسكنة أينما كانوا إلى يوم القيامة، ﴿وَيَوْمَ الْقِيامَةِ يُرَدُّونَ إِلى أَشَدِّ الْعَذابِ﴾، وهو الدّرك الأسفل من النّار الذي أعدّه اللّه للمنافقين ﴿وَمَا اللَّهُ بِغافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾: وعيد وتهديد من اللّه لهم (87) ﴿أُولئِكَ﴾ إشارة إليهم ﴿الَّذِينَ اشْتَرَوُا الْحَياةَ

ص 157

الدّنيا آجالا ننتهي إليها ، ثمّ ننتقل إلى موطن آخر يسمّى آخرة ، فيها ما في هذه الدّار الدّنيا ، ولكن متميز بالدّار كما هو هنا متميز بالحال ، ولم يجعل لإقامتنا في تلك الدّار الآخرة أجلا تنتهي إليه مدة إقامتنا ، وجعل تلك الدّار محلا للتكوين دائما أبدا إلى غير نهاية ، وبدل الصفة على الدّار الدنيا، فصارت بهذا التبديل آخرة والعين باقية، ﴿فَلا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذابُ﴾ لما قال –تعالى– في حقّ أهل الشّقاء: ﴿إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِما يُرِيدُ﴾ ما قال إنّ الحال التي هم فيها لا تنقطع، كما قال في السّعداء والذي منع من ذلك قوله: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾، وقوله : «إنّ رحمتي سبقت غضبي» في هذه النّشأة. فإنّ الوجود رحمة في حقّ كلّ موجود ، وإن تعذّب بعضهم ببعض ، فتخليدهم في حال النّعيم غير منقطع ، وتخليدهم في حال الانتقام موقوف على الإرادة ، فقد يعود الانتقام منهم عذابًا عليهم لا غير ويزول الانتقام. ولهذا فسّره في مواضع بالألم المؤلم وقال: ﴿عَذابٌ أَلِيمٌ﴾ و﴿الْعَذابَ الْأَلِيمَ﴾ *وفي مواضع لم يقيّد العذاب بالأليم وأطلقه، فقال: ﴿فَلا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذابُ﴾، يعني: وإن زال الألم، وقال: ﴿فِي عَذابِ جَهَنَّمَ﴾، ولم ينعته بأنّه أليم.

سورة البقرة (2) : آية 87

﴿وَلَقَدْ آتَيْنا مُوسَى الْكِتابَ وَقَفَّيْنا مِنْ بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ وَآتَيْنا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّناتِ وَأَيَّدْناهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ أَ فَكُلَّما جاءَكُمْ رَسُولٌ بِما لا تَهْوى أَنْفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقاً كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقاً تَقْتُلُونَ﴾ (87)

﴿وَأَيَّدْناهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ﴾، أي قويناه فإن الخوف مما تطلبه حكم الطبيعة في هذه النّشأة ، فإنّ لها خورًا عظيمًا لكونها ليس بينها وبين الأرواح التي لها القوّة والسّلطان عليها واسطة

من كتاب إيجاز البيان في الترجمة عن القرآن:

الدُّنْيا بِالْآخِرَةِ﴾، يعني: ما عصموا به دماءهم وأموالهم من كلمتي الشّهادة، فكانوا في الدّنيا معافين، والكفار بالجزية ، فاشتروا عافية الدّنيا وتركوا عافية الآخرة ، وقد تقدم معنى ذلك في تفسير: ﴿اشْتَرَوُا الضَّلالَةَ بِالْهُدى﴾ في أوّل السّورة ، قال: ﴿فَلا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذابُ »، إذ لم يعملوا ما يوجب لهم التّخفيف عنهم من ذلك ﴿وَلا هُمْ يُنْصَرُونَ﴾، ولا لهم ناصر ينصرهم. ثمّ قال (88): ﴿وَلَقَدْ آتَيْنا مُوسَى الْكِتابَ﴾، يعني: التّوراة، ﴿وَقَفَّيْنا مِنْ بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ﴾ يقول: بعد موت موسى

ص 158

ولا حجاب ، فلازمها الخوف ملازمة الظلّ للشّخص ، فلا يتقوّى صاحب الطّبيعة إلّا إذا كان مؤيدا بالروح ، فلا يؤثر فيه خور الطبيعة ، فإن الأكثر فيه أجزاء الطّبيعة ، وروحانيّته التي هي نفسه المدبّرة له موجودة أيضًا عن الطّبيعة، فهي أمّها ، وإن كان أبوها روحا ، فللأم أثر في الابن فإنّه في رحمها تكوّن ، وبما عندها تغذى ، فلا تتقوّى النّفس بأبيها إلّا إذا أيدها اللّه بروح قدسي ينظر إليها ، فحينئذ تقوى على حكم الطّبيعة، فلا تؤثّر فيها التّأثير الكلّي، وإن بقي فيه أثر ، فإنّه لا يمكن زواله بالكلّيّة.

ولمّا كان عيسى –عليه السّلام– روحًا، كما سمّاه اللّه، أنشأه روحًا في صورة إنسان ثابتة ، فكان يحيي الموتى بمجرد النّفخ. ثمّ إنّه أيّده بروح القدس، فهو روح مؤيّد بروح طاهرة من

دنس الأكوان.

سورة البقرة (2) : آية 88
﴿وَقالُوا قُلُوبُنا غُلْفٌ بَلْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلاً ما يُؤْمِنُونَ﴾ (88(

من كتاب إيجاز البيان في الترجمة عن القرآن:

أرسلنا رسلا تترى، يُقال: "قفاه" إذا اتّبعه من قفاه، كما يقال: "واجهه" إذا جاءه من جهة وجهه، فإنّه جاء بغده يوشع وشمويل وشعيا وأورميا وداود وغيرهم ، وكلما جاء أمة رسولها كذبوه إلى أن جاء عيسى ابن مريم ﴿وَآتَيْنا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّناتِ﴾، وهو أيشوع بالسّريانيّة ، والمريم من النّساء كالزّير من الرّجال ، فأعطاه اللّه من البيّنات ما جاء ذكره في القرآن: ﴿وَأَيَّدْناهُ﴾ يقول وقوّيناه ﴿بِرُوحِ الْقُدُسِ﴾ فيه وجهان ، الواحد أنّا خلقناه مطهرا من الشّهوة الطّبيعية التي تكون عن النّكاح ، فإنّه لم يكن عن نكاح ، فليس للطبيعة فيه أثر ، فكأنه خلق مؤيدا بأصل نشأته ، فلم يجدوا له قومه ما يثلبونه به ، والوجه الثّاني يعني جبريل –عليه السّلام– ، فجعلناه له ركنا يأوي إليه ويتقوى جأشه به عند منازعة قومه ، فكانت اليهود قد قالت لمحمد عليه السلام : إن من جاء قبلك من الرّسل جاءوا بالبينات ، فأت أنت بمثل ما جاءوا به ، فأنزل اللّه عليه: ﴿أَ فَكُلَّما جاءَكُمْ رَسُولٌ بِما لا تَهْوى أَنْفُسُكُمُ﴾، يعني: أنّ طلبهم البينات كان دفعا لنبوته حتى لا يؤمنوا به ، فإنّه من أعظم البيّنات له كونه مذكورا في كتابهم بنعته واسمه ، وفي الإنجيل ، كما أخبر اللّه –تعالى– أنّهم يعرفونه كما يعرفون أبناءهم ، يقول: ﴿اسْتَكْبَرْتُمْ﴾ عن اتّباع أمثال الرّسل وعن اتّباعي: ﴿فَفَرِيقاً كَذَّبْتُمْ﴾، وما سلّطتم عليهم، ﴿وَفَرِيقاً﴾ أيضًا من الأنبياء ﴿تَقْتُلُونَ﴾ قتلتم كيحيى وزكّريا وغيرهما ، وأردتم قتلي بما جعلتم في ذراع الشّاة من السم ، ولكن عصمني اللّه منكم ، ولكن مع هذا قال –عليه السّلام–: [ما زالت أكلة خيبر تعاودني فهذا أوان قطعت أبهري] لتحصل له الشّهادة التي هي أشرف الموتات.

فلمّا عرفت اليهود أنّ الذي قاله حقّ، ولم تكن لهم حجّة يحتجون بها، (89) ﴿وَقالُوا

ص 159

﴿وَقالُوا قُلُوبُنا غُلْفٌ﴾، أي في غلاف ، وهو الكن الذي ستره عن إدراك الأمر على ما هو عليه.

سورة البقرة (2) : آية 89

﴿وَلَمَّا جاءَهُمْ كِتابٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِما مَعَهُمْ وَكانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جاءَهُمْ ما عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكافِرِينَ﴾ (89(

يعني بذلك: كلّ كافر به في كلّ زمان، حتّى يبقى العموم في الضّمير على أصله، كما قال –تعالى–: ﴿وَلا تَكُونُوا أَوَّلَ كافِرٍ بِهِ﴾ صفة لمحذوف، فيكونون أوّلًا في أهل زمانهم في الكفر به، فقوله –تعالى–: ﴿فَلَمَّا جاءَهُمْ ما عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ﴾، وإن كان له وجود قبل مجيئه إليهم، فيعمّ كلّ من كفر به في كلّ زمان.

من كتاب إيجاز البيان في الترجمة عن القرآن:

قُلُوبُنا غُلْفٌ﴾، قالوا: قلوبنا غلف، أي هي في غلاف ، مثل قولهم: ﴿فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونا إِلَيْهِ﴾.

ففي هذا الكلام رائحة من الرّجوع إلى القضاء والقدر ، أي لو أراد اللّه أن نتبعك لأزال هذا الغلاف عن قلوبنا، فأبصرت نور النّبوّة ، فأضرب اللّه عن قولهم، فقال: ﴿بَلْ﴾ حرف إضراب ﴿لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ﴾ باء السّبب ، فأوقع اللّعنة عليهم، لأنّهم كفروا ، أي ستروا الحقّ الذي يعلمونه من نبوّة محمّد.

ويحتمل أن يكون قولهم: ﴿قُلُوبُنا غُلْفٌ﴾، أي هي نفس الغلاف لما تحوي عليه من العلوم ، فلو كنت نبيا لكان في قلوبنا العلم بك ، فأخبر تعالى أن الكفر في قلوبهم بنبوته فلعنهم

اللّه لذلك ، وصدقهم في قولهم إن قلوبنا غلف ولكن للكفر ﴿فَقَلِيلًا ما يُؤْمِنُونَ﴾، فمنهم المؤمنون وأكثرهم الفاسقون ، ولتكذيبهم أيضا وجه في قولهم: ﴿قُلُوبُنا غُلْفٌ﴾ (وفي أكنة ممّا تدعونا إليه)، فإنّه ممّا يدعوهم إليه الإيمان باللّه، وقد فُطروا عليه ، إذ كلّ مولود يولد على الفطرة ، فبطل أن تكون قلوبهم في غلاف وكن من الإيمان باللّه ، ولهذا جعلنا ذلك الإيمان بنبوّة محمّد –صلّى اللّه عليه وسلم–.

ثمّ قال: (90) ﴿وَلَمَّا جاءَهُمْ كِتابٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾، يعني: القرآن، و﴿مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾ في موضع الصّفة للكتاب ﴿مُصَدِّقٌ لِما مَعَهُمْ﴾، أي لِما في الكتاب الذي معهم، وهو التّوراة والإنجيل، ﴿وَكانُوا مِنْ قَبْلُ﴾ أن يأتيهم محمّد بالقرآن يؤمنون به من كتابهم. وإذا اجتمعوا بالكفّار في قتال، ﴿يَسْتَفْتِحُونَ﴾، أي يستنصرون اللّه، ﴿عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ به ، فيقولون : "اللّهم بحقّ هذا النّبيّ الذي يأتي ووصفته لنا في كتابنا فانصرنا عليهم". وهذا معنى قوله: ﴿وَكانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا﴾. ﴿فَلَمَّا جاءَهُمْ ما عَرَفُوا﴾ الذي كانوا يستنصرون به ، وهو قوله: ﴿إِنْ تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جاءَكُمُ الْفَتْحُ﴾ ﴿كَفَرُوا بِهِ﴾

ص 160

سورة البقرة (2) : الآيات 90 إلى 91

﴿بِئْسَمَا اشْتَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ أَنْ يَكْفُرُوا بِما أَنْزَلَ اللَّهُ بَغْياً أَنْ يُنَزِّلَ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ عَلى مَنْ يَشاءُ مِنْ عِبادِهِ فَباؤُ بِغَضَبٍ عَلى غَضَبٍ وَلِلْكافِرِينَ عَذابٌ مُهِينٌ (90) وَإِذا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا بِما أَنْزَلَ اللَّهُ قالُوا نُؤْمِنُ بِما أُنْزِلَ عَلَيْنا وَيَكْفُرُونَ بِما وَراءَهُ وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقاً لِما مَعَهُمْ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِياءَ اللَّهِ مِنْ قَبْلُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ (91(

اليهود لم يؤمنوا بكل ما أتى به موسى ، ولو آمنوا بكل ما أتى به موسى لآمنوا بمحمّد – صلّى اللّه عليه وسلم– وبكتابه، ﴿قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِياءَ اللَّهِ مِنْ قَبْلُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾. اعلم أنّ اللّه مع الأنبياء بتأييد الدّعوى ، لا بالحفظ والعصمة إلّا إن أخبر بذلك في حقّ نبي معين، فإنّ اللّه قد عرّفنا أنّ الأنبياء قتلتهم أممهم وما عصموا ولا حفظوا.

من كتاب إيجاز البيان في الترجمة عن القرآن:

فكفّروا جواب « لما جاءهم ما عرفوا » وجواب لمّا في ﴿لَمَّا جاءَهُمْ كِتابٌ﴾ محذوف ، تقديره كذّبوا به ، أي بالكتاب ، فجمعوا بين كفرين ، وخصّ الاستفتاح دون الافتتاح، لأنّه بالسّين أبلغ ﴿فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكافِرِينَ﴾ الألف واللام للجنس ، وهو أوْلى من العهد ، ثمّ قال: (91) ﴿بِئْسَمَا اشْتَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ﴾ لما جاء الشّرع ببيع النّفوس في قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ﴾.

وسبب ذلك: هذه الإضافة ، وهي دعوى الملك فيها ، والعالم باللّه لا نفس له، بل كلّه ملك للّه ، فإذا أضافها العالم باللّه إليه في مثل قوله: ﴿تَعْلَمُ ما فِي نَفْسِي﴾، وقوله: ﴿رَبَّنا ظَلَمْنا أَنْفُسَنا﴾، فبتمليك اللّه لا تمليك استحقاق ، فوقع البيع على هذا القدر الذي لحق المؤمن غير العالم من الملك ، فصحّ بيع النّفس لكلّ ذي نفس من المؤمنين من اللّه – تعالى– ، فالمؤمن لا نفس له ، وأمّا غير المؤمن وغير العالم باللّه فنفسه باقية في ملكه في دعواه.

فلهذا صح لهؤلاء وثبت أن يبيعوا أنفسهم بعرض من الدّنيا ب﴿أَنْ يَكْفُرُوا بِما أَنْزَلَ اللَّهُ﴾ من الكتب ﴿بَغْياً﴾، أي حسدًا، ﴿أَنْ يُنَزِّلَ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ عَلى مَنْ يَشاءُ مِنْ عِبادِهِ﴾ من أجل أن أنزله اللّه على موسى وعيسى ومحمّد –عليهم السّلام– تفضّلا منه دونهم، فنازعوا اللّه –تعالى– وكفروا ، وكذّبوا بما جاءت به الأنبياء ﴿فَباؤُ بِغَضَبٍ﴾ من الكفر والتّكذيب ﴿عَلى غَضَبٍ﴾من المنازعة.

فهذا دليل على أنّهم صدقوا بالإنزال أنّه من عند اللّه ، وقد يستروح

ص 161

سورة البقرة (2) : آية 92

﴿وَلَقَدْ جاءَكُمْ مُوسى بِالْبَيِّناتِ ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظالِمُونَ﴾ (92(

من كتاب إيجاز البيان في الترجمة عن القرآن:

من قوله: ﴿عَلى مَنْ يَشاءُ﴾ أنّ اليهود حسدت العرب حيث كان محمد الذي يجدونه مكتوبا عندهم من العرب ولم يكن من بني إسرائيل ، فأدّاهم ذلك إلى الكفر بالقرآن ، ثمّ قال: ﴿وَلِلْكافِرِينَ﴾، الجنس أيضا، ﴿عَذابٌ مُهِينٌ﴾ في مقابلة إهانتهم للقرآن، ومَن جاء به، من قوله: ﴿لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ﴾، وغير ذلك؛ فهو خصوص عذاب لصفة مخصوصة في كلّ من ظهرت منه وعوقب بها.

ثمّ قال: (92) ﴿وَإِذا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا بِما أَنْزَلَ اللَّهُ﴾، الضّمير يعود على اليهود ، وما هنا فيما أنزل اللّه يريد القرآن والإنجيل. ﴿قالُوا نُؤْمِنُ بِما أُنْزِلَ عَلَيْنا وَيَكْفُرُونَ بِما وَراءَهُ﴾ يؤيّد ذلك قوله: ﴿وَهُوَ الْحَقُّ﴾، الضّمير يعود على المنزل ، ﴿مُصَدِّقاً﴾، أي جاء مصدّقا لِما معهم ، يريد: التّوراة التي أنزلت عليهم ، فقالت اليهود: "نؤمن بما أنزل علينا"، يعني: التّوراة ، ونكفر بما وراءه ، تقول:

وراء كتابنا ، أي بما جاء بعده من الكتب ، فقال اللّه لمحمد: ﴿قُلْ﴾ لهم ﴿فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِياءَ اللَّهِ مِنْ قَبْلُ﴾، وكتابكم لا يتضمّن قتل من قتلتموه من الأنبياء، فقولكم: ﴿نُؤْمِنُ بِما أُنْزِلَ عَلَيْنا﴾ ليس بصحيح.

ولهذا قال لهم: ﴿إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ﴾ في إيمانكم بما أنزل عليكم، فقرينة الحال تدلّ على أنّهم قتلوا الأنبياء تكذيبًا لهم مع إتيانهم بالبيّنات والقربان، لأنّهم لو لم يقتلوهم تكذيبًا ما كان قول محمّد –صلّى اللّه عليه وسلّم– لهم: ﴿فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِياءَ اللَّهِ﴾ حجّة عليهم ، لأنّ المؤمن لا يلزم أن يكون معصومًا من وقوع الذنب منه، والقتل فعل ظاهر، وقد يكون من المصدّق والمكذّب.

وقد يكون قوله: ﴿إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾، أي مصدّقين في أنّ اللّه عهد إليكم في كتابكم (ألّا تؤمنوا لرسول حتّى يأتيكم بقربان تأكله النّار) فقد جاءوا ، فلم قتلتموهم؟ (93) ﴿وَلَقَدْ جاءَكُمْ مُوسى بِالْبَيِّناتِ ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ﴾، حين مشى إلى ميقات ربّه، ﴿وَأَنْتُمْ ظالِمُونَ﴾ أنفسكم في ذلك، وظالمون بعضكم لبعض حيث لم تتناهوا عن منكر فعلتموه.

ثمّ قال: (94) ﴿وَإِذْ أَخَذْنا مِيثاقَكُمْ وَرَفَعْنا فَوْقَكُمُ الطُّورَ ، خُذُوا ما آتَيْناكُمْ بِقُوَّةٍ وَاسْمَعُوا ، قالُوا سَمِعْنا وَعَصَيْنا وَأُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ ، قُلْ بِئْسَما يَأْمُرُكُمْ بِهِ

إِيمانُكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ لمّا ذكر أخذ الميثاق ورفع الطّور ظلّة عليهم لمّا امتنعوا من أخذ الكتاب.
ذكر في القصة الأولى بعض الأسباب، وهو ترجّي التّقوى، فقال: ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾

ص 162

سورة البقرة (2) : الآيات 93 إلى 96
﴿وَإِذْ أَخَذْنا مِيثاقَكُمْ وَرَفَعْنا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا ما آتَيْناكُمْ بِقُوَّةٍ وَاسْمَعُوا قالُوا سَمِعْنا وَعَصَيْنا وَأُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ قُلْ بِئْسَما يَأْمُرُكُمْ بِهِ إِيمانُكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (93) قُلْ إِنْ كانَتْ لَكُمُ الدَّارُ الْآخِرَةُ عِنْدَ اللَّهِ خالِصَةً مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ (94) وَلَنْ يَتَمَنَّوْهُ أَبَداً بِما قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ (95) وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلى حَياةٍ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَما هُوَ بِمُزَحْزِحِهِ مِنَ الْعَذابِ أَنْ يُعَمَّرَ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِما يَعْمَلُونَ﴾ (96(

الحرص يتعلّق به الذمّ من جهة متعلّقه إذا كان مذمومًا شرعًا وعقلًا، وقوله –تعالى–: ﴿وَلَتَجِدَنَّهُمْ﴾، الضّمير يعود على قوم مذمومين ، وقرينة الحال تدلّ على أنّ مساقه الحرص فيها على الذمّ تكذيبًا لهم فيما ادعوه من أنّ الدّار الآخرة خالصة لهم من دون النّاس.

من كتاب إيجاز البيان في الترجمة عن القرآن:

إذ ذكرتم ما فيه عند أخذكم إياه بجد وعزم ، وزاد في هذا التّعريف الثّاني لنا أنّه قال لهم: ﴿وَاسْمَعُوا ». وهذا أقوى من الأوّل وأشدّ في التّكليف ، أراد ﴿وَاسْمَعُوا﴾، لتعملوا بما سمعتم، ﴿قالُوا سَمِعْنا﴾ ما قال ربّك لنا في التّوراة، ﴿وَعَصَيْنا﴾، لأنّه شدّد علينا، ووضع علينا من التّكاليف ما يشقّ علينا فعلها ، ونحن نطلب الرفق ، ولهذا أحببنا عبادة العجل،

لأنه لم يكلّفنا ووسّع علينا، فأخبر –تعالى– أنّهم ﴿أُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ﴾، أي خالط لحمهم ودمهم حبّه.
قال اللّه لمحمّد –صلّى اللّه عليه وسلّم–: ﴿قُلْ﴾ لهم: ﴿بِئْسَما يَأْمُرُكُمْ بِهِ إِيمانُكُمْ﴾ في زعمكم إن صحّ كونكم مؤمنين، فهو قوله: ﴿إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾، وقوله: ﴿بِكُفْرِهِمْ﴾ بالتّكاليف الشاقّة عليهم. لما ثبت عندنا وعند اليهود أنّ الجنّة خالصة للمؤمنين باللّه بلا شكّ، وأنّها دار راحة لا تعب فيها ولا نصب، وأنّ الدّنيا دار تعب ونصب، والنّفس مجبولة على طلب الرّاحة، والجنّة لا تحصل إلّا بعد الموت، فالموت مطلوب للمؤمن لتخليصه من المشقّة وحصوله على الرّاحة؛ وأنتم تزعمون أنّكم مؤمنون، وأنّ لكم الدّار الآخرة، يريد: الجنّة خالصة من دون النّاس، يريد: النّاس كلّهم أو المسلمين خاصّة، فتمنّوا الموت، إن كنتم صادقين في القطع بسعادتكم، فقال اللّه لمحمّد –صلّى اللّه عليه وسلّم– (95) ﴿قُلْ﴾ لهم ﴿إِنْ كانَتْ لَكُمُ الدَّارُ الْآخِرَةُ عِنْدَ اللَّهِ خالِصَةً مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ﴾، ثمّ أخبر نبيّه عن حال اليهود، فقال: (96) ﴿وَلَنْ يَتَمَنَّوْهُ أَبَداً بِما قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾، وهذا من آياته –صلّى اللّه عليه وسلّم– نطقه بالغيب، فأخبر بما يكون منهم من عدم تمنّي الموت قبل وقوع ذلك منهم، فكان كما قال. قال –عليه السّلام–

ص 163

سورة البقرة (2) : آية 97
﴿قُلْ مَنْ كانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقاً لِما بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدىً وَبُشْرى لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ (97(

راجع نزول القرآن على القلب آية 121.

من كتاب إيجاز البيان في الترجمة عن القرآن:

لو تمنّوا الموت ما قام أحد من مجلسه حتّى يموت غصصًا بريقه، فأخبر –عليه السّلام– بالأمر قبل كونه، وقال: ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾ وعيد وتهديد لليهود، لأنّهم يعلمون أنّهم ظالمون، فإنّهم على يقين من صدق ما كفروا به، ويعلمون أنّ اللّه يعلم ذلك، وعملهم يقتضي بالحال أنّهم يعتقدون أنّ اللّه لا يعلم ذلك، كما يذهب إليه بعض النظّار من الفلاسفة أنّ اللّه لا يعلم الجزئيّات. فهذا فائدة قوله لهم: ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾.

ثمّ قال لمحمّد –صلّى اللّه عليه وسلّم–: (97) ﴿وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلى حَياةٍ﴾ هما معمولان لهذا الفعل، أي أشدّ النّاس حرصًا، والألف واللّام للجن ، فإنّهم أحرص على الحياة من كلّ أحد وخصوصًا ﴿و﴾ أحرص ﴿مِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا﴾، فإنّه لا أحد أحرص على الحياة ممّن لا يقول بالبعث، فيستغنم الحياة الدّنيا، فهو شديد الحرص على طلبها؛ وهؤلاء اليهود المنكرون ما تيقّنوا أنّه صدق، وقد تيقّنوا العقوبة على ذلك من كتابهم، فهم قاطعون بالوعيد، فحرصهم على الحياة أشدّ من حرص مَن لا يؤمن بالبعث لما يؤلون إليه في الدّار الآخرة من العذاب، وهو الأوجه في التّرجمة عن هذه الآية.

وقوله: ﴿عَلى حَياةٍ﴾ منكّرة، أي حياة بهذه الصّفة من الطّول ﴿يَوَدُّ أَحَدُهُمْ﴾، أي يتمنّى ﴿لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ﴾، والمعنى: أبدًا، لعلمه بما يصير إليه بعد الموت. قال –تعالى–: ﴿وَما هُوَ بِمُزَحْزِحِهِ مِنَ الْعَذابِ أَنْ يُعَمَّرَ﴾، فهنا وجهان:

– الواحد: أنّ الدّنيا لا بدّ من تناهيها، فلا بدّ من الموت واللّحوق بما ذكرناه من الوعيد لهم؛ ففيه أنّهم لا يتوبون ولا يتوب اللّه عليهم. فهذا يأس من اللّه لهم، وهو سديد.

والوجه الآخر: أنّه، وإن كانت الإقامة في الدّنيا لهم سرمدًا، ولا تكون آخرة، فليس هذا ممّا ينجيهم من عذابنا، فإنّ العمر الطّويل وغير الطويل لا ينجي من العذاب.

﴿وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِما يَعْمَلُونَ﴾، أي يبصر ويرى ما يكون من أعمالهم، تنبيه على الخوف والحياء منه –سبحانه–، وفيه هنا تهديد: (98) ﴿قُلْ مَنْ كانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقاً لِما بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدىً وَبُشْرى لِلْمُؤْمِنِينَ﴾: زعمت اليهود أنّ اللّه أمر جبريل أن يجعل النّبوّة في بني إسرائيل، فجعلها في العرب، فاتّخذوه عدوًّا، كما فعلت الرّافضة، حيث قالوا: "إنّ اللّه أمر جبريل أن يجعل النّبوّة في عليّ ، فجعلها في محمّد – صلّى اللّه عليه وسلم–. وهذا من جملة ما ذكر رسول اللّه –صلّى اللّه عليه وسلّم– أنّه يكون في أمّته، فقال في الحديث الصّحيح: [إنكم لتتبعون سنن من

ص 164

سورة البقرة (2) : الآيات 98 إلى 102

﴿مَنْ كانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَمَلائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكالَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِلْكافِرِينَ (98) وَلَقَدْ أَنْزَلْنا إِلَيْكَ آياتٍ بَيِّناتٍ وَما يَكْفُرُ بِها إِلاَّ الْفاسِقُونَ (99) أَ وَكُلَّما عاهَدُوا عَهْداً نَبَذَهُ فَرِيقٌ مِنْهُمْ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يُؤْمِنُونَ (100) وَلَمَّا جاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِما مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتابَ كِتابَ اللَّهِ وَراءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لا يَعْلَمُونَ (101) وَاتَّبَعُوا ما تَتْلُوا الشَّياطِينُ عَلى مُلْكِ سُلَيْمانَ وَما كَفَرَ سُلَيْمانُ وَلكِنَّ الشَّياطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَما أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبابِلَ هارُوتَ وَمارُوتَ وَما يُعَلِّمانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولا إِنَّما نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلا تَكْفُرْ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُما ما يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ وَما هُمْ بِضارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَتَعَلَّمُونَ ما يَضُرُّهُمْ وَلا يَنْفَعُهُمْ وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَراهُ ما لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلاقٍ وَلَبِئْسَ ما شَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ لَوْ كانُوا يَعْلَمُونَ﴾ (102(

]قصّه هاروت وماروت[

تكلّم بعض المفسّرين بما لا ينبغي في حقّ الملكين، وبما لا يليق بهما، ولا يعطيه ظاهر

من كتاب إيجاز البيان في الترجمة عن القرآن:

قبلكم شبرًا بشبر وذراعًا بذراع] الحديث ، وفيه [قالوا: يا رسول اللّه أاليهود والنصارى ؟ قال: فمن] فهذا من ذلك ، اتّباع الرّوافض اليهود في نسبة الخيانة لجبريل، فقال – تعالى–: ﴿قُلْ مَنْ كانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ﴾ لأجل هذا، فإنّ جبريل ما فعل شيئًا ولا تعدّى أمر اللّه، فإنّ اللّه أنزله على قلب محمّد بإذن اللّه، أي بأمره. قال –تعالى–: ﴿وَما نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ﴾، ﴿مصدقا﴾، يعني: الكتاب الذي هو القرآن، ﴿لِما بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ من الكتب المنزّلة، ﴿وَهُدىً﴾: وبيانًا لمَا فيها، ﴿وَبُشْرى لِلْمُؤْمِنِينَ﴾: لمَن آمن باللّه وملائكته وكتبه

ورسله، ولم يفرّق في الرسالة بين أحد من رسله، ﴿وقالوا سمعنا وأطعنا﴾ ، (99) ثمّ زعمت اليهود أن من أراد أمرا وأراد الآخر خلافه، فإنّ كل واحد منهما عدوّ للآخر ،

ص 165

الآية ، وقد شهد اللّه للملائكة بأنهم لا يعصون اللّه ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون ، فقد كذب هؤلاء المفسّرون ربّهم في قوله في حقّ الملائكة، قال –تعالى–: ﴿وَاتَّبَعُوا ما تَتْلُوا الشَّياطِينُ عَلى مُلْكِ سُلَيْمانَ﴾ من علم السّحر الذي مزجوه بما أنزل على الملكيْن هاروت وماروت من علم الحقّ، ﴿وَما يُعَلِّمانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولا﴾ له ﴿إِنَّما نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلا تَكْفُرْ﴾، فإنّ مقلوب الحمد كفر، وهو الذمّ ﴿فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُما﴾، أيّ من العلميْن، ﴿ما يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ﴾، وهو القدر من السّحر الذي يعطي التّفرقة، واللّه قد كره ذلك وقد ذمّه، وندب إلى الألفة

من كتاب إيجاز البيان في الترجمة عن القرآن:

وجبريل صاحب العذاب والشدائد ، وميكائيل صاحب الخصب والخير فيما يزعمون ، فكل واحد منهما عدو للآخر ، فأخبر تعالى أنهم إن صدقوا ، فإنّهم عدو للاثنين معا ، ومن كان عدوا لهما فهو عدو للّه وملائكته ، فيكون اللّه عدوا له وللكافرين ، وتنزيل صورة العداوة منهم لجبريل وميكائيل ، أنّهم يريدون بالمؤمنين إنزال العذاب عليهم بالجوع ونقص من الثمرات ، فيرون الخصب فيهم والخير لهم. وذلك بيد ميكائيل، فيكونون عدوا له، لأنّه أنعم على أعدائهم، ويرون ما نزل بهم من رفع الطّور والصّاعقة، وغير ذلك، وهو من جبريل، فهم أيضًا عدو له. فلذلك قال –تعالى–: « من كان عدوا للّه وملائكته وجبريل وميكال »، فخصهما بالذّكر مع دخولهم في عموم ملائكته، ﴿فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِلْكافِرِينَ﴾ الفاء جواب من، ثمّ قال: (100) ﴿وَلَقَدْ أَنْزَلْنا إِلَيْكَ آياتٍ بَيِّناتٍ﴾، يعني: في القرآن ، تظهر صدقك في أنّك نبي، ﴿وَما يَكْفُرُ بِها إِلَّا الْفاسِقُونَ﴾ الخارجون عن أمر اللّه من أهل

الكتب، حيث أمرهم اللّه في كتبهم أن يؤمنوا بك وبما أنزل إليك فعصوه ، وخرجوا عن أمره ، وهو الفسوق ، والفسوق الآخر في حق الذين خرجوا عما تعطيهم دلالات المعجزات من التصديق بمن جاء بها فلم يؤمنوا ، والفسوق الثّالث من المقلّدين حيث مكّنهم اللّه من النّظر والبحث بما أعطاهم من العقل والفكر فلم يفعلوا وقلدوا؛ فهؤلاء أيضا فسقوا أي خرجوا عما تقتضيه عقولهم من أن يكونوا علماء بما هم فيه مقلدون ، فعمّ الفسوق جميع الفرق ، وهذا من جوامع الكلم ، ثم قال: (101) ﴿أَ وَكُلَّما عاهَدُوا عَهْداً نَبَذَهُ فَرِيقٌ مِنْهُمْ﴾ هو قوله: ﴿ثُمَّ يَنْقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ﴾، فأخبر –تعالى– أنّه أخذ عليهم مواثيق مرارا ونكثوا عهد اللّه مرارًا؛ فقد يكون المعنى: ﴿وَما يَكْفُرُ بِها إِلَّا الْفاسِقُونَ﴾، أي إلّا الذين فسقوا ونقضوا عهد اللّه، وأو بمعنى الواو العاطفة المعنى؛ وكلّما عاهدوا عهدا مع اللّه ورسوله نبذه، أي رمى به فريق منهم، ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يُؤْمِنُونَ﴾، يريد المقلدين لعلمائهم. فإنّ العلماء قليلون والمقلدين كثيرون، فالمقلّد ليس بموقن حقًّا، وعالمهم ليس كذلك، فإنّه يعرف الحق ولا يقول به ويكتمه عن المقلّد له ، فيتضاعف العذاب على العالم ، فإنّ عليهم إثم البرسيين، وهم الأتباع.
ثمّ قال: (102) ﴿وَلَمَّا جاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾، يريد

ص 166

وانتظام الشمل . ولمّا علم سبحانه أن الافتراق لا بد منه لكلّ مجموع مؤلّف لحقيقة خفيت عن أكثر النّاس شرع الطّلاق رحمة بعبادهـ ليكونوا مأجورين في أفعالهم غير مذمومين إرغامًا للشّياطين؛ ومع هذا، فقد ورد في الخبر النّبويّ أنّه –صلّى اللّه عليه وسلّم– قال: "ما خلق اللّه حلالًا أبغض إليه من الطّلاق"، ﴿وَما هُمْ﴾، أي السّحرة، ﴿بِضارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾، فإنّه لا تتحرّك ذرّة إلّا بإذنه –سبحانه–.

من كتاب إيجاز البيان في الترجمة عن القرآن:

**** محمّدًا –صلّى اللّه عليه وسلم– « مُصَدِّقٌ لِما مَعَهُمْ »أي لما بأيديهم من التوراة« نَبَذَ فَرِيقٌ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتابَ »يعني اليهود« كِتابَ اللَّهِ وَراءَ ظُهُورِهِمْ »قد يريد بالكتاب المنبوذ هنا التوراة والقرآن ، وقد يريد أحدهما ، وهو كناية عن ترك العمل به حيث ألقوه خلف ظهورهم« كَأَنَّهُمْ لا يَعْلَمُونَ »شبههم بالمقلدة في فعلهم ، وقد يحتمل أن يكون المعنى ، كأنهم لا يعلمون ، تقريرا لعلمهم بذلك ولكنهم نقضوا عهد اللّه وفسقوا ، يقول نبذوا كتاب اللّه وراء ظهورهم فلم يعملوا به (103)« وَاتَّبَعُوا ما تَتْلُوا الشَّياطِينُ »من السحر والشعوذة« عَلى مُلْكِ سُلَيْمانَ »على عهد سليمان ، أي في زمن ملكه« وَما كَفَرَ سُلَيْمانُ »أي لم يكن علمه سحرا ولا شعوذة ، بل علمه حق من عند اللّه« وَلكِنَّ الشَّياطِينَ كَفَرُوا »بما دونوه من علم السحر وخلطوه بما أنزل على الملكين هاروت وماروت من الحق ، والشياطين« يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَما أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ »الأمرين معا ممزوجا« بِبابِلَ هارُوتَ وَمارُوتَ وَما يُعَلِّمانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولا إِنَّما نَحْنُ فِتْنَةٌ »فإذا أتى السائل إلى الملكين ليعلماه ، يقولان له« إِنَّما نَحْنُ فِتْنَةٌ »أي إنما نزلنا للتعليم اختبارا ، فإن الشياطين يعلمون الناس السحر ممزوجا بما أنزل علينا« فَلا تَكْفُرْ »أي لا تأخذ من الشياطين فإنك لا تفرق بين الحق من ذلك والباطل ، ثم قال« فَيَتَعَلَّمُونَ »يعني الناس« مِنْهُما »أي من العلمين ، علم السحر والعلم الذي أنزل على الملكين« ما يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ »الرجل« وَزَوْجِهِ »أي امرأته ، وإنما قبله منهم المتعلم لأمرين : الواحد لامتزاجه بالحق الذي أنزل على الملكين ، فإن الشياطين تتصور في صور علمائهم وتقول لهم : هذا هو الذي أنزل على الملكين ، فيصدقونهم ، فيلقون إليهم ما يضرهم ولا ينفعهم من علم السحر ، وأما من اقتصر على الملكين ولم يتعداهما فما علّم إلا حقا منزلا من عند اللّه ، وما نزل من عند اللّه لا يكون كفرا وضلالا ، وهو قوله« وَما هُمْ بِضارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَتَعَلَّمُونَ ما يَضُرُّهُمْ وَلا يَنْفَعُهُمْ »وكل لفظة كفر في هذه القصة قد يكون ضد الإيمان ، وقد يكون بمعنى ستر الحق ، فإن الكفر الستر في اللغة ، وكلا الوجهين في الترجمة عن ذلك صالح ، ثم قال« وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَراهُ »يناقض قوله« لَوْ كانُوا يَعْلَمُونَ«

ص 167

سورة البقرة (2) : الآيات 103 إلى 104

وَلَوْ أَنَّهُمْ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَمَثُوبَةٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ خَيْرٌ لَوْ كانُوا يَعْلَمُونَ (103) يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَقُولُوا راعِنا وَقُولُوا انْظُرْنا وَاسْمَعُوا وَلِلْكافِرِينَ عَذابٌ أَلِيمٌ (104(
تختلف الأحكام باختلاف الألفاظ التي وقع عليها التواطؤ بين المخاطبين ، وإن كان المعنى واحدا فالمصرف ليس بواحد.

من كتاب إيجاز البيان في الترجمة عن القرآن:

بعد هذا فيما يظهر ، فقوله« وَلَقَدْ عَلِمُوا »يعود الضمير على من سأل الملكين فقالا له لا تكفر« ما لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلاقٍ »فإن من كفر لا خلاق له في الآخرة ، فكأنهم قالوا نحن نتعلم منهم ذلك ولا نعمل به ، فإن العلم بالشيء يورث التوقي مما فيه من الضرر لمن جهله ، فلما علموه قامت لهم الأغراض وطلب الرئاسة وتحصيل ما يشتهون بهذا العلم فعملوا به ، فكفروا ، فهو قوله« وَلَبِئْسَ ما شَرَوْا بِهِ »أي باعوا به« أَنْفُسَهُمْ لَوْ كانُوا يَعْلَمُونَ »أن ذلك يقودهم إلى العمل لما في طيه مما في عمله من تقدمهم على أبناء جنسهم ، والافتقار إليهم في آثار ذلك ونيل أغراضهم ، فهذا هو الذي جهلوه ، والذي علموا هنالك لم يكن هذا الذي جهلوه ، وقد بان المقصود من الآية على غاية الاختصار ونزهنا الملائكة فإن اللّه قد أثنى عليهم ، وما بلغنا قط عن اللّه تعالى أنه جرح أحدا من الملائكة ، ثم قال (104)« وَلَوْ أَنَّهُمْ آمَنُوا وَاتَّقَوْا »قد يعود الضمير في آمنوا على الذين سألوا الملكين وما سمعوا منهم ، ولا اتقوا اللّه حين قالوا لمن سألهم لا تكفر باتباع الشياطين لأنهم خلطوا الحق بالباطل ، فقال اللّه فيهم« وَلَوْ أَنَّهُمْ آمَنُوا »أي صدقوا الملكين« وَاتَّقَوْا »واتخذوا ما قالاه لهم وقاية« لَمَثُوبَةٌ »لحصلت لهم من ذلك مثوبة من اللّه وخير« مِنْ عِنْدِ اللَّهِ خَيْرٌ لَوْ كانُوا يَعْلَمُونَ »وقد يحتمل أن يعود الضمير على اليهود في الإيمان بمحمد صلّى اللّه عليه وسلم ، ثم قال (105)« يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَقُولُوا راعِنا »هذا خطاب للمؤمنين ، فإن اليهود كانت تقول هذه الكلمة بلسانها على طريق السب ، فلما سمع اليهود يخاطب بها المؤمنون رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم فرحوا بذلك ، ليقولوها كما يقولها المؤمنون على المعنى الذي تريده اليهود من السب ، وسيأتي

شرحها في سورة النساء إن شاء اللّه ، فنهى المؤمنين عن أن يخاطبوا بها رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم ، ومعناها اسمع منا يا رسول اللّه غرضا لحفظهم ما خاطبهم به ، فقال لهم« وَقُولُوا انْظُرْنا »أي انتظرنا حتى نحفظ ما خاطبتنا به من كلام اللّه ، يقول اللّه للمؤمنين« قُولُوا انْظُرْنا »« وَاسْمَعُوا »ما تؤمرون به« وَلِلْكافِرِينَ »يعني الذين يقولون راعنا على غير المعنى الذي قاله المؤمنون« عَذابٌ أَلِيمٌ »موجع من الألم ، وهو الوجع ، ويقال بالسريانية والعبرانية (راعينا) بالياء والنون ، وأما من قرأ

ص 168

سورة البقرة (2) : آية 105

ما يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتابِ وَلا الْمُشْرِكِينَ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْكُمْ مِنْ خَيْرٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ (105»(

وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشاءُ »جاء تعالى بلفظة من وهي نكرة فدخل تحتها كل شيء ، لأن كل شيء حي ناطق فيدخل تحت قوله من ، لأن بعض النحاة يعتقدون أن لفظة من لا تقع إلا على من يعقل ، وكل شيء يسبح بحمد اللّه ولا يسبح إلا من يعقل من يسبحه ، ويثني عليه بما يستحقه ، فمن تقع على كل شيء إذ كل شيء يعقل عن اللّه سبحانه ، واللّه تعالى ما عرفنا أنه اختص بنقمته من يشاء كما أخبرنا أنه يختص برحمته من يشاء وبفضله ، فإن أهل النار معذبون بأعمالهم لا غير ، وأهل الجنة ينعمون بأعمالهم وبغير أعمالهم في جنات الاختصاص ، فلأهل السعادة ثلاث جنات : جنة أعمال وجنة اختصاص وجنة ميراث ، فينزل أهل الجنة في الجنة على قدر أعمالهم ، ولهم جنات الميراث وهي التي كانت لأهل النار لو دخلوا الجنة ، ولهم جنات الاختصاص فالحكم للّه العلي الكبير ، فإن الاختصاص الإلهي لا يقبل التحجير ولا الموازنة ولا العمل ، وإن ذلك من فضل اللّه ، يختص برحمته من يشاء واللّه ذو الفضل العظيم.

من كتاب إيجاز البيان في الترجمة عن القرآن:

"راعنا " بالتنوين في الشاذ ، فهو من الرعن ، وهو الهوج ، أي لا تقولوا قولا راعنا ، ومنه الرعونة ، وقد روى أن سعد بن عبادة من الأنصار لما قالت اليهود لمحمد صلّى اللّه عليه وسلم راعنا حين سمعوا المؤمنين يخاطبون محمدا صلّى اللّه عليه وسلم بذلك ، قال : لئن قالها رجل منكم للنبي لأضربن عنقه ، فإنه كان عارفا بما تواطئوا عليه في كلامهم ، إذ كانوا حلفاء لهم ، وقيل بل كان سعد بن معاذ ، ثم قال (106)« ما يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتابِ »دخل في ذلك المنافق والذي لم ينافق« وَلَا الْمُشْرِكِينَ »عطف على أهل الكتاب ، وحذف من لدلالة الأول عليه« أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْكُمْ مِنْ خَيْرٍ مِنْ رَبِّكُمْ »حسدا من عندهم حيث لم يكن لهم ذلك الخير« وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشاءُ »في هذا تنبيه على رد من يقول إن النبوة مكتسبة ، فأخبر اللّه أنها اختصاص ، وكنّى عنها بالرحمة لكونه رحم بها نبيه عليه السلام ، ورحم بها من بعث إليه من الأمة ، حتى سلكوا به طريق هداهم ، ثم قال« وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ »أي مزيد الخير الذي يعظم وروده وقدره في قلوب العلماء باللّه ،

ص 169

سورة البقرة (2) : آية 106

ما نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنْسِها نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْها أَوْ مِثْلِها أَ لَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ(106.(

"ما نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ"

]في النسخ والانساء[

أي علامة على صدق ما ادعاه ، فالآيات منسوخة في الأولياء لأنهم مأمورون بسترها ، محكمة في الأنبياء والرسل« أَوْ نُنْسِها »أي نتركها آية للأولياء كما كانت آية للأنبياء« نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْها »من باب المفاضلة أي بأزيد منها في الدلالة ، وهي آيات الإعجاز فلا تكون إلا لأصحابها ، أو لمن قام فيها بالنيابة على صدق أصحابها ، فلا يكون لولي قط هذه العلامة من حيث صحة مرتبته ، وأما قوله« أَوْ مِثْلِها »الضمير يرجع إلى الآية المنسوخة ، فلم يكن لها صفة الإعجاز ، بل هي مثل الأولى ، ولا يصح حمل هذه الآية على أنها آي القرآن التي نزلت في الأحكام ، فنسخ بآية ما كان ثبت حكمه في آية قبلها ، فإن اللّه ما

قال في آخر هذه الآية « ا لم تعلمإِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ » *ولا حكيم ، ومثل هذه الأسماء هي التي تليق بنظم القرآن الوارد بآيات الأحكام ، وإنما قال اللّه تعالى :« أَ لَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ«

من كتاب إيجاز البيان في الترجمة عن القرآن:

ثم قال (107)« ما نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنْسِها نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْها أَوْ مِثْلِها أَ لَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ « * »« سبب نزول هذه الآية فيما قيل ، أن اليهود قالت : ألا تنظرون إلى محمد يأمر بأمر ثم ينهى عنه ويأمر بخلافه ؟ فنزلت هذه الآية ، وهذا السبب كأنه لا يصح عندي ، فإن مساق الآية لا يعطيه ، فإنه قال في الآية« أَ لَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ »على جهة المدح ، وإبدال حكم بحكم من طريق التكليف ما فيه ذلك المدح من جهة القدرة ، إذ كان هذا تحت قدرة كل من له أمر مطاع في عشيرته ، بل الإنسان في بيته ، بل في نفسه ، وإنما الذي يقوي أنه سبحانه أراد بالآية هنا آيات الأنبياء صلوات اللّه عليهم التي نصبها دلالات بحكم الإعجاز على صدقهم ، وقد تقدم تكرارها كثيرا فقال تعالى« ما نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ »أي من دلالة على صدق نبي ، ونسخها ذهابها ورفعها ، إذا كانت فعلا ، فإنه ينقضي ، ولهذا أتى بها نكرة« أَوْ نُنْسِها »يقول : أو نتركها ، مثل القرآن الذي هو آية مستمرة إلى يوم القيامة فلا يعارض ، وكذلك من قرأ « أو ننساها » أو نؤخرها ، وهو ما بقي من الدلالات والآيات ولم يذهب مثل القرآن وغيره ، والذي رفع كعصا موسى وإحياء الموتى ، وقوله« نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْها »يقول : أقوى منها في الدلالة ، لأن الآيات قد تظهر للعام والخاص ، فتكون أقوى من الآيات التي لا يظهر كونها آية إلا للعلماء ، وقوله« أَوْ مِثْلِها«

(*)تفسير هذه الآية بهذا المعنى الوارد هنا ، نسب إلى الشيخ محمد عبده كما جاء في تفسير المنار ، والثابت كما هو واضح أن الشيخ الأكبر محي الدين ابن العربي هو السابق لهذا المعنى الذي لم يرد في تفسير آخر من كتب المفسرين.
ص 170

فأراد الآيات التي ظهرت على أيدي الأنبياء عليهم السلام لصدق دعواهم في أنهم رسل اللّه ، فمنها ما تركها آية إلى يوم القيامة كالقرآن ، ومنها ما رفعها ولم تظهر إلى يوم القيامة ، واعلم أن آيات الأنبياء تختلف باختلاف الأعصار لاختلاف الزمان واختلاف الأحوال ، فيعطي هذا الحال والزمان ما لا يعطيه الزمان والحال الذي كان قبله ، والذي يكون بعده ، فآية كل خليفة ورسول من نسب الغالب على ذلك الزمان وأحوال علمائه ، أي شيء كان ، من طب أو سحر أو فصاحة وما شاكل هذا ، والرسل أوجب اللّه عليهم إظهار الآيات لكونهم مأمورين بالدعاء إلى اللّه ابتداء ، وهو ينشئ التشريع وينسخ بعض شرع مقرر على يد غيره من الرسل ، فلا بد من إظهار آية وعلامة تكون دليلا على صدقه أنه يخبر عن اللّه إزالة ما قرره اللّه حكما على لسان رسول آخر ، إعلاما بانتهاء مدة الحكم في تلك المسألة.

سورة البقرة (2) : آية 107
أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَما لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلا نَصِيرٍ (107)
الأولياء هم الذين تولاهم اللّه بنصرته على الأعداء الأربعة : الهوى والنفس والدنيا والشيطان.

من كتاب إيجاز البيان في الترجمة عن القرآن:

أي بآية مثلها في القوة في الدلالة من الظهور وغيره ، فتكون هذه الأخرى مقوية للأولى ، فإن الأدلة إذا توالت وإن خفيت يقوي بعضها بعضا ، فما من رسول أتى بآية إلا وقوى بها آية الرسول الأول ، والآيات التي هي دلالات على صدق الرسل هي التي لا يقدر عليها إلا اللّه تعالى على وجهين من الإعجاز : الوجه الأول ، أن يأتي بآية يعجز البشر عن الإتيان بها أو مثلها ، والوجه الآخر ، الصرف وهو أن تكون تلك الآية في مقدور البشر ويتحدى الآتي بها أنه لا يقدر أحد أن يأتي بها فيصرفوا عنها ، وعلى كلتا الحالتين يثبت كونها آية ويعلم أن اللّه على كل شيء قدير ، فيأتي ختم الآية بالمدح بالقدرة في موضعه ، ولا يكون هذا على ما ذهب إليه من تقدمنا من المترجمين ، وما رأيت من تنبه لهذا مع وضوحه وبيانه ، إلا أن يكون ولم يصل إلينا علمه ، فهذا لا يمنع ، فإني ما أحطت بأقوال الناس في ذلك ، واللّه يقول الحق وهو يهدي السبيل ، والحمد للّه على نعمه التي لا تحصى ، وأما ترجمتي على مسئلة هاروت وماروت فعلمتها في النوم في رؤيا رأيتها ، فوقفت عندها ، وجاءت الترجمة عن الكلام مطابقة له ، ثم قال تعالى مؤيدا لما ذهبنا إليه في هذا (108)« أَ لَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ »والآيات ليست بخارجة عنهما

ص 171

سورة البقرة (2) : الآيات 108 إلى 109

أَمْ تُرِيدُونَ أَنْ تَسْئَلُوا رَسُولَكُمْ كَما سُئِلَ مُوسى مِنْ قَبْلُ وَمَنْ يَتَبَدَّلِ الْكُفْرَ بِالْإِيمانِ فَقَدْ ضَلَّ سَواءَ السَّبِيلِ (108(

وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمانِكُمْ كُفَّاراً حَسَداً مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِنْ بَعْدِ ما تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللَّهَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (109)« حَسَداً مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ »للواسطة فإن الحسد في الجنس ، فإن اللّه تعالى لم يزل ربا ، ولم نزل عبيدا في حال عدمنا ووجودنا ، فكل ما أمر سمعنا وأطعنا ، في حال عدمنا ووجودنا ، إذا لم يخاطبنا بفهوانية الأمثال والأشكال ، فإذا خاطبنا بفهوانية الأمثال والأشكال وألسنة الإرسال ، فمن كان مشهوده ما وراء الحجاب وهو المثل والرسول سمع فأطاع من حينه ، ومن كان مشهوده المثل سمع ضرورة ولم يطع للحسد الذي خلق عليه من تقدم أمثاله عليه ، فظهر المطيع والعاصي ، أي عصيّ على مثله لكونه ما نفذ فيه أمره

بالطاعة ، ما عصيّ على اللّه ، فإنه لا يتمكن أن يخالف أمره على الكشف ، فانحجب بالإرسال انحجابه بالأسباب.

من كتاب إيجاز البيان في الترجمة عن القرآن:

فهي في ملكه وتحت قدرته ، وهو الذي عجزكم عن الإتيان بأمثالها ،« وَما لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ »ممن يتولاكم بالمعونة على الإتيان بمثلها ، كما توليت أنا أنبيائي ورسلي بها« وَلا نَصِيرٍ » *ولا من ينصركم بحجة على دفع ما جاءت به رسلي من الآيات كما نصرت أنا رسلي بها حجة عليكم ، قال تعالى : (وَتِلْكَ حُجَّتُنا آتَيْناها إِبْراهِيمَ عَلى قَوْمِهِ)وقال تعالى : (فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبالِغَةُ)ومما يؤيد ما ذهبنا إليه قوله أيضا متصلا بهذا (109)« أَمْ تُرِيدُونَ »يعني اليهود« أَنْ تَسْئَلُوا رَسُولَكُمْ »يعني محمدا صلّى اللّه عليه وسلم ، وأضافه إليهم لأنه ممن بعث إليهم وإلى جميع الخلق« كَما سُئِلَ مُوسى مِنْ قَبْلُ »كما سأل أسلافكم موسى من قبل ، فقالوا(أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً)وغير ذلك مما قد ذكرناه فيما تقدم مما سألوه ، فهذا يدلك أنه أراد نسخ الآيات المعجزات لا آيات الأحكام ، إذ ليس للحكم هنا مدخل ولا يدل عليه وصف ، فصح ما ذكرناه ، ثم قال :« وَمَنْ يَتَبَدَّلِ الْكُفْرَ

ص 172

سورة البقرة (2) : آية 110 وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكاةَ وَما تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِما تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (110(

تضاف الصلاة إلى البشر بمعنى الرحمة والدعاء والأفعال المعلومة شرعا ، فجمع البشر هذه المراتب الثلاث المسماة صلاة.

من كتاب إيجاز البيان في الترجمة عن القرآن:

بِالْإِيمانِ »وهو قوله : (اشْتَرَوُا الضَّلالَةَ بِالْهُدى) *وقد شرحناه قبل« فَقَدْ ضَلَّ »يقول : فقد حاد عن« سَواءَ السَّبِيلِ »أي عدل والتفت عن الطريق المستقيم الموصل إلى السعادة ، وهو قوله فيما ندعوه به(اهْدِنَا الصِّراطَ الْمُسْتَقِيمَ)(110)« وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمانِكُمْ كُفَّاراً »يقول : يتمنى اليهود أن تصغوا إليهم فيما يلقونه إليكم من الكفر في معرض النصيحة « ليردوكم » أي ليرجعوكم« مِنْ بَعْدِ إِيمانِكُمْ »بمحمد صلّى اللّه عليه وسلم« كُفَّاراً »به مثلهم« حَسَداً »أي يفعلوا ذلك حسدا لعلمهم بأنكم على الحق وأنكم تسعدون بذلك ، وقوله :« مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ »يقول : إن الذي جاءوا به لم يكن من كتابهم ، فما قالوه إلا من عندهم ، لأنه قال :« مِنْ بَعْدِ ما تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ »الذي أنتم عليه ، وقوله :« فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا »دليل على تقدم ذنب ظهر للمؤمنين منهم ، إذ التمني من عمل القلب فيكون الذنب الذي أمر المؤمنون بأن لا يؤاخذوهم عليه ، هو ما روي أنهم اجتمعوا بطائفة من الصحابة بعد وقعة أحد وقالوا لهم:

"لو كنتم على الحق ما نصر عليكم عدوكم من المشركين ، فارجعوا إلى ما نحن عليه واتركوا ما جاءكم بهم محمد"

صلّى اللّه عليه وسلم فأبت الصحابة ، وقالوا : [رضينا باللّه ربا وبالإسلام دينا وبمحمد نبيا] وأرادوا مجازاتهم ، فأنزل اللّه« فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ »يحتمل وجهين : الواحد ، يوم القيامة قال تعالى : (أَتى أَمْرُ اللَّهِ)والوجه الآخر ، ما أمروا به بعد ذلك من قتل بني قريظة وإجلاء بني النضير« إِنَّ اللَّهَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ »أي أنه القدير على مجازاتهم على ذلك ، ولكن أمهلهم إلى وقت يحكم اللّه فيهم لئلا تشترك الصحابة في مجازاتهم من غير أمر اللّه ، بل من عند أنفسهم ، كما فعلوا هم بما قالوه من عند أنفسهم لا من كتابهم ، فنزه اللّه أولياءه المؤمنين عن أن يشاركوهم في هذا القدر ، وليقتدوا بمحمد صلّى اللّه عليه وسلم في قوله : (إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا ما يُوحى إِلَيَّ) *ثم أتبع ذلك بقوله لهم : (111)« وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكاةَ »يقول لهم : واشتغلوا بما كلفتموه من إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة ، وقد تقدم شرحهما ، ثم أخبرهم فقال :« وَما تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ »أي ما تقدمونه بين أيديكم لآخرتكم من أجل نفوسكم أن يعود عليها من خير مما شرعناه

ص 173

سورة البقرة (2) : آية 111وَقالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلاَّ مَنْ كانَ هُوداً أَوْ نَصارى تِلْكَ أَمانِيُّهُمْ قُلْ هاتُوا بُرْهانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ (111(

فأكذبهم في التحجير بما ذكره اللّه تعالى في أول سورة البقرة في قوله :« أُولئِكَ عَلى هُدىً مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ »« قُلْ هاتُوا بُرْهانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ »البراهين لا تخطئ في نفس الأمر ، وإن أخطأ المبرهن عليه ، فذلك راجع إليه ، وأما البرهان ، فقوي السلطان.

من كتاب إيجاز البيان في الترجمة عن القرآن:

لكم من الأعمال المقربة إلينا« تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ »كما ورد في الصحيح [إن الصدقة تقع بيد الرحمن فيربيها كما يربي أحدكم فلوه أو فصيله[

وقوله : [إن فلانا استطعمك – الحديث] وفيه [فلو أطعمته لوجدت ذلك عندي]

وقوله :« فَإِنَّ اللَّهَ بِما يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ »إذا كان بالياء المنقوطة من أسفل فهو وعيد لهم ، أي اشتغلوا بما كلفتم عنهم وعن عقوبتهم ، فإن اللّه بما يعملون بصير ، والعامل في الباء بصير ، وبصير هنا عالم بأعمالهم ، أي بقصدهم فيها ، هل يسعدهم ذلك أو يشقيهم ، إذ ليس للرؤية بمعنى البصر فائدة ، ومن قرأ بالتاء فهو للمؤمنين خطاب من اللّه على ذلك الحد من علمه بالقصد في العمل ، ثم أخبر عنهم فقال : (112)« وَقالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كانَ هُوداً أَوْ نَصارى »جمع بالضمير بين القولين لاتحاد المقول ، وهو دخول الجنة ، إذ كل واحد من الطائفتين يضلل الأخرى كما سيأتي في قولهم : (لَيْسَتِ النَّصارى عَلى شَيْءٍ)عن اليهود ، ومثل ذلك من النصارى ، فكأنه قال : وقالت اليهود لن يدخل الجنة إلا من كان هودا ، جمع هائد ، كعوذ جمع عائذ ، وحول جمع حائل ، ويقال للمذكر والمؤنث بلفظ واحد ، وقد يكون هودا مصدر يؤدي عن الجمع ، كما يقال رجل صوم ، وزور ، وفطر ، للواحد والاثنين والجمع ، وقالت النصارى : لن يدخل الجنة إلا من كان نصرانيا ، فقال تعالى :« تِلْكَ أَمانِيُّهُمْ »أي لم يكن الإخبار عما يجدونه في كتبهم ، وإنما هو شيء يتمنونه ، يعلم اللّه ذلك منهم ، فتلك إشارة إلى القولة إنها من أمانيهم المتقدمة ،

كقوله : (ما يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا)و(يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ)و(وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ)فتلك الأماني ، وأما احتجاجنا على التمني بقوله : (ما يَوَدُّ)وهو نفي التمني فلما يتضمنه من تمني النقيض ، ثم قال اللّه لمحمد صلّى اللّه عليه وسلم« قُلْ »يا محمد لهم« هاتُوا بُرْهانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ »فإن الذي جاءوا به هو خبر محتاج إلى دليل على صدقه ، وليس لهم حجة ، لأنه خبر عن تمنيهم ، وليس في اللفظ ما يدل على التمني ، وإنما عرفنا ذلك من كون اللّه

ص 178

سورة البقرة (2) : آية 112

بَلى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ(112).(

اعلم أن الإحسان أعلى درجة في الإيمان ، وأعلى الإحسان المشاهدة ، وأدناه المراقبة ، والمحسن قد تحقق الصدق في دعوى قوله« إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ »والصدق في هذه الدعوى إنما يكون بالإخلاص للّه سبحانه وحده ، فقوله :« إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ »خطاب لموجود يشاهد مع العبادة ، ويراقب مع الاستعانة ، لأننا مع المشاهدة نرى أفعال اللّه تعالى فينا وفي غيرنا ، ومع المراقبة نعلم أنه الذي أسمعنا ما نسمعه في أنفسنا ومن غيرنا ، وهو الذي أوجد حركاتنا وحركات غيرنا وسكناتهم ، فالمشاهدة على هذا رؤية تقع موقع العيان ، والمراقبة رؤية قلب ، ولا تتحقق العبادة والاستعانة إلا ممن يعرف المشاهدة والمراقبة ، فمن أسلم وآمن وأحسن فقد عرف معالم الدين الذي نزل به جبريل على النبي صلّى اللّه عليه وسلم ، ليعلم الأمة معالم دينهم ، ولا يظفر بهذه الصفة إلا من أسلم وجهه للّه وهو محسن.

من كتاب إيجاز البيان في الترجمة عن القرآن:

تعالى أخبر أن ذلك من أمانيهم ، فشرحنا لكلام اللّه ، فهو شرح الشرح ، لعلمنا بأن اللّه صادق فيما يخبر به ، ولا حجة لهم ولا برهان على صدق ما أخبروا به ، ثم أكذبهم اللّه فقال : (113)« بَلى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ »قوله :« بَلى »إثبات لما نفوه من دخول غيرهم الجنة ، ولم يقل سبحانه إن اليهود والنصارى لا يدخلون الجنة ، فإن اليهود والنصارى الذين آمنوا بنبيهم وأسلموا للّه وأحسنوا وماتوا قبل بعث محمد صلّى اللّه عليه وسلم إنهم يدخلون الجنة ، فلهذا أضرب عن تعيين طائفة بعينها منا أو منهم ، وأتى بمن لفظة عامة ، تعم كل من عينه الوصف الذي وصفت به من إسلام الوجه للّه والإحسان ، فكأنه يقول ليهود المدينة القائلين هذا والنصارى : إنما يدخل الجنة من كان بهذه الصفة ، وهم أعلم بنفوسهم ، هل هم بهذه الصفة أم لا ، وقوله :« فَلَهُ »الفاء جواب من ، والضمير يعود عليه ، « وأسلم » بمعنى انقاد و « وجهه » عينه وذاته « للّه » من أجل اللّه ، أي لأمر اللّه حيث أمره« وَهُوَ مُحْسِنٌ »يعني في انقياده ، وهو أن يعبد اللّه كأنه يراه ، وقد يخرج محسن على إتيان مكارم الأخلاق« فَلَهُ أَجْرُهُ »على عمله ذلك الذي فرض له ، سواء طلبه أو لم يطلبه« عِنْدَ رَبِّهِ »« وَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ »قد تقدم شرحه في أول السورة (114)« وَقالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصارى عَلى شَيْءٍ »الآية ، يتوجه في هذه المقالة ثلاثة أوجه ،

ص 175

سورة البقرة (2) : الآيات 113 إلى 114

وَقالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصارى عَلى شَيْءٍ وَقالَتِ النَّصارى لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلى شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتابَ كَذلِكَ قالَ الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ فِيما كانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (113) وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَساجِدَ اللَّهِ أَنْ يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ وَسَعى فِي خَرابِها أُولئِكَ ما كانَ لَهُمْ أَنْ يَدْخُلُوها إِلاَّ خائِفِينَ لَهُمْ فِي الدُّنْيا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذابٌ عَظِيمٌ (114(

الدنيا هي الدار القريبة إلينا ، نشأنا فيها وما رأينا سواها ، فهي المشهودة وهي الحفيظة علينا والرحيمة بنا ، فيها عملنا الأعمال المقربة إلى اللّه ، وفيها ظهرت شرائع اللّه ، وهي

الدار الجامعة لجميع الأسماء الإلهية فظهرت فيها آلاء الجنان وآلام النار ، ففيها العافية والمرض ،

من كتاب إيجاز البيان في الترجمة عن القرآن:

الوجه الواحد ، مباهتة بعضهم لبعض مع معرفة كل فريق منهم أن الفريق الآخر على حق ، إذ كان كل فريق أهل كتاب ، وأن في التوراة نبوة عيسى ، وفي الإنجيل نبوة موسى ، والوجه الثاني ، أن يقول كل فريق ليس الآخر على شيء من دينه ، أي أنه لا يعمل بدينه ولا بما أنزل عليه ، فإن النصارى لو آمنت بالإنجيل لصدقتنا ، فإن الإنجيل يصدقنا ، وتقول النصارى لو آمنت اليهود بالتوراة لعرفت أنا على الحق ، فإن التوراة تصدقنا ، والوجه الثالث ، أن يكونوا صادقين فيما قالوه ، فإنه ببعث محمد صلّى اللّه عليه وسلم ارتفعت كل شريعة قبله ، فقالت اليهود وصدقت ليست النصارى على شيء فإن بعث محمد صلّى اللّه عليه وسلم والقرآن نسخ شرعهم ، فإن الإنجيل يدلهم على ذلك ،« وَقالَتِ النَّصارى »وصدقت« لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلى شَيْءٍ »لأن بعث محمد صلّى اللّه عليه وسلم والقرآن نسخ دينهم وهو في التوراة عندهم ، وهو أصدق الوجوه فيما يرجع إلى علمهم بما في كتابهم ، فهو اعتقادهم وإن لم يتلفظوا به ، ولهذا قال اللّه تعالى :« وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتابَ »يعني التوراة والإنجيل ، فيعلمون الحق بيد من هو ، وهو بيد محمد عليه السلام ، فوبخهم اللّه تعالى أشد التوبيخ حيث شبههم بمشركي العرب الذين ليسوا أهل كتاب وأنكروا نبوة محمد عليه السلام ، ثم قال :« كَذلِكَ قالَ الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ »وهم المقلدة« مِثْلَ قَوْلِهِمْ »يعني قول علمائهم ، ثم قال :« فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ »الضمير يعود على المتنازعين من جهة المعنى المقصود كانوا من كانوا ، ولهذا لم يثن على إرادة الطائفتين قال تعالى : (ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ عِنْدَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ) ،وهو قوله :« يَوْمَ الْقِيامَةِ فِيما كانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ »(115(

»وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَساجِدَ اللَّهِ »الآية ، وإن نزلت

وفيها السرور والحزن ، وفيها السر والعلن ، وما في الآخرة أمر إلا وفيها منه مثل ، وهي الأمينة الطائعة للّه ، أودعها اللّه أمانات لعباده لتؤديها إليهم وهي ترقب أحوال أبنائها ما يفعلون بتلك الأمانات التي أدتها إليهم ، هل يعاملونها بما تستحق كل أمانة لما وضعت له ، فمنها أمانة توافق غرض نفوس الأبناء ، فترقبهم هل يشكرون اللّه على ما أولاهم من ذلك على يديها ، ومنها أمانات لا توافق أغراضهم ، فترقب أحوالهم هل يقبلونها بالرضى والتسليم لكونها هدية من اللّه ، فيقولون في الأولى : الحمد للّه المنعم المفضل ، ويقولون فيما لا يوافق الغرض : الحمد للّه على كل حال ، فيكونون من الحامدين في السراء والضراء ، فتعطيهم الدنيا هذه الأمانات نقية طاهرة من الشوب ، فبعض أمزجة الأبناء الذين هم كالبقعة للماء والأوعية لما يجعل فيها ، فيؤثر مزاج تلك البقعة في الماء والماء كله طيب عذب في أصله ، قال قتادة : ما أنصف الدنيا أحد ، ذمت بإساءة المسئ فيها ، ولم تحمد بإحسان المحسن فيها ، فلو كانت بذاتها تعطي القبح والسوء ما تمكن أن يكون فيها نبي مرسل ولا عبد صالح ، كيف واللّه قد وصفها بالطاعة فقال : إن علوها وسفلها قالا : أتينا طائعين ، قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم : إذا قال أحدكم : لعن اللّه الدنيا قالت الدنيا : لعن اللّه أعصانا لربه ، فهذا ابن

من كتاب إيجاز البيان في الترجمة عن القرآن:

هذه الآية في سبب خاص ولكن الحكم عام ، فقال :« وَمَنْ »فأتى بصيغة النكرة ، يقول : ومن أشد ظلما من شخص منع من أراد« أَنْ »يذكر اللّه في المساجد ، وهي البيوت التي جعلها معبدا تؤدى فيها فرائضه و« يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ »وأمر برفعها عما يجوز من العمل في البيوت ، فقال : (فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ)أي يصلي (له) للّه(فِيهَا)في المساجد ، فهل ترفع عن دخول الكفار فيها ؟

هي مسألة خلاف فيما يحرم من ذلك ، وأما تنزيهها عن ذلك على جهة الندب فلا خلاف فيه ، فمن خرج« أَذِنَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ » ،أي أمر وحمله على الوجوب ، منع من دخول الكفار جميع المساجد ، المشركين وغيرهم ، وأما المسجد الحرام الذي بمكة فقد ورد النص بأن لا يقربه مشرك وأنه نجس ، فمن علل المنع بالنجاسة وجعل النجاسة لكفره وعلل المسجد لكونه مسجدا منع الكفار كيفما كانوا من جميع المساجد ، ومن رأى أن ذلك خاص بالمسجد الحرام ولهذا خص بالذكر وأن ما عدا المشرك وإن كان كافرا لا يتنزل منزلته ، منع دخول المشرك المسجد الحرام وكل مسجد ، لقوله تعالى : (فِي بُيُوتٍ)وجوز الدخول فيه لمن ليس بمشرك ، ومن أخذ بالظاهر ولم يعلل منع المشرك خاصة من المسجد الحرام خاصة ، فإن النبي صلّى اللّه عليه وسلم حبس في المسجد في المدينة ثمامة بن أثال حين أسر وهو مشرك ، وهو الأوجه ، ومنع « 1 » غير المشرك من

---

(1)هكذا في الأصل والصواب ولم يمنع.
ص 177

عاق لها ، كيف لعنها وصرح باسمها ، والدنيا من حنوها على أبنائها لم تقدر أن تلعن ولدها ، فقالت : لعن اللّه أعصانا لربه ، وما قدرت أن تسميه باسمه ، فهذا من حنو الأم وشفقتها على ولدها ، فيا عجبا فينا لم نقف عندما أمرنا اللّه به من طاعته ، ولا وفقنا ولا وفينا ما رأيناه من أخلاق هذه الأم وحنوها علينا ومحبتها ، وقال النبي صلّى اللّه عليه وسلم : نعمت الدنيا مطية ، عليها يبلغ الخير وبها ينجو من الشر ، فوصفها بأن حذرها على أبنائها تذكرهم بالشرور وتهرب بهم منها ، وتزين لهم الخير وتشوقهم إليه ، فهي تسافر بهم وتحملهم من موطن الشر إلى موطن الخير وذلك لشدة مراقبتها إلى ما أنزل اللّه فيها من الأوامر الإلهية المسماة شرائع ، فتحب أن يقوم بها أبناؤها ليسعدوا . فهذا صلّى اللّه عليه وسلم قد وصفها بأحسن الصفات وجعلها محلا للخيرات ، والناس نسبوا ما كانوا عليه من أحوال الشرور التي عيّنها الشارع إلى الدنيا ، وهي أحوالهم ما هي أحوال الدنيا ،

لأن الشر هو فعل المكلف ما هو الدنيا ، ونسبوا ما كانوا عليه من أحوال الخير ومرضات اللّه التي عينها الشارع للآخرة ، وهي أحوالهم ما هي أحوال الآخرة ، لأن الخير هو فعل المكلف ما هو الآخرة ، فللدنيا أجر المصيبة في أولادها من أولادها ، فمن عرف الدنيا بهذه المثابة فقد عرفها ، ومن لم يعرفها بهذه المثابة وجهلها مع كونه فيها مشاهدا لأحوالها شرعا وعقلا فهو بالآخرة أجهل ، فراقبوا اللّه هنا عباد اللّه ، مراقبة الدنيا أبناءها ، فهي الأم الرقوب ، وكونوا على أخلاق أمكم تسعدوا.

من كتاب إيجاز البيان في الترجمة عن القرآن:

المسجد الحرام ومن المساجد ومنع المشرك من سائر المساجد أولى ، لقوله تعالى : (أَذِنَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ)إلا أن يقترن بذلك أمر أو حالة فلا بأس ، فوصف اللّه بالظلم الشديد من منع المسجد ممن أراد أن يذكر اللّه فيه بصلاة وغيرها ، ولم يخص أهل دين من أهل دين إذا كان قصد الداخل إليها ذكر اللّه فيها ، فهذا قوله : (أَنْ صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرامِ) ،وقوله :« وَسَعى فِي خَرابِها »وجهان : الوجه الواحد هدمها وإزالة رسمها ، حتى لا يبقى لها حد يعرف من غيرها من المواضع ، وقد لعن اللّه من غير منار الأرض لما يؤدي ذلك إليه من إبطال الوقوف وأكل الأموال بالباطل ، فإن خرب سلطان أو أحد مسجدا لما في بقائه من الضرر لمنازلة عدو ومحاصرة بلد ، أو لمنفعة لاتساع خندق أو موضع قتال ، ففيه نظر ، وهل يبني المخرب له عوضا منه في موضع آخر ويرد الوقف الذي كان له إلى ما بناه بدلا منه ؟ أو لمن يرجع الوقف هل لصاحبه أو لبيت المال أو لما يبنى بدله ؟ والوجه الآخر منع الذكر فيها سعي في خرابها ، إذ كان بناؤها لإقامة ذكر اللّه ، وأما

ص 178

سورة البقرة (2) : آية 115
وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَما تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ واسِعٌ عَلِيمٌ (115(

»فَأَيْنَما تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ »هذه حقيقة منزهة بلا خلاف ، فإن اللّه جل جلاله عن التقييد ، فهو قبلة القلوب ، فوجه اللّه موجود في كل جهة يتولى أحد إليها ، ولا بد لكل مخلوق من التولي إلى أمر ما ، ووجه الشيء ذاته وحقيقته ، فكما نسب الحق الفوقية لنفسه من سماء وعرش ، نسب لنفسه الإحاطة بالجهات كلها بقوله :« فَأَيْنَما تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ »لحكم المراتب ، فإن اللّه تعالى جعل وجهه في كل جهة ليعصم من شاء ويحفظ من شاء ، فإن الحق مع بعض عباده بالولاية والعناية وبالكلاءة والرعاية ، فله تعالى عين في كل أين ، ومع هذا لو تولى الإنسان في صلاته إلى غير الكعبة مع علمه بجهة الكعبة لم تقبل صلاته ، لأنه ما شرع له إلا استقبال هذا البيت الخاص ، بهذه العبادة الخاصة ، فإذا تولى في غير هذه العبادة التي لا تصح إلا بتعيين هذه الجهة الخاصة ، فإن اللّه يقبل ذلك التولي مثل الصلاة على الراحلة ، فالمستقبل لا يتقيد فهو بحسب ما تمشي به الراحلة ، كما أنه لو اعتقد أن كل جهة يتولى إليها ما فيها وجه اللّه لكان كافرا وجاهلا ، ولولا أن الإجماع سبق في أن التوجه إلى القبلة أعني الكعبة شرط من شروط صحة الصلاة ، لما كان ذلك شرطا في صحتها ، فإن قوله تعالى :« فَأَيْنَما تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ »نزلت بعد الأمر بالتوجه إلى الكعبة ، وهي

قوله :« أُولئِكَ ما كانَ لَهُمْ »يعني الكفار المذكورين« أَنْ يَدْخُلُوها إِلَّا خائِفِينَ »أي هذا كان الأولى ، وفيه إباحة الدخول للكفار في المساجد على هذه الحالة من ظهور الإسلام عليهم ، ثم قال :« لَهُمْ فِي الدُّنْيا خِزْيٌ »ومن فعل هذا فله في الدنيا خزي أي ثناء سوء ، فإنه مؤلم لهم ما يذكرون به من القبيح ، فإنهم يقرءون في كتبهم أنه مذموم من فعل ذلك ، فيتألمون به وإن فعلوه ، وأما غير أهل الكتاب فخزيهم ما يرون من تعظيم المسلمين لمساجدهم وطردهم عنها ، فيجدون لذلك حزنا ولا سيما إذا دخلوا دار الإسلام« وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذابٌ عَظِيمٌ »مضاعف للمنع والتخريب ، فيمنعوا أن تنالهم رحمة اللّه وتخرب أجسادهم في النار بإنضاج الجلود وغير ذلك ، وأما سبب النزول فإنها نزلت في أنطاخوس

بن برسيس الرومي ومن معه من نصارى الروم ، حين منعوا بيت المقدس أن يصلى فيه ، وظهروا على اليهود فقتلوهم وخربوا بيت المقدس ، وقوله:
"(116)وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَما تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ واسِعٌ عَلِيمٌ »هذه الآية محكمة

ص 179

آية محكمة غير منسوخة ، ولكن انعقد الإجماع على هذا وعلى قوله تعالى« فَأَيْنَما تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ »محكما في الحائر الذي جهل القبلة ، فيصلي حيث يغلب على ظنه باجتهاد بلا خلاف ، ولا خلاف أن الإنسان إذا عاين البيت أن الفرض عليه هو استقبال عينه ، وأما إذا لم ير البيت فعندنا أن استقبال الجهة هو الفرض لا العين ، فإن في ذلك حرجا ، ومعلوم أن الصف الطويل قد صحت صلاتهم مع القطع بأن الكل منهم ما استقبلوا العين ، وإصابة الجهة في غير الغيم المتراكم ليلا أو نهارا في البراري لا يقع إلا بحكم الاتفاق ، فأحرى إصابة العين ، فلا إعادة على من صلى ولم يصب الجهة إذا تبين له ذلك بعد ما صلى ، واعلم أنه قد جاء ذكر وجه الحق في آيات كثيرة ، فإذا أردت أن تعلم حقيقته ومظهره من الصورة التي يتجلى فيها الحق ، فاعلم أن حقيقته من غمام الشريعة ، بإرث نور التوحيد ، ومظهره من العمل وجه الإخلاص« فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ » *الآية ويدل على أن وجهه تعالى الإخلاص مظهر قوله تعالى :« يُرِيدُونَ وَجْهَهُ » *وقوله تعالى :« إِنَّما نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ »وقوله تعالى :« إِلَّا ابْتِغاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلى »والمراد في ذلك كله الثناء بالإخلاص على أهله تعبيرا بإرادة الوجه عن إخلاص النية ، وتنبيها على أن مظهر وجهه سبحانه يدل على أن حقيقة الوجه هو بارق نور التوحيد لقوله تعالى :« وَلا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلهاً آخَرَ لا إِلهَ إِلَّا هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ »أي إلا نور توحيده ، وهو نور السماوات والأرض بدليل قوله صلّى اللّه عليه وسلم : « أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت به الظلمات ، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة » وبهذا يفهم سر قوله تعالى :« فَأَيْنَما تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ »ولوجه ربنا سبحانه رداء ، وله حجب وله سبحات ، فأما رداؤه سبحانه فقد نبه عليه قوله صلّى اللّه عليه وسلم : « جنتان من فضة آنيتهما وما فيهما ، وجنتان من ذهب آنيتهما وما

فيهما ، وما بين القوم وبين أن ينظروا إلى ربهم إلا رداء الكبرياء على وجهه في جنة عدن » فالرداء هنا واللّه أعلم هو ما يحجب القلب عن رؤية الرب

من كتاب إيجاز البيان في الترجمة عن القرآن:

فيمن جهل القبلة ، فاجتهد وصلى على أنه مواجهة القبلة ثم تبين له بعد ذلك أنه لم يستقبلها ، أن صلاته صحيحة ولا إعادة عليه ، وفي المصلي على الراحلة ، وفي السفينة حيث توجهت به راحلته ، وما من جهة إلا وقد كانت قبلة في أمة من الأمم ، وفي هذه الآية دليل على أن اللّه لا يختص بجهة ، وأن نسبة الجهات إليه نسبة واحدة ، ولهذا جاء بالاسم الواسع والعليم ، لاتساعه في حكم جميع

ص 180

سبحانه ، وهو أن يكون في قلبك كبرياء لغيره ، فأهل الجنة ليس لهم مانع من نعيم الرؤية ، وشهود نور التوحيد إلا رداء الكبرياء ، فمن كبر في قلبه غير اللّه تعالى من غرف أو تحف أو حور أو مأكول أو مشروب أو شيء سواه حجب عن اللّه تعالى . ومن عرف اللّه صغر عنده كل شيء فارتفع عن بصره رداء الكبرياء لكل شيء فشهد اللّه في كل شيء ، وبهذا يظهر لك سر افتتاح الصلاة بالتكبير ، لأن الصلاة حضرة التجلي والمناجاة والمراقبة لأنوار سبحات وجهه سبحانه ، وأما حجبه فقد ثبت في الصحيح « حجابه النور » وفي رواية « حجابه النار » وليس بين الروايتين تناف ، ولك في تأويله سبيلان : أحدهما أن وجهه سبحانه هو الباقي ذو الجلال والإكرام ، فله تجل بجلاله في حجاب النار ، كما تجلى سبحانه لموسى صلّى اللّه عليه وسلم حين آنس من جانب الطور نارا ، وله تجل بإكرامه في حجاب النور ، كما تجلى تعالى لمحمد صلّى اللّه عليه وسلم ليلة الإسراء في قوله صلّى اللّه عليه وسلم : « رأيت نورا » وهذان الحجابان لأهل الخصوص ، والتأويل الثاني ، وهو لأرباب العموم ، يؤخذ مما قررناه أنه لا فاعل في الكون غيره ، ولا هادي ولا

مضل سواه ، يهدي من يشاء ويضل من يشاء ، لا يسأل عما يفعل وهم يسألون ، فوجه توحيده هو الذي ينعم ويهدي بإقباله ، ويعذب ويضل بإعراضه ، وله في هدايته النور وهويته المتجلية للقلوب بواسطة شرائع رسله قال تعالى :« قَدْ جاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتابٌ مُبِينٌ يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوانَهُ سُبُلَ السَّلامِ »وحجابه في إضلاله النار وهو الاكتساب المغشي للقلوب من وساوس الشيطان المخلوق من النار« كَلَّا بَلْ رانَ عَلى قُلُوبِهِمْ ما كانُوا يَكْسِبُونَ كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ »قد بيّن بذلك أن وجه توحيده ، هو الهادي بإقباله ، في حجاب نور الاتباع للرسل« فَمَنِ اتَّبَعَ هُدايَ فَلا يَضِلُّ وَلا يَشْقى »وأنه هو المضل بإعراضه في حجاب الاتباع لوسواس الشيطان ، فإنه لا تنافي بين قوله حجابه النور وبين قوله حجابه النار ، وبذلك يفهم سر قوله صلّى اللّه عليه وسلم : « اللهم اجعل في قلبي نورا وفي سمعي نورا وفي بصري نورا إلى قوله واجعلني نورا » أي اجعلني من جميع الوجوه نورا دالا ، وحجابا يتنعم برؤيتي من أراد التنعم بحسن النظر إليك ، وقد جاء في

النسب إليه ، عليم بكم أينما توليتم أن قصدكم التوجه إليه سبحانه على طريق القربة ، وفي قوله :« الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ »وأين ما تولوا ، تنبيه أن كل من سجد إلى جهة معينة ليس مقصده الجهة

ص 181

الصحيح « إن للّه سبعين حجابا من نور » وذلك لا تنافي بينه وبين قوله : « حجابه النور » لأنه جنس يصلح لشمول الأفراد وإن تعددت ، والحق أن حجب أنواره تعالى لا حصر لها ، لأنه ما من شيء إلا وهو حجاب من وجه ربنا ، وآية من آيات وحدانيته « وفي كل شيء له آية ، تدل على أنه واحد » وبذلك يعرف أن عدد السبعين ليس للحصر ، قال الأزهري وغيره من علماء اللغة : العرب تضع السبع موضع التضعيف وإن جاوز السبع ،

وأصل اعتبار هذا العدد في تضعيف حجبه أن للّه تعالى صفات ذاتية وهي العلم والحياة والقدرة والإرادة والسمع والبصر والكلام ، فهذه سبع صفات ذاتية يتجلى سبحانه في حجب أنوارها بوجه توحيده فكانت هي مبدأ التضعيف في حجب أنواره تعالى ، ثم إن آيات صفاته تعالى في تجلياتها تتضاعف برتبة العشرة ، ورتبة المائة ، ورتبة الألف ، وأما سبحات وجهه سبحانه فقد ثبت في الصحيح « لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه » وقد أولها العلماء رضي اللّه عنهم بجلاله تعالى وهو تأويل صحيح ، لكن وجه ربنا ذي الجلال والإكرام له بجلاله سبحات ، وله بإكرامه سبحات ، وإذا أردت أن تجري في التأويل على وفق الاستعمال اللغوي والقواعد التي مهدناها ، فاعلم أن السبحات جمع سبحة ، والسبحة في اللغة : ما يتطوع به من ذكر وصلاة وتسبيح ونحوها مما لا يحصر أفراده ، وقد ثبت أن أنوار الطاعات حجب وجهه سبحانه ، ونور الذكر شامل لجميعها ومهيمن على سائر سبحات الإكرام والجلال ، وقد قال تعالى :« فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ »فذكر اللّه تعالى لنفسه ولعبده سبحة وجهه شاملة لأنواع سبحاته ، وذكر العبد له نور حجابه ، فما دام العبد يشهد ذكره لربه ، فوجه ربه متجل عليه في حجابه بسبحة ذكره ، كما ثبت في الصحيح « أنا عند ظن عبدي بي وأنا معه حين يذكرني » ولا يزال العبد يذكر اللّه ، وذكره له يبعده عن شهود نفسه ونسبتها ، ويقربه من شهود توحيد ربه ، حتى ينكشف حجاب ذكره للّه ، وتتجلى له سبحة ذكر اللّه له ، هناك تحرق سبحته نسبة الأفعال والأذكار للعبد ، وتظهر نسبتها للرب ، كما ثبت في الصحيح : « ولا يزال عبدي يتقرب إليّ بالنوافل حتى أحبه ، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به ، وبصره الذي يبصر به ، ويده التي يبطش بها ، ورجله التي

من حيث عينها ، وإنما قصده وجه اللّه بتلك العبادة ، والإنسان لا ينفك عن الجهات لنفسه ، فلا بد أن يكون مستقبلا جهة من الجهات ، فدخل في « أين ما تولوا » ما عدا المشرق والمغرب من

يمشي بها » ، وأما قوله : " لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه."
فاعلم أن بصره سبحانه لا يتناهى مبصوراته ، ولا يحجبه عن خلقه حجاب ، وإنما ينكشف لك معنى الحديث لمراجعة ما قررته لك ،.
وبقوله صلّى اللّه عليه وسلم : " أن تعبد اللّه كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك " فنبه بالشرط على أن العبد لا يشهد رؤية اللّه له حتى يغيب عن صفته ورؤيته ومراقبته لربه ، فكل عبادة تصحبها المراقبة فهي نور من حجب وجهه ينظر العبد منه إلى ربه تعالى ، وينظر اللّه منه إلى عبده ، فإذا كشف للعبد فيها حجاب المراقبة شهد رؤية اللّه سبحانه له ، فانتهاء بصره عبارة عن انتهائه بحسب كشف العبد وشهوده ، لا بحسب نفسه ، فإنه لا انتهاء له ، أو خلقه هو صفة العبد ، ورؤيته وإحراقه هو محوه بثبوت صفة الرب للعبد ، وصفة الرب ورؤيته هي سبحة " كُلُّ مَنْ عَلَيْها فانٍ وَيَبْقى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلالِ وَالْإِكْرامِ."

]أوتر رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم على الراحلة حيث توجهت[
رقيقة –أوتر رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم على الراحلة حيث توجهت ، فإن النبي صلّى اللّه عليه وسلم كله وجه بلا قفا ، فإنه قال صلّى اللّه عليه وسلم إني أراكم من خلف ظهري ، فأثبت الرؤية لحاله ومقامه فثبتت الوجهية له ، وذكر الخلف والظهر لبشريته ، فإنهم ما يرون رؤيته ، ويرون خلفه وظهره ، ومن كانت هذه حاله فحيث كانت القبلة فهو مواجهها ، فما أوتر رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم قط على راحلته حيث توجهت إلا والقبلة في وجهه« فَأَيْنَما تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ »فمن كان وجها كله يستقبل ربه بذاته ، ووجه اللّه للمصلي إنما هو في قبلته ودل على أن من حاله هذا الوصف ويرى القبلة بعين منه تكون في الجهة التي تليها فهو مصل للقبلة ، واللّه جل جلاله عن التقييد فهو قبلة القلوب« إِنَّ اللَّهَ واسِعٌ عَلِيمٌ. «
قال تعالى :« رَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ »وهو الواسع لكل شيء ولهذا الاتساع هو لا يكرر شيئا في الوجود ، فإن الممكنات لا نهاية لها ، فأمثال توجد دنيا وآخرة على الدوام وأحوال تظهر ، وقد وسع كرسيه وهو علمه السماوات والأرض ، ووسعت رحمته علمه والسماوات والأرض وما ثم إلا سماء وأرض فإنه ما ثم إلا أعلى وأسفل ، فلا تكرار في

الوجود ، وإن خفي في الشهود ، فذلك لوجود الأمثال ، ولا يعرفه إلا الرجال ، لو تكرر لضاق النطاق ولم يصح الاسم الواسع بالاتفاق ، وبطل كون الممكنات لا تتناهى ، ولم يثبت ما كان به يتباهى ، فإن اللّه واسع على الإطلاق« عَلِيمٌ »بما أوجد عليه خلقه.

الجهات ، ونبه أيضا بالمشرق على العلانية لأنه محل الظهور ، وبالمغرب على السر لأنه محل الغيب ،

ص 183

.

محتويات الجزء الأوّل

من كتاب رحمة من الرّحمن في تفسير وإشارات القرآن

محتويات الجزء الأوّل من كتاب
كتاب رحمة من الرحمن في تفسير إشارات القرآن

– المقدّمة	14–7
1 – تحقيقنا لهذا الكتاب	9
2 – صحّة نسبة الكتاب لفخر الدّين الرّازيّ	12–10
3 – المؤلّف	14–12
4 – نكبة الفخر الرّازي	18–15
5 – مضمون الكتاب	19–18
صورة من الصّفحة الأولى من نسخة كتاب *الفتوحات المكّية* لمحيي الدّين بن عربي الخطّية	21
صورة من الصّفحة الأخيرة من نسخة كتاب *الفتوحات المكّية* لمحيي الدّين بن عربي الخطّية	23
كتاب *الفتوحات المكّية* – الجزء الأوّل	144–29
محتويات الكتاب	276–269

الناشر: شركة كيرانيس للطباعة والنشر والتوزيع
العنوان: إقامة الزيتونة - عمارة عدد 3 – شقة عدد 2 - المنار 2 – أريانة
الهاتف: +216 71886914
الفاكس: +216 71886872
العنوان الالكتروني: JomaaAssaad@yahoo.fr
معرّف الناشر : 9938-02
عدد الطبعة: الأولى
ت د م ك : 978-9938-02-019-9
تم سحب 1000 نسخة من هذا الكتاب

© جميع الحقوق محفوظة لشركة كيرانيس للطباعة والنشر والتوزيع